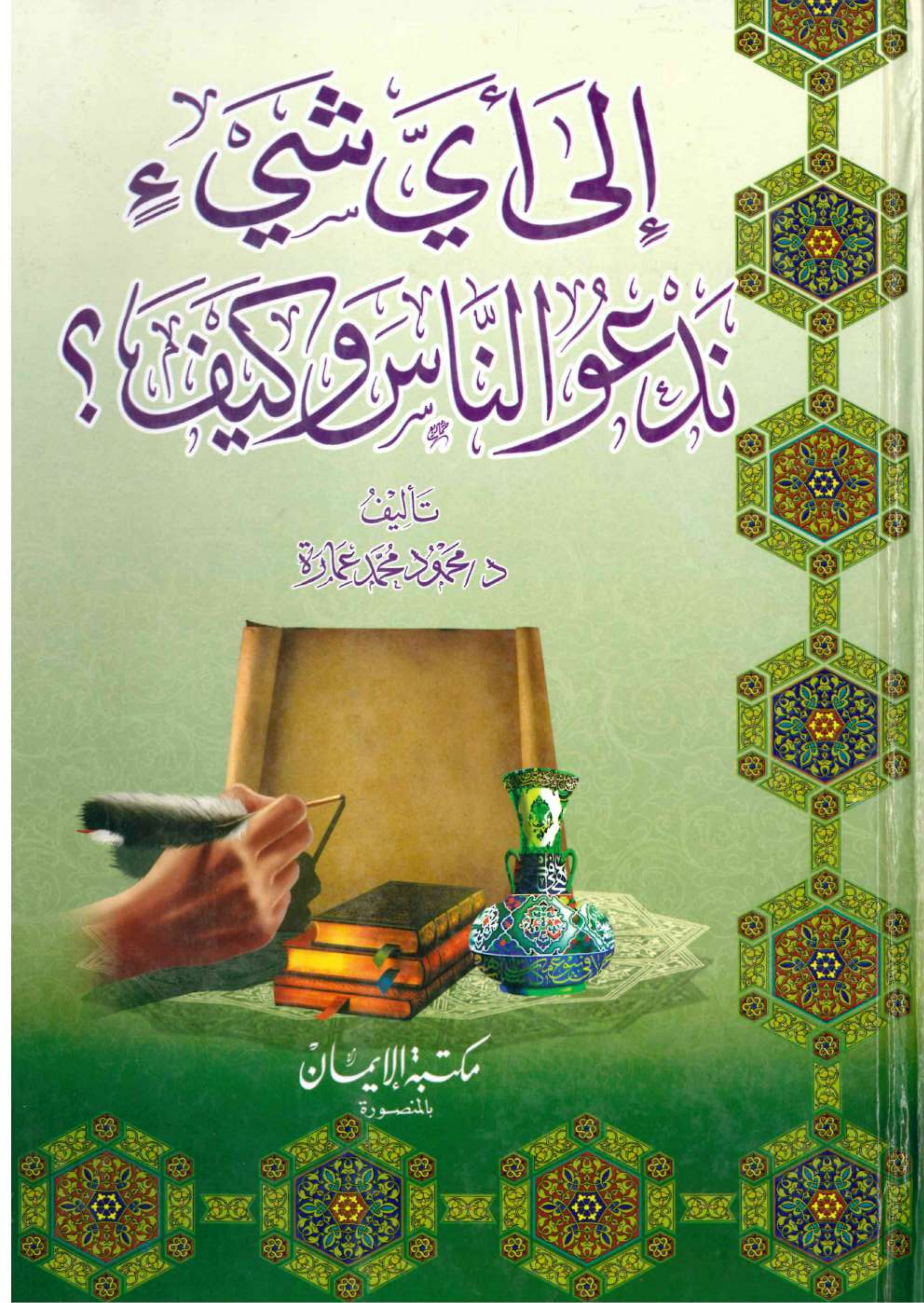


إلى أي شيء
ندعو الناس وكيف؟
تأليف
د/ محمود محمد عمارة
مكتبة الإيمان
بالمنصورة

إلى أى شئ ندعو الناس

وكيف؟

تأليف

د / محمود محمد عمارة

مكتبة الإيمان – المنصورة

ت/ ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م

رقم الإيــداع

٢٠٠٨/٢٦٧٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

إلى أى شىء ندعو الناس ؟ وكيف ؟

اتجه بعض المثقفين للإسلام . . فرأوه محفوظا . . مشتملا على أصل الفضائل وافيا بحاجات الناس ولكنهم لم يفعلوا . . عنادا . .

ثم رموا المسلمين بدائهم . . وبدؤوا يسألون عن تناقض المسلمين أنفسهم :

هل يصلى كل المسلمين ؟

وهل يزكى كل المسلمين ؟

وهل يبروا والديهم ؟

ثم قالوا : بم تفسرون الحرب الإيرانية ؟ ولماذا لا تتحد الجماعات الإسلامية ؟

وبم تفسرون انتشار الجهل بين أهل دين يدعو إلى العلم؟ وبم تفسرون انتشار الأمراض بين أهل دين يدعو للنظافة؟ وبم تفسرون تسلط الحكام على أتباع دين يدعو للشورى؟ وبم تفسرون الزنى فى أهل دين يحرم ذلك؟ وبم تفسرون تخلف المسلمين ؟ وبلا تقدم ؟!!

وبم تفسرون الفرقة بين أتباع دين يدعو للوحدة ؟!!

إلى غير ذلك من التناقض السلوكى بين المسلمين . . ودينهم، وإذا فكلنا متناقضون:

كلنا غرقى فى اليم.

فلنبق على ما نحن عليه !

أما أنتم أيها المسلمون فأنتم أكثر خيانة لدينكم الذى لو طبقتموه .

لأنقذتمونا . . واتبعناكم !!

ويتحمل المسؤولية هنا :

الحاكم . . والمحكوم .

والإعلام والأغنياء

كل من :

يتناقض عمله مع الإسلام .

كل جماعة تحارب أختها .

كل حاكم لا يحكم بما أنزل الله .

كل من لا يصل رحمه .

كل عاق لوالديه .

كل متكاسل عن السعى .

كل أسرة لا تحافظ على نظافة الشارع .

كل من ييسر الفاحشة . .

باختصار :

كل مسلم فى حدود اختصاصه !!

وهكذا يقول أعداؤنا . .

وبهذا رد الغيورون منا . .

لكن ذلك الرد لم يكن ليشفى الغليل . . ويحتاج الأمر إلى شىء من التفصيل . .

فماذا نحن قائلون . . حتى يتضح السبيل ؟ :

نقول :

لا تدار الطائرة إلا بقائد ماهر . .

وليس هناك أمهر من الإنسان . . .

لكنه لن يكون إنسانا إلا بجلال غايته . وطهارة خلقه . وصدق عمله . . .

فما هى غاية الإنسان ؟ وأين السبيل إليها !!

ما هو الزاد اللازم لرحلة بعيدة المدى . .

ذلك ما سوف نوضحه فى الصفحات التالية :

بيان للعقيدة . . التى عليها تدور حياتنا . . وكشفا عن منظومة الأخلاق التى هى ثمرة هذه العقيدة :

ثم . . الإشارة إلى قطاع الطريق الذين يعرقلون المسير، حتى لا نصل إلى أكرم مصير : من داخلنا . . وممن حولنا من أعدائنا المتربصين بنا :

الدعوة إلى العقيدة

أهمية العقيدة

العقيدة ـ وإن كانت خاطئة ـ تشجع الإنسان :

بدليل أن عصابة من اللصوص تعد على أصابع القدم !!

تغلب آلاف المسافرين فى القطار ؟!! لماذا ؟

لأن كل واحد من اللصوص يعتقد بمؤازرة زميله له . .

أما المسافرون : فلا عقيدة تربط بينهم :

وهذا معنى قولهم :

[كثيرا ما تبرز العقيدة نفسها] يعنى :

أن من اعتقد أنه فاضل فقد يدفعه ذلك للعمل الطيب :

وبنفس القوة : من اعتقد أنه رذيل فقد يدفعه ذلك للشر :

ومن أجل ذلك . . كانت حماية الإسلام للمسلم من أن تحتل الخرافة عقله . وأن تشل إرادته . . بمثل قوله ﷺ :

« من أتى كاهنا أو عرافا . . فصدقه بما يقول : فقد كفر بما أنزل على محمد»

ومن معانى ذلك :

أن المسلم فى مواجهة الأحداث معتمد على ربه الغلاب واثق بنصره. .دون سواه. . مؤكدا بذلك أنه : سيد مصيره . .

وهو سيد الكون من حوله :

هذا الكون الذى سخره الله تعالى له طبق نواميس يدركها الإنسان بعلمه . . وليس بالخرافة . .

وهو فى نفس الوقت . . يقضى على كل محاولات شياطين الإنس والجن :

والتى تستهدف ربط الإنسان بالمجهول .. وحرمانه من رحمة ربه باللجأ إلى سواه :

فلا قوة إلا به .. ولا علم إلا منه .. وتسقط كل دعوة تريد استنزاف قوى الإنسان لصالح الوهم والخيال.. ليظل مرتبطا بالكبير المتعال .

من نفاق الأعداء :

ولأن أعداءنا يدركون ما للعقيدة من خطر عليهم .. فقد قرروا أن يضللونا :

إنهم يضللون فيقولون : دولة علمانية ..

مع أن ترجمتها الحرفية هو : لا دينية ..

وقالوا عن الفلسفة : إنها الحكمة

وقد وقع فى الشرك المنصوب رموز إسلامية قالت : الاشتراكيون أنت إمامهم!!

وإذن : فالاشتراكيون على طريقه يسيرون ..

بينما هم عن الصراط ناكبون !!

الحملة مستمرة

يقول سدنة البعث :

[البعث العربى هو : قبول أوضاع مرت بها الأمة العربية فى تطورها ... والإسلام أخصب هذه التجارب .

الرد

إنها فكرة تنكر الوحى وتتجاهل التاريخ .. لاستبعاد الوحى والنبوة كأساس لحياتنا.. والمناداة بالعروبة أساسا لحياتنا ولتكون كل التجارب ومنها الإسلام ـ أبناء لهذه العروبة يحملون طبعها !!

وصار المسلمون كمن قلدوهم :

١ ـ يبحثون فى الأسباب . . ونسوا المسبب سبحانه .

٢ ـ نسوا وظيفتهم فى الحياة .

٣ ـ غلبوا . . فضعفوا .

٤ ـ والمغلوب مولع بتقليد الغالب .

٥ ـ ومن ثم . . قلدوا من غلبهم مفتونين به . . .

ولئن جاز التقليد فى الكونيات فلا يصح التقليد فى الاجتماعيات :

[لأن الفضائل روح الأمة : فالتقليد فيها إخضاع لروح الأمة . وإضعاف لشخصيتها . .

وعلى قدر ذلك التقليد يكون مقدار الضعف . .

أما العلم :

فلا وطن له . . فجاز التقليد فيه .

بتأصيل وجودنا الأدبى مثلما تُؤصل وجودنا السياسى]

وإذا قلدنا أوروبا فى علومها الكونية فلا نتحول إلى أوروبيين . . فاليابان : نقلوا علومهم . . لكنهم ظلوا يابانيين فى عاداتهم التى لا تنطبق على هذه العلوم .

من آثار التفريط فى عقيدتنا :

أولا : مظهر من مظاهر التراخى الذى يشير إلى تراجع اعتزازنا بنعمة الإسلام.

وثانيا : حين نتبع ما يقول المبطلون . . كنا ـ من حيث لا نشعر ـ نعينهم على التمكين لباطلهم .

ثالثا : ربما جرنا اتباعنا لما يخالف شريعتنا إلى الوقوع فى حبهم الوقوع فى اتجاهاتهم الدنيوية .

ولقد ركزت الحضارة الحديثة على الجسم ثم أهملت ثروة الباطن فأتعبت الإنسان.

وهذا ما أشار إليه ﷺ بقوله : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه»
وقوله :

« المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء »

وتأمل كيف حال امتلاء الجسم بين عائشة رضى الله عنها وبين سبقها الرسول ﷺ لما كانت شابة خفيفة الجسم «رواه أحمد وأبو داود» .

العقيدة : أساس التلاقى

فى صحيح مسلم : عن عائذ بن عمرو : أن أبا سفيان أتى على : سلمان وصهيب . وبلال . ونفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها . قال :

فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟!

فأتى النبى ﷺ .

فقال : « يا أبا بكر : لعلك أغضبتهم !

« لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله ورسوله . . » .

فأتاهم أبو بكر فقال :

يا إخوتاه : أغضبتكم ؟؟

قالوا : لا . . يغفر الله لك يا أخى].

وفى التمكين لهذه الأخوة :

١ - **كان** ﷺ **كلما لقى ابن أم مكتوم قال له :« أهلا بمن عاتبنى فيه ربى . . ».**
وقد استخلفه على المدينة مرتين

٢ - **زوج ابنة عمته زينب من زيد بن حارثة.**

٣ - **جعل «أسامة» قائدا وأميرا على الجيش فى مؤتة ، وفى الناس أبو بكر وعمر وسعد خاله .**

يليه ابن عمه : جعفر . . .

ثم ابن رواحة الأنصارى .

٤ ـ ولن ننسى قضاءه على النعرة القبلية بقوله :

« سلمان منا آل البيت»

٥ ـ محاسبة أبى ذر لما سب بلالاً .

حقا ما قيل :

(أيها الإسلام :

لم تزل أشرف فكر : ولكن : أين قومك !

أين قومك الذين يملكون بالإسلام كنزا لا ينبغى التفريط فيه ؟! :

الإسلام : الذى جمع بين بسطة الجسم . وبسطة الروح . .

وبه وحده تتحقق سعادتنا فى الدنيا والآخرة . .

وإليه وحده كان أسلافنا يمشون إلى ضوء الإسلام الذى أضاء حياتهم : فكانوا يدعون إليه ؛ بالعمل . . وليس فقط بالكلام :

وتأمل كيف يتبارى الفلاسفة والمتكلمون . . فى مجال إثبات العقيدة بالأدلة . . .

وقد نجحوا . .

لكنه . . لما كان إيمانا «عقليا» فقد ولد بلا أرجل . . يمشى بها عاملا آملا . .

وقد تكون له أرجل . . لكنها أرجل خشبية .

لا تعطيه حرية الحركة !

لكن الإيمان الحى . . المتحرك هو النابع من الشعور الذاتى بعظمته تعالى : بصفات كماله . . وصفات جلاله . .

كما يشير قوله ﷺ :

« الإيمان : أن تعبد الله .. كأنك تراه فإن لم تكن تراه .. فإنه يراك »..

إنه الإحساس بعظمته تعالى .. وشمول علمه وإحاطته .. وما يثمره من إيمان. فاعل ..

يقول عز وجل :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء:١١٧]

لقد أعلن الإسلام ثورته على الأصنام ..

ومن هذه الثورة ما تشير إليه هذه الآية الكريمة :

فهى تنفرهم من أنوثة آلهتهم .. مع أنهم ينكرون البنت ؟!

وقد تم القضاء على الثورة المضادة لهذه الثورة المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ [العلق: ٦] .. وكان ذلك القضاء بغزوة بدر .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [البقرة:١٠٥] إشارة إلى تحالف قوى الشر .

الأمر الذى يفرض علينا الاتحاد فى موكب للدعوة متسلح بالأمل فى نصر مؤزر ومستقبل واعد .

سلاح الأمل :

لقد كان شباب قريش أفسق من بعض شباب اليوم .. ومع ذلك آمنوا !!

وإذن .. فمن واجب شبابنا اليوم عدم التركيز على مظاهر القوة والغنى فى الغرب كما فعل «ربعى بن عامر» الذى سخر عمليا من هذه المظاهر ففرض احترامه على القائد المغرور .

إن اليهود ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦] .

وأذن :

١ - فهم جبناء .

٢ ـ بخلاء .

وإنما ينتصرون بالحيلة والنفاق :

لقد تحالفت «بنو قينقاع» مع الأوس . .

وتحالفت «بنو قريظة » مع الخزرج . .

وذلك لإغراق الأوس والخزرج بالديون . . فضلا عن إثارة العداوات القديمة بينهم . . لقد كانوا شرا موزعاً . . أما اليوم فهم يخصون العرب بالمؤامرة . .

ولتكن لكم فى السحرة عبرة :

لقد كان سحرة فرعون كفارا . . ثم صاروا مؤمنين . .

أما بنو إسرائيل : فقالوا : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] .

إنه التقليد :

لأنهم يحسون بالاغتراب فى هذا العالم فهم يحاولون استعارة المعتقد . . كما يستعيرون السلاح الأمريكى اليوم !!

وصدق القائل :

إذا كانت كثرة الأنبياء حجة عليهم . . فإنها حجة لنا . . !!

ويبقى المسلمون بعقيدتهم أعزاء .

عزة المؤمن :

يقول الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)﴾ [النساء: ١٤١]

ومن معانى الآية الكريمة :

أن المفروض فى المؤمن أنه يعلو . . ولا يعلى عليه لكننا نذكر هنا ما حدث

خلال «غزوة حنين» :

فقد طلب البعض من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط ـ لما رأوا المشركين أسلحتهم «بسدرة» يعكفون عندها وقال :

الله أكبر إنها السنن :

قلتم والذى نفسى بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى :

﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]

ثم قال :

« لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع .. حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ».

رواه أحمد ٥/ ١٨ ، ورواه الترمذى ٤/ ٤٧٥

تأملات فى الحديث الشريف :

١ـ الحديث تحريض على بقاء المسلم عزيزا بإسلامه : يعلو ولا يعلى

٢ـ مسؤولية المسلمين عن هذه التبعية . . التى لم يفرضها أحد عليهم .

٣ـ والتعبير «بجحر الضب» : زيادة فى التحذير . . ولأن الاتباع سيكون حتى فى المظاهر التافهة . .

كتبعية العميان : حتى فيما لا فائدة من ورائه بدليل أن جحر الضب لا يصلح إلا للضب !!

٤ـ الخروج يحتاج إلى المعاناة والحيلة . .

كيف دخلنا جحر الضب . . وهو أضيق الجحور ؟!!

إن أمر الله تعالى صريح فى الاحتفاظ بشخصيتنا : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٥] .

ومع ذلك . . دخلنا «جحر الضب» بتفرقنا :

أعداؤنا يحفرون الجحر لنا اليوم .

واليهود كما يقرر البصراء ـ يحفرون لنا الجحر :

١ ـ بالعلمانية : التى تنادى بفصل الدين عن الدولة . .

بل بإلغاء الدين كله!!

إلغاء الدين الذى أعدم من قال بكروية الأرض وإلغاء دين شعاره : « اقرأ » .

٢ ـ الوجودية والماسونية .

وحتى بعد فشلهما . . هناك من ينادى بهما !!

الحل هــو :

بالرجعية : الرجوع إلى الوراء .

وليس : بالتقدمية .

فلن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

والعودة للماضى لا تعنى عزلتنا عن العالم المعاصر :

فهناك تبادل المنافع :

٥ ـ تبقى أمتنا خير الأمم بهذه الطائفة التى تحدث عنها ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ».

رغم أنف الحاقدين من أعدائنا :

والتى كانت عداوتهم لنا شنشنة نعرفها من أخذم] :

إلا إنه من قوانين النفس الإنسانية :

أنها تكره أن يفضلها أحد . . وإن كان أخا . ونقرأ فى ذلك قصة ابنى آدم : حين تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . .

ثم قوله تعالى :

﴿ . . . يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون : ٢٤] .

عـــداء اليهـــود

حاول اليـهود تجريد الأمـة الإسلاميـة من معنى الحـكم بادعـاء أن الإسلام دين فقط. . وأرادوا بذلك إضعاف الدولة التركية :

العصر الجاهلى :

أقدم من العصور الوسطى :

لأنه يبدأ قبل سقوط روما . وانتهى بظهور الإسلام سنة ٦١٠م .

وكان العالم بأسره غارقـا فى الجهل .

والقرون الوسطى بدأت بعد سقوط الدولة الرومانية على يد البرابرة ٤٧٦م .

وقد تحـضر العرب بالإسلام . . ثم انعـكست الآية . فتحضـرت الأمم الأخرى [ماديا فقط] .

مخطط اليهود :

كشف العورات

كما حدث فى «بنى قينقاع»

بيوت الأزياء اليوم تنفذ هذه الخطة الشيطانية :

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] .

خطة الشيطان :

١ ـ استغلال الدوافع . . بعيدا عن منهج الله :

أ ـ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه : ١٢٠] .

ب ـ ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] .

جـ ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] .

د ـ فأزلهما : أسقطهما . . وإسرائيل تمثل اليوم رأس حربته !

وتلك سمة الحضارة الحديثة اليوم والتى يتولى كبرها شياطين الإنس الذين يتملقون الغرائز . . وتعنى بالأناقة وليس بالنظافة ـ إنه علم الظاهر . . لا علم الباطن . . اتخذوا إلههم هواهم وأضلهم الله على علم .

فى بريطانيا : نواد للغشاشين والمماطلين :

وشرط العضوية هو :

ألا يدفع المشترك اشتراكه فى الوقت المحدد !

ونذكر هنا تحالف ابن أبى مع «الأوس» رغم أنه «خزرجى» وقد استغل اليهود الحرب بينهما . . وقتلوا الخزرج وسلم «ابن أبى » أسرى الأوس إليهم . .

ثم مناداتهم به ملكا عليهم لولا مجىء الإسلام .

العقيدة هناك :

نفى «اليونان» صفات الله تعالى . . مكتفين بالذات المجردة .

وإذن . . ففيم دعاء، إله مجرد عن الصفات !

والوثنية : خلعت صفات الخالق على المخلوق . . فعبد الناس الأشخاص لأنهم يرون آثارهم مشاهدة . . ولا يرون هذا الإله المغيب ؟!!

رد القرآن :

يقول عز وجل :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وهكذا صار المؤمن بعمله الصالح . . وفى ظل عقيدته أسعد حالا ومآلا :

محاولات فاشلة:

وفى محاولة التهوين من أمر العقيدة :

قال المغرضون :

لأن مكة كانت فى وضع اقتصادى ممتاز . . فلذلك غيرت وجه التاريخ . .

ونقول : كانت هناك مراكز أقوى منها .. فلماذا انبعثت منها الحضرة بالذات ؟!

من أسلحة الملحدين :

الماركسية :

تبارك الرق فى المجتمع اليدوى .. لأن مثل هذا المجتمع لا يضاعف نتاجه إلا بالسوط ..

ومن يمسك السوط هو التقدمى .. وغيره رجعى !!

لا مساواة فى روسيا ..

أما المساواة الحق :فهى فى الإسلام الذى يقول: « كلكم لأدم : لا فضل لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالتقوى» و«الناس سواسية» .

وصار ذلك قاعدة فى أعرق نظام قبلى .. إلى حد أن يتنازل واحد لأخيه عن زوجته بعد طلاقها !

الواقع أعلى صوتا

وفى الجزيرة العربية :

كان لمختلف العلوم ـ بالإسلام ـ بريق فى ساحات العلم .

ولمعان فى سماء الحضارات .

(ولا تزال جامعات باريس ولندن وروما . وبرلين : ما زالت تدرك آثار العلماء المسلمين . . وإن سمتهم بأسماء غير عربية فقالوا عن «الفراغانى» . «الفرا خانوس».

وقالوا عن «أبى معشر» (البوماكير)

وقالوا عن الرازى : [رازيس]

وعن ابن سينا «أفينيا »

ولقد كانت جامعة «نابولى» التى أنشأها الإمبراطور «فردريك الثانى» كانت تعتمد فى دراسة الفلسفة على الكتب العربية الإسلامية .

وكان الإمبراطور نفسه يلبس الثياب العربية . . ويأخذ بالتقاليد العربية الإسلامية فى حياته]

وهكذا الرجل الحازم :

قال أحد الحكماء :

الحازم : يحتال للأمر الذى يخافه .لعله ألا يقع فيه فليس من القوة التورط في الهوة ومن لم يتأمل العواقب بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقتله !

وهذا ما عناه الشاعر القائل :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جـــده أضاع وقاسى الصعب وهو مقصر

ولكن : أخو الحزم الذى ليس نازلا به الأمر إلا وهو للقصد مبصر !

منطق الحزم :

﴿ الله خالق كل شىء ..﴾

خلق الحيوان :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا . . ﴾ [النحل: ٥] .

وخلق النبات :

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . ﴾ [الواقعة : ٦٤] .

وخلق المعادن :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ [الحديد: ٢٥] .

وهو الذى خلق فى البحر :

السمك . والجواهر

أما بعد :

فقد تناقض اليهود

يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾ [الأعلى :١٨]

وإذن : ففى التوراة ما يشير إلى التوحيد .. كما جاء به القرآن .. فلماذا لا تؤمنون ؟!!

إنه الهوى إذن هو الذى يواجهنا :

إنها الصهيونية كتكتل استعمارى .. وليست اليهودية كدين سلام !

مدخـــل

للدعوة معنيان :

الأول هو : ما تدعو الناس إليه وهو : القيم والعمل الصالح .

والثانى : أسلوبك فى الدعوة إلى ما سبق .

وفى هذا الكتاب نتحدث عن الدعوة بمعناها الأول . . والثانى .

وهى كلمات قيلت متفرقة فى مناسبات شتى . نقدمها تبصرة وذكرى : نقدمها غير مرتبة . . كما قيلت غير مرتبة . .

وإنما كانت متفرقة جاءت جوابا عن سؤال . . أو استطرادا فى مجلس علمى . . أو تعليقا على منطق . . ليكون مجموع ذلك كله هو هذا الكتاب . . الذى يواخى؟ القارئ العزيز مضيفا إلى أفكاره فكرة . . وإلى نظرته نظرة . . وإلى فهمه فهما . .

وكل أولئك لا يلزم المؤلف . . بالعرض المنهجى . . المنسق . . بعيدا عما يمور به الشارع من أفكار . . هى فى حاجة إلى الترجيح والتوضيح أكبر من حاجتها إلى المنهجية والتنسيق .

محمود محمد عمارة

حرية المؤمن

دخل «ربعى بن عامر» رضي الله عنه على «رستم» قائد الجيش الفارسى وكان مما قاله جوابا عن سؤاله :

ما الذى جاء بكم إلينا ؟ كان مما قاله . .

(إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها . .] ؟!

قال له ذلك : فى عقر داره . . ومن حوله أركان حربه . . ومن خلفه جيش يحجب الأفق : مائة ألف أو يزيدون .

إن المشهد هنا يعلن عن رفاهية «رستم» والذى يرفل فى حلل النعيم . . وبيده سيف المعز وسلطانه . . بينما ربعى ذلك الجندى البسيط . . مما يحملنا على التساؤل : من منهما فى ضيق الدنيا ومن منهما فى سعة منها ؟ ربعى أم رستم؟ وهنا نذكر قوله عز وجل :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد :١٢]

فماذا فى الآية الكريمة . . مما يكشف النقاب عن رفاهية المؤمن . . على فقره . . وفقر الكافر . . على غناه ؟

إن الآية الكريمة لم تذكر حال المؤمنين فى الدنيا . . ولكنها تركز على مآلهم فى الآخرة . .

بينما تذكر حياة الكافرين فى الدنيا وفى الآخرة معا .

يقول الرازى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ [محمد: ١٢] .

[خصهم بالذكر . . مع أن المؤمن أيضا له التمتع بالدنيا وطيباتها .

ذلك [بأن المؤمن له ملك الجنة . . فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه فى حقه . والكافر ليس له إلا الدنيا] .

إن السياق هنا يطوى حياة المؤمن طيا : فـهى يسيرة محدودة المتاع . . لا وزن لها فى مرأى العين . . ومقارنة بما يرفل فيه الكافر من نعيم .

ولكن العبرة بالخواتيم :

فالمؤمن فى الآخرة فى نعيم دائم . . وكأنه من قبل لم يتألم قط . .

والكافر . . من هول عذابه . . كأنه فى الدنيا لم يتمتع قط ؟!

وربما جاز لنا أن نكيّف الموقف تكييفا آخر يناسب المقام . . فنتساءل :

أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟!

أى الفريقين هو الطليق الحر . . وأيهما السجين المقيد بالأغلال على ما هو غارق فيه من متاع ؟!

إن المؤمن وهو «ربعى» رضي الله عنه هنا هو هذا الطليق الحر . .

بينما الكـافر : بينما رسـتم ـ مع دنيـاه الواسعـة ـ هو منـها فيـمـا يسـاوى سم الخياط ؟!

وكيف . . ؟ كيف نفهم هذه المعادلة التى تبدو عصية على الفهم ؟

إن «ربعى بن عامر» رضي الله عنه مؤمن بالله :

له سيد واحد هو الله . . وبهذه العبودية كان له شرف سيادة هذا العالم كله . .

ثم هو مؤتمر بأمره وحده تعالى متحررا من قبضة الهوى المتقلب . .

وحتى إذا كان فى السـجن . . فما أوسع ذلك السجن على مـا قال يوسف عليه السلام فيما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] إن السـجن المظلم الضيق فى صحبة المبادئ : إنه لبستان فى ضوء هذا الإيمان .

إنه ذلك [الإنسان : الذى يملك نفسه وإرادته والذى له قيم خاصة للحياة .

فهو يختار الطيب عند الله : يختاره عن إرادة : لا يخضعها ضغط الشهوة :

ولا يضعفها هتاف اللذة .

ولا تحتسب الحياة كلها مائدة طعام .وفرصة متاع . بلا هدف . . ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح :

إن الفارق بين الإنسان والحيوان هو :

أن للإنسان إرادة .وهدفا . وتصورا خصائص للحياة يقوم على أصولها الصحيحة .المتلقاة من الله خالق الحياة .

فإذا فقد هذا كله . . فقد أهم خاصًا الإنسان . . وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

هذه المزايا التى تفرض على هذا الإنسان . . ألا يكون مطلق السراح فى هذه الحياة . .

وإنما هو مع مناعمها :

يتعامل معها . . لا على أنها «ملاذ» بل على وجه أنه مأذون له فيها . . وأنها «بلاغ» إلى الآخرة . . وليست ترفا أو تلفا ! . . يريد فقط تقوية الجسم ليكون ركوبه إلى النعيم الباقى هناك :

تقوُّتا . . لا تمتعا . .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

ولقد عبر عن تلك المعاني كلها ربعي بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنهم، وظهر في كلامهم لرستم قائد الفرس أثر هذه الدعوة في النفوس :

قال رستم لربعي بن عامر، رضي الله عنه : ما جاء بكم ؟

قال : الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضى إلى موعود الله .

قال : وما موعود الله ؟

قال ربعي : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي، ولما سأله رستم، بعد نقاش : هل أنت سيد قومك ؟

قال : لا، ولكن المسلمين كالجسد ،بعضهم من بعض ،يجير أدناهم على أعلاهم .

وفي اليوم الثاني بعثوا إليهم حذيفة بن محصن، رضي الله عنه.. فجاء حتى وقف على بساط رستم، فقال له ،ما جاء بكم ؟

قال : إن الله عز وجل من علينا بدينه، وأرانا آياته، حتى عرفناه، وكنا له منكرين. ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها ؟ الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء (الجزية) ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة.

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى المسلمين : ابعثوا لنا رجلا، فبعثوا إليه المغيرة ابن شعبة ، فأقبل المغيرة والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوه (قدر رجعة السهم) لا يصل إلى صاحبهم، حتى يمشي غلوة، وأقبل المغيرة حتى جلس على سريره ووسادته، فوثبوا عليه وأنزلوه وضربوه ضربا ليس شديدا، فقال لهم :

كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ! إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نضعه ،ولم آتكم ولكن دعوتموني اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون، وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ،ولا على

هذه العقول .

فقال السفلة : صدق والله العربي، وقالت الدهاقنة : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أوّلينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة !

ثم تكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه، ورد علي رستم كلامه . . ثم ذكر الكلام الأول .

قال العلماء : [تلكم هى كلمات ربعي وإخوانه، رضي الله عنهم، صدى على طريق الدعوة إلى الله، تنير الطريق أمام الناس وتفتح عقولهم وقلوبهم، فلا عجب أن ينزع إليها العبيد وعامة الناس في فارس من بطانة رستم، وأن يخافها دهاقنة فارس، أي الرؤساء فيها المتسلطون على أولئك العبيد !

« فتبين من ذلك أن دعوة الرسل إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد، وتنديدهم بالكفر والشرك بالله، واجتناب الأوثان والطواغيت . . كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها، والذين يجدون فيها سندا لهم، وعونا على قضاء حاجاتهم وأغراضهم .

ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة ويخاطبهم قائلا :

« ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلما وعدوانا . . وخرجت تقاومه، وتضع في سبيل الدعوة العقبات » اهـ .

وماذا كان على الجانب الآخر ؟ :

ناس يتمتعون: [فى الدنيا بهذه الملاذ : كما تتمتع الأنعام متناسين ما أمر الله . معرضين عن لقائه، بل عن الموت أصلا بل يكون ذكر الموت حاثا لهم على الانهماك فى اللذات . . مسابقة له : جهلا منهم بالله تعالى !

ويأكلون على سبيل الاستمرار «كما تأكل الأنعام» :

أكل التذاذ ومرح : ومن أى موضع كان .وكيف كان الأكل فى سبعة أمعاء . أى : فى جميع بطونهم من غير تمييز للحرام من غيره] .

ومن معانى ذلك :

أن الأنعام يهمها الأكل فقط . .

والكافر كذلك .

ولكن المؤمن يأكل . . ليعمل صالحا .

٢ ـ والأنعام لا تستدل بالنعمة على المنعم سبحانه .

٣ ـ والأنعام تأكل لتسمن . وكلما سمنت كانت قريبة من الذبح .

لكنها لا تدرك العواقب . . والكافر كذلك :

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد : ١٣] .

سجن دائم . . .

هذا فى الآخرة . .

أما فى الدنيا :فهم فى سجن دائم. . وإن لم يكن سجان ولا قضبان .

إنهم فى سجن من العادات والتقاليد التى كبلوا أنفسهم بها .

إن الحياة عندهم :

مرعى خصيب . .

وفى هذا المرعى الخصيب ما لذ وطاب من طعام وشراب . .

ولكنهم داخل السور العظيم . . وخلف الأبواب المغلقة . .

وقد فرضوا على أنفسهم مجموعة من القيود :

فى الأكل تتحكم فيهم عادات . .

وكذلك فى اللباس. . وفى كل أمور الحياة تراهم وقد صبوا فى قوالب من العادات التى لا يبغون عنها حولا . . بل لا يستطيعون . .

إنه مثلا مرتبط بالمرآة : ينسق أمامها هندامه.. بينما العربى البسيط : يكفيه إناء فيه ماء ينسق فيه هندامه ، وبيده المجردة وقد تكون لهم جيوش .. وأرصدة فى البنوك ..

ولكنهم فى ضيق من العيش .. من هذه العادات وتلك التقاليد : ومنها بيوت الأزياء التى تتحكم فى المرأة هناك :

أما نحن :

فنحن فقراء فعلا.. ولكننا أحرار .. لأننا نملك إرادتنا ولا نستسلم لهواجس أنفسنا ..

نحن على ما قال الإمام الشافعى رحمه الله :

على ثياب : لو يباع جميعها بفلس   لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس : لو يباع بمثلها   نفوس الورى .. كانت أعز وأكبرا

وما ضر نصل السيف إخلاق غمده   إذا كان عضبا حيثما وجهته سرى

لقد أقدم «ربعى» على رستم إقدام الشجاع الحذور. وليس الجبان الجسور : إن الخائف مشغول بحراسة كيانه المادى ... بينما عقله بلا حراسة فيهرف بما لا يعرفُ .. ولكن ربعيًا الشجاع كان شجاعا .. فكان منطقه سليما .. وخطوه مستقيما .. وكان مع شجاعته كان يائسأ من «رستم» فكان حرا طليقا : لأن اليأس حر والرجاء عبد ! ولقد كان من حريته وسعته فى نعمة لو علمها رستم لجالده عليها بالسيوف !

لكى تبلغ الطاعة كمالها

تمهيد :

بعد أن دمرت القنبلة الذرية «هيرو شيما» و«نجازاكى» قال بعضهم للباحث «أوتوهان» :

إن تلاميذك قد استغلوا معرفتهم «بالفيزياء» والطاقة . فى صنع القنبلة التى خربت العالم . . فقال :

هذه غلطتى :

لقد علمتهم العلم . . ولم أعلمهم الأخلاق !

وهكذا تبدو الأعمال الكبيرة هباء فى غيبة العنصر الأخلاقى . .

وما تغنى البطولة ولا العبقرية عن الإخلاص الذى لابد منه ليكون للعمل قيمة. ومهما كانت حدة الذكاء من وراء الاختراع . . فإنه يرتد على صاحبه وبالا إذا لم يكن هناك قلب سليم .

وطالما أسقط الإسلام من حسابه كل قول أو عمل لا يراد بهما وجه الله تعالى . . مهما كان العمل كبيرا . . ومهما كان القول بليغا :

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٣-٥٥] .

فالآيات الكريمة : تنفى قبول أعمال قوم وإن بدت ضخمة فى مرأى العين . .

لأن باطنهم خلا من الإذعان لله تعالى ولرسوله . . فإذا صلوا . . فعلى مضض. . وإذا أنفقوا فرياء وسمعة .

ومعنى . . ذلك أن لأعمالهم فى نظر الجماهير بريقا خاطفاً . . لكنها لما لم تصدر عن نوايا طيبة صارت جسدا بلا روح . . وبلا عائد من الثواب . .

ويفرض ذلك على المسلمين ألا تبهرهم تلك الأعمال . . ولا الأموال أو الأولاد . . فلا بركة فيها . . ولا خير يرجى منها . . وإنما هى وبال على أهلها من حيث إنها سبيلهم إلى العذاب فى الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وما أكثر الأضواء المسلطة على إنجازات وناطحات . . بدت فى هالات إعلامية أعشت الأبصار . . لكنها فى ميزان الحق . . لا شىء :

إنها مثل زهور الزينة :

لها شكل الزهور . ولونها . . لكنها بلا روح . . وبلا رائحة !

وإن عملا بسيطا لا يلفت النظر - تدفع إليه نية صالحة - لهو خير للأمة من هذا الركام الذى لم يرد به وجه الله تعالى .

وهنا نتساءل ما هى ضوابط قبول العمل ؟

* متى تبلغ الطاعة كما لها .. ويستحق الطائع ثوابها ؟

والجواب :

لابد للعمل من استيفاء شروط القبول وهى :

١ - نية خالصة تدفع إليه . وتحض عليه .

٢ - أن يكون العمل على الصورة التى أمر بها الشارع الحكيم .

٣ - أن يستمر على الخط المستقيم . ليحقق الغاية منه .

وتصورنا لهذه الضوابط ورؤيتنا لواقع الناس من حولنا .

يبرز أمامنا مجموعة من الفروض :

أ - فقد يكون العمل فى صورته موافقا للشرع . . لكنه خلا من النية الطيبة .

ب ـ وقد تكون نية صالحة ـ لكن العمل الناشئ عنها غير موافق للشريعة .

جـ ـ وقد يبدأ العمل صالحا مقبولا . . لكنه لايستكمل الشروط . . إذ يجهضه صاحبه بالمعصية سرا . وكلما خلا له الجو فلا يحقق مقصوده .

د ـ أن تستوفى الطاعة الشرطين كليهما : فتصدق النية ويستقيم العمل .

وذلك ما نفصله فيما يلى :

أعمال . . مثل كثبان الرمال .

قد يكون العمل مما يعتز به صاحبه . . وتعتز به الأمة كذلك . غير أنه بمنطق الشرع لا يساوى صفرا . لخلوه من النية الصالحة التى إن غابت . . فقد ضاعت قيمة العمل . .

ونتأمل فى ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ . قال :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد . فأتى به . فعرفه نعمه . فعرفها . قال :

فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت . . . ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء . . فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه . حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم . وعلمه . وقرأ القرآن . فأتى به . فعرفه نعمه . فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم . وعلمته . وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ! ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم . وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه . حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه . وأعطاه من أصناف المال . فأتى به . فعرفه نعمه عليه . فعرفها . قال :

فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها

لك . قال : كذبت ! ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل . ثم أمر به . فسحب على وجهه . ثم ألقى فى النار » [1] .

ماذا فى هذا الحديث من دروس ؟

١ ـ إنك أمام أعمال كبار شغلت الرأى العام فى حينها . . وجرت بها أنهار الصحف مدحا لأربابها . . الذين تصدروا بها المجامع وكان لهم بسببها جاه وسلطان . . وكانت لهم أيضا «تسهيلات» .

من قبل الدولة نالوا بها ربحا وفيرا . ونفوذا واسعا .

٢ ـ وتلك كانت موازين الدنيا :

أما ميزان الحق . فى اليوم الحق . فله حساب آخر . . وكان الأمر على ما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [2] لم يكن للأعمال رصيد من النية الصالحة :

فسقطت النياشين من صدر البطل . .

ومزقت «الشهادة» من «ملف» العالم . .

ولم يجد الغنى فى حسابه هناك ما بناه من مدارس . . وما شيده من مرافق . .

بل صار كل ذلك نكالا على أصحابه .الذين لم يكتف بتعذيبهم فى النار حرقا لجسومهم . . وإنما كان الهوان بسحبهم إليها . . وعلى وجوههم . . عذابا . . فوق العذاب : عذابا مهينا . . فوق العذاب الأليم .

٣ ـ ولم يساقوا إلى هذا الهوان إلا بمحاكمة عادلة :

---

(١) مسلم ج ١٢ / ٥٠ : ٥١ .
(٢) الفرقان : ٢٣

فمع أنه تعالى يعلم السر وأخفى . .

إلا أنه أتاح للمتهم أن يدافع عن نفسه . . فلما تبين للعالم أنه قدم العلم الغزير . . لا العلم المفيد . .

وتبين للشهيد أنه «جامل» بروحه بشرا مثله . . ولم يجامل واهب الروح سبحانه . .

ولما ظهر للغنى المرائى أن همه لم يكن تخفيف آلام البشر . . وإنما هو التزلف والنفاق . .

لما تبين ذلك . . جاء الحكم العادل . . الذى أخرس الألسنة الكاذبة الخاطئة .

٤ ـ إن الذين دافعوا ـ نفاقًا عن الحق : بالروح . . والقلم . . والدينار كانوا يخوضون معركة المنافع الشخصية . .

معركة يراد بها كسب مال أو جاه أو سلطان . .

ومعنى ذلك أنهم :

يضعون مصلحة المجتمع تحت رحمة أهوائهم المتقلبة . . فلولم تكن هناك مصلحة . . لما تقدم الشهيد . . ولا درس العالم . . ولا بذل الغنى . . .

وكان الظن أن يرصد ذلك كله لواهبه سبحانه . .

لكنهم لم يفعلوا . . حين تجاهلوا هذه القاعدة الذهبية وهى : لو كانت الدنيا ذهبا يفنى . . وكانت الآخرة خزفًا يبقى . . لكان على العاقل أن يؤثر ما يبقى . على ما يفنى . . فكيف والآخرة هى الذهب . . الباقى ؟!

النيـــــة

ما هى النية ؟ وما أهميتها ؟ وما هو موقعها فى باب الطاعة ؟

نقرأ فى ذلك قوله ﷺ :

« إنما الأعـمال بالنيـات . وإنما لكل امرئ مـا نوى : فـمن كانت هجـرته إلى الله ورسوله . فـهجـرته إلى الله ورسوله ، ومن كـانت هجرته إلى دنيـا يصيـبهـا أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » [1] .

[أهمية النيه] :

تحدد النية مـسار العمل . وهى تميز بين : الفـرض والفرض . وبين الفرض . . والنفل . .

وبين العادة . . والعبادة .

ونية المرء خير من عمله .. لماذا ؟

فـالعمل بدونهـا : عظام نخرة يـجىء صدى لميـول النفس . لا استـجابة لأمـره سبحانه .

أما وجود النية فمعناه : صلاحيـة الإنسان للطاعة . وعمارة باطنة بدوافع الخير . التى تربطه بربه سبحانه وتعالى . . ثم بإخوته فى الإنسانية .

وإذا لم يستطع اليوم أن ينجز عملا . . فسـوف تعلن النية عن نفسها غداً . . أو بعد غد .

---

(١) متفق عليه .

الإسلام والنوايا الطيبة

يفسح الإسلام الطريق أمام النوايا الطيبة المتجهة بالعمل إلى الله تعالى . .

وهو يرحب بالأعمال مهما كانت يسيرة لا تستلفت النظر . . لتقوى الدوافع الشريفة بالممارسة . .

فلا تحقرن جارة لجارتها . . ولو فرسن شاة .

ويدخل رجل الجنة فى كلب سقاه .

وفى الحديث الشريف :

« سبق درهم مائة ألف درهم . . » .

فالمتصدق الغنى لا يكلفه التبرع إلا أن يمد يده لتغرف من البحر الكبير . . ونفسه حينئذ لا تنازعه ؛ لأن له من أمواله الباقية ما يلبى احتياجاتها . . .

أما الفقير المتصدق بالدرهم . . فإن له من نيته سندا قويا يحمله على التبرع فى أقسى الظروف :

فالدرهم الذى يريد إخراجه . . تنازعه نفسه فيه :

فهو محتاج إليه :

ليشترى الثوب للصغير .

والدواء للمريض .

والزاد للمسافر .

والكتاب للمتعلم . . ولكنه يتجاهل ذلك كله . .

بل ربما احتاج إليه ليشترى به الخبز . .

وإذن فتبرعه معناه :

أنه بإنفاق ما هو محتاج إليه يخوض بحرا من الموانع عالى الموج . . ويتخطى

عقبـات كأداء . . ثم يصل إلى الشاطئ منتصرا عـلى نوازع نفسه . . وبكاء ولده . . وعتاب زوجته . . وأنين مريضه !!

ومن هنا سبق درهم .. مائة ألف درهم !!

العمل بين الإفراط والتفريط

وأحيانا تتوفر النيـة الطيبة المتجهة بالمسلم وجهة الخـير . . بيد إن العمل المؤسس على هذه النية لا يوافق الشرع :

إما لإفراطه الجانح به إلى اختراع مالم يأذن به بالله من صور العبادة . .

وإما لتفريطه الهابط به إلى أدنى . . بحيث لا يحقق مقصود العبادة الشامل :

فمن الأول :

ذلك الفتى الذى استفتى الإمام «مالكا» رضى الله عنه فقال :

يا أبا عبد الله : من أين أحرم ؟ [يعنى للحج] .

قال : من «ذى الحليفة» من حيث أحرم رسول الله ﷺ .

فقال : إنى أريد أن أحرم من المسجد . . من عند القبر : قبر رسول الله ﷺ

فقال : لا تفعل . فإنى أخشى عليك الفتنة .

قال : وأى فتنة فى هذا ؟ وإنما هى أميال أزيدها ؟!

قال : وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ إنى سمعت الله يقول :

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] .

فالنية الخالصة متوفرة لكن العمل زاد عن المطلوب الشرعى. وهو ما رفضه الإمام مالك .

ومن الثانى : ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال :

مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة .

فأعجبته فقال :

لو اعتزلت الناس . فأقمت فى هذا الشعب [يعنى تفرغا للعبادة]

ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ . فقال :

« لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى ، أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » [(١)] .

تأملات فى الحديث الشريف :

إنها قصة رجل . فيه من الرجولة قوتها وحيويتها . .

أعجبه الماء والخضرة . فأحب أن يعتزل الحياة فى واحته الصغيرة . .

لكنه لم يقرر ذلك حتى يستشير رسول الله ﷺ . .

ورغم أن العزلة صفاء للنفس . . وبعد عن شرور الخلق . . إلا أنه ﷺ نهاه عنها . .

قائلا : لا تفعل .

لماذا ؟

والجواب :

إذا اعتزل هذا الشاب فمن لليتيم؟

والكَلِّ . . والجاهل . . . والأخرق . .

من للمجتمع ينهض به فى زمان تكالبت فيه الدنيا علينا .

ولا بقاء فيها إلا للأصلح . . والأقوى ؟!

إن من شعائر الإسلام أن تعيش الجماعة أبداً فى وجدان المسلم كل ساعة . .

واقرأ قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٥، ٦] .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن . والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

فإذا اعتزلت فقد غاب هذا المعنى من ذاكرتك فعشت لنفسك لا لأمتك !

وعلى فرض أنك صرت بالعزلة ملكا . . فقد تركت الشيطان ينفرد بإخوان لك مسلمين استحوذ عليهم فى غيابك . وكان الظن أن تكون لهم عونا عليه . .

ولئن كان جميلا أن تعتزل فى شعب مؤثرا كلام الله تعالى تردده فى خلوتك . .

فقد رضيت بما لا يكلف جهدا . . حين طلبت القرآن تعويذة أو تسبيحة . . هى قطرة من بحره الكبير . .

وكان فى إمكانك ـ لو أردت ـ أن تغوص فيه لتستخرج اللؤلؤ والمرجان من القاع العميق حلية تزدان بها أمتك . . وتأخذ مكانها اللائق بين الأمم .

وقد تكون لك خبرة فى صناعة معينة . تصد بها موجة صناعات أجنبية .

يراد بها استعمار عقول إخوتك . . فأنت تارك لفرض من فروض الكفاية !

ويستخرج ﷺ هذا الشاب من عزلته .

مؤكدا أن كل عمل صالح . . وكل خدمة عامة أو خاصة يراد بها وجه الله أفضل من الصلاة فى البيت سبعين عاما . .

أى أن صيرورتك ملاكا داخل البيت لا يصد هجمة الشر خارجه . .

وإن دائرة الشرور لتتسع فى غيابك . .

ويخشى ﷺ سريان هذه السلبية بالعدوى فلا يخص الرجل بالحديث . . لكنه يعمم :

«لمقام أحدكم»:

ليثير همم الشباب إلى ما يحسنون من عمل .تاركين العزلة عندما تفرض نفسها فرضا .

ثم يوقظ ﷺ انتباه الناس . . وشوقهم إلى المغفرة والجنة بهذا السؤال الذى يستحث به خطاهم إلى عمل الخير :

« **ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة** » ولا شك أن نصيب المنقطع للعبادة أقل من أخيه المتحرك الإيجابى . .

ونلاحظ هنا أنه ﷺ لم يقل له :

لأن تتصدق . . مثلا . . وإنما اختار الجهاد بالذات . . لأن الحالة هنا تستدعى استنفار طاقات راكدة .

طاقات تخلد إلى الراحة . . بينما مقامها هناك فوق الثريا . .

فأراد ﷺ جذبها من بئر عميقة لترتفع إلى السموات العلا . . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالجهاد الذى يمثل قمة التضحية .

والتى يهز نفسا يوشك معنى التضحية أن يزايلها !!

بل إن الاشتراك فى معركة إسلامية ولو لحظة واحدة مقدار ما بين الحلبتين يدخل الجنة من حيث توفرت للمقاتل إرادة القتال . .

واشترك فيه فعلا . .

وأدار ظهره للكسل ومضاعفاته . .

ولا فضائل أفضل من العبادة وحسن أدائها . وجميل ثمراتها . .

لكن الأمر على ما يقول المرحوم الدكتور دراز(١) .

[نعم العبادات هى شعار العقيدة . وعنوانها .

وهى أمس بالدين من حيث هو دين الله .

لكنها مع عظمتها فى نظر الشارع : هينة فى العمل . ميسرة لمن أراد . لا تستغرق الأوقات . ولا تصادمها شهوة النفوس . ولا تقع فى تيار الغضب . فليس للقائم بها أن يفخر كثيرا بقوة إرادته وضبط نفسه .

وإنما تختبر الهمم . وتبتلى العزائم .

---

(١) المختار من كنوز السنة ٣٦٦ وما بعدها .

فى ميدان المعاملات . إذ هى أشد القسمين .

بل هى أكثرهما حقوقا فى الدنيا . وأثقلهما حسابا فى الآخرة .

أما تشعب حقوقها فى الدنيا : فيكفى فيه المقارنة بين الوظائف التى يفرضها الإسلام على رجل مخالط للناس والوظائف التى يفرضها على رجل آخر فى عزلة عنهم .

ولا مراء فى أن حقوق الاجتماع أشق وأكثر من حقوق الأفراد .

وأما صعوبة أمرها فى موقف الحساب ؛ فلأنه لا نجاة منها إلا باجتياز عقبتين : عفو الله ، وعفو الناس .

إجهاض العمل الصالح

وقد يستقيم العمل . وينطلق من قاعدة سليمة يحقق بها العمل ثوابا كثيرا .

إلا أن المناعة الإيمانية غير كافية لامتلاك زمام النفس فى كل الظروف حتى تصل إلى الشاطئ :

عن ثوبان عن النبى ﷺ أنه قال :

« لأعلمن أقواما من أمتى . يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة .. بيضًا فيجعلها الله عز وجل هباء منثورا » .

قال ثوبان : يا رسول الله ، صفهم لنا .. جَلِّهم لنا . ألا نكون منهم . ونحن لا نعلم

« قال : أما إنهم إخوانكم . ومن جلدتكم . ويأخذون من الليل كما تأخذون .

[لهم من عبادة الليل نصيب] ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها »(١)

لقد انطلقت أعمال القوم من نوايا صحيحة .. فحققت بذلك نصيبها من حسنات عظام كجبال تهامة ..

فى ضخامتها.. وعلوها .. وبياضها ..

لكن المناعة الإيمانية لم تكن قوية .. ولم تستطع «كرات الدم البيضاء» أن تقاوم الإغراء الهاجم على النفس .. فى السر .. وفى غيبة الرقباء .. فانحلت عزائم الخير .. وانفرط العقد .. فأضاع القوم فى الختام ما بنوه فى أعوام !

ويتساءل ثوبان رضى الله عنه ـ مذعورا ـ يلح فى طلب معرفتهم بسيماهم حذر أن يكون منهم وهو لا يدرى .

مسجلا بهذه اللهفة مدى حرص الصحابة على تحرى الصراط المستقيم . كراهة أن تزل الأقدام فيشتد الملام .

---

(١) ابن ماجه ج٢ رقم ٤٢٤٥ وإسناده صحيح .

الطاعة المقبولة

عرفنا آنفا كيف سقط عالم .. ومقاتل .. وغنى فى الامتحان الرهيب ..

وكيف لم تشفع النوايا الطيبة للشاب الفتى .. والذى حذره الرسول من العزلة ليأخذ مكانه مع المسلمين عاملا آملا ..

ثم كيف سقط أناس فى الامتحان .وحرموا من الجنة .. ولم يكن بينهم وبينها إلا ذراع ..

ودون هؤلاء جميعا ينجح فلاح بسيط .. يغيب بين أشجار الوادى .. لا يعرفه أحد ..

لماذا ؟

لأنه وحده الذى حقق مضمون الطاعة كاملا .. حين جاء عمله من وحى نية خالصة .. مستهدفا إسعاد أسرته .. ومجتمعه ..

أما بعد :

فهذه أعمال عظيمة لأن وراءها نوايا عظيمة

بينا آنفا ـ فى حديث « سبق درهم مائة ألف درهم» كيف صدقت نية الفاقد الذى خاض بها معركة انتصر فيها على نفسه بتلك المعاناة .. أما الغنى فلأن ما يملك هو فائض من المال ـ فلم ينل ثوابا مثل ثوابه .

ولكن الموقف له جانب آخر :

فقد يكون العمل فى ذاته صغيرا .. بيد أن آثاره فى الواقع .. وفى المستقبل خطيرة بما دل عليه وأرشد إليه إلى جانب كونه انتصارا على النفس :

ففى إحدى المعارك الإسلامية اجتمع الناس حول القائد :

وقطعت إحدى النساء شعرها . وبعثت به إليه . وقالت :

اجعله قيدا لفرسك فى سبيل الله .

واجتمع عنده شعور نساء كثيرات . . فعمل منها شكلا لخيل المجاهدين .

ثم صعد المنبر وأمر بإحضارها . فكانت ثلاثمائة شكال .

فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة . وقطعوا مثلها .

فالمرأة المسلمة تنزع عنها شعرها .. وهو تاجها .. ورمز جمالها .. ثم تتبرع به راضية ..

فلما بدأت .. تأست بها نساء مجاهدات ..

ومن هذه الخصلة الصغيرة صنع قيد لفرس فى سبيل الله .

فأنجزت به مهمة . .

وصحيح أن خصلة الشعر غالية الثمن لدى المرأة . . لكنها من حيث هى لا تساوى شيئا . . إلا أن دلالتها تبقى رمزا للفدائية التى صنعها الإيمان الباعث على السخاء . . ولو بالضرورات . .

وهكذا كان المسلمون دائما عندما يحدق الخطر . .

هذا الخطر الكاشف عن المعدن الحقيقى للمسلم . . والذى لا يملك أحيانا ما يقدمه للمعركة .لكن شوقه العارم إلى الجهاد . . . ورغبته الملحة فى التضحية . . كل أولئك جاعل للحركة ولو كانت قليلة وزنها بمقياس الإيمان وبمقدار ما تحققه من آثار .

الأمثال

سبيلنا إلى الامتثال

فى عدد «ربيع الأول من مجلتنا الغراء «الأزهر» وفى إطار احتفالها بمولده ﷺ ذكر الأستاذ «عادل رفاعى» «فى مقاله»: الأمثال فى حديثه ﷺ .. ذكر كيف كانت الأمثال فى طليعة الأساليب التى تبلغ مكمن الإقناع فى قلب الإنسان . . .

وكان من بركة هذا المقال أن حرك فى قلبى الرغبة لأسهم فى بيان كيف كان المثال طريقة إلى الامتثال : كيف كان وسيلة فعالة فى إلزام المدعوين كلمة التقوى ؟

وكانت هذه الصفحات .

مدخل

عرف الأعداء أن سر قوتنا فى هذا القرآن العظيم . . فكادوا له كيدا :

هذا الكيد الذى انتهى بعجزهم عن إقصائه عنا .

أو عن إقصائنا عنه . . فقالوا ما حكاه القرآن عنهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

ومن هذا اللغو : تعجب المعاندين لما نزل قوله عز وجل :

﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

وقوله تعالى : ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ [الحج: ٧٣] .

وعندئذ نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة / ٢٦] .

ومن معانى ذلك :

أن الله عز وجل هو الخالق . . فهو تعالى يقسم بما يشاء من خلقه . . ويضرب الأمثال بما شاء منه سبحانه .

ثم إن ضرب المثل بالبعوضة أبلغ :

لأن البعوضة : صغيرة ، فهى دقيقة التركيب . . لا يخلقها على هذا النحو إلا القادر سبحانه .

وإذن . . فهى أدل على عظمة الخالق سبحانه من خلق «الفيل»

ومن خصائصها : أنها لو جاعت . . عاشت ولو شبعت . ماتت

وهكذا طلاب الدنيا : حتفهم فى بطونهم ! !

وكأنما الآية الكريمة دعوة إلى الاعتبار :

فإن كل مكونات الحياة التى فى الفيل . . هى فى البعوضة . . بل إن البعوضة

تزيد على «الفيل» عضوين : فاعتبروا يا أولى الأبصار

معنى المثل :

هو قول : شبه مضربه بمورده :

ومضربه هو : الحال المشبه

ومورده هو : الحال المشبه بها

مثل قوله عز وجل :

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧] .

« ظاهرة الرعد والبرق يفسرها علماء الطبيعة بأنها نتيجة اتحاد كهرباء السحاب الموجبة والسالبة» .

ب ـ كقولك عن رجل داهية : [يعرف من أين تؤكل الكتف] .

جـ ـ وتقول عن رجل أضاع أمرا كان طوع يده ثم جاء يطلبه بعد فوات آوانه . . تقول : «الصيف ضيعت اللبن» :

شبه مضربه بمورده :

ومورده : أن امرأة تزوجت شيخا موسرا .

ثم طلبت الطلاق فى الصيف . وتزوجت شابا فقيرا . فجاءت إلى زوجها السابق تستسقيه اللبن فقال لها : « الصيف ضيعت اللبن»

بمعنى أن طلبك فات آوانه . .

ومن معانى المثل :

أنه : الكلام البليغ . الشائع . المشهور : لحسنه واشتماله على الحكمة .

ومعنى **المثال** : اسم : من ماثله مماثلة : إذا شابهه .

والمثلة والمثلة : العقوبة .

معنى المثل والمثيل :

١ ـ الشبيه .

٢ ـ نفس الشىء وذاته والجمع : أمثال .

ويوصف به المؤنث والمذكر .والجمع . فيقال : هو . وهى .وهما .وهم . وهن: مثله . . وفى التنزيل :

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون : ٤٧] .

ومعنى الذات :

﴿ كمن مثله فى الظلمات ﴾ يعنى : كمن هو .

وإذا قلنا : «ومثلك من يعرف الجميل»

فالمعنى :

« أنت من جماعة شأنهم كذا . ليكون أثبت للأمر . إذا كان له فيه أشباه وأضراب . .

ولو انفرد هو به لكان انتقاله عنه غير مأمون وإذا كان له فيه أشباه : كان أحرى بالثبوت والدوام .

وعليه قوله : [ومثلى لا تنبو علىه مضاربة] «المصباح المنير»

أهمية المثل :

قال الشيخ عز الدين :

[إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن : تذكيرا ووعظا : فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب . أو على إحباط عمل . أو على مدح أو ذم . أو نحوه فإنه يدل على الإحكام] .

«الإتقان» ج/ ٢/ ١٣١ ط الحلبى » .

ولا تقتصر وظيفة المثل على هذه الفوائد :

ولكن . . يضيف العلماء إلى ذلك .

الحث . والزجر . والاعتبار . والتقرير .

وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس المرجع السابق .

قال الأصبهانى :

[لضرب العرب الأمثال . واستحضار العلماء النظائر . شأن ليس بالخفى فى :

إبراز خفيات الدقائق . ورفع الأستار عن الحقائق :

يريك المتخيل فى صورة المتحقق . والمتوهم فى معرض المتيقن .

والغائب كأنه مشاهد .

وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة . وقمع لضراوة الجامح الأبى . فإنه يؤثر فى القلوب ما لا يؤثر وصف الشىء فى نفسه .

ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال .

ومن سور الإنجيل سورة تسمى : سورة الأمثال .

وفشت فى كلام النبى وكلام الأنبياء والحكماء] (١) .

أخرج البيهقى عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «**إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال . وحرام . ومحكم . ومتشابه . وأمثال : فاعملوا بالحلال . واجتنبوا الحرام . واتبعوا المحكم . وآمنوا بالمتشابه . واعتبروا بالأمثال** » .

ولقد من الله تعالى علينا بالأمثال فى قوله سبحانه :

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم : ٤٥] .

وقال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر : ٢٧] .

وقال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وقد عده الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال :

---

(١) الموضع السابق .

[ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المبينة لاجتناب نواهيه] .

ومن هنا نستبين أهمية ضرب المثل للداعية الراغب فى الوصول بمعانيه إلى قلوب الناس :

فإن: الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ؛ لأنها أثبت فى الأذهان . لاستعانة الذهن فيها بالحواس .

طبيعة المثل :

هو جزء من حياة الجماعة : بكل تقاليدها وعرفها . وعاداتها . ومن ورائها : الخبرة والذكاء . . . والروح المرحة .

ثم هو : يحمل خصيصة اللغة العربية وهى : الإيجاز وفي الإيجاز: توفير للطاقة . والوقت . . ثم إنه احترام لفعل الإنسان . .

الفرق بين المثل والحكمة :

أما الحكمة فهى : جملة محبوكة الصياغة . جميلة التركيب . مضمومة على تجاريب الإنسان .

من خواص المثل :

من أهم خواص المثل : الإيجاز . وجودة العبارة . وأن يكون فيه نوع غرابة .

قال أبو عبيدة : « اجتمع فى المثل ثلاث خلال : إيجاز اللفظ . وإصابة المعنى . وحسن التشبيه .

قال الفارابى :

المثل : ما ترضاه العامة والخاصة فى لفظه ومعناه . . حتى فاهوا به فى السراء والضراء .

يقول الزمخشرى :

[ولم يضربوا مثلا . ولا رأوه أهلا للسير ولا جديرا بالتداول والقبول إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه] .

وقد شُغل الناس بفن المثل عن المثلاث . . أ ى : عن الاعتبار .

ومن دلائل أهمية المثل قوله عز وجل :

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

فالأمثال فى دقتها وحكمتها . بحيث لا يدرك مراميها إلا العالمون . . حتى قال واحد من الصالحين : إذا نظرت إلى المثل ولم أفهمه . . بكيت ؟! لماذا ؟

ثم تلا هذه الآية الكريمة . . ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

وظيفة المثل :

للمثل مجموعة من الوظائف تجعل منه وسيلة من وسائل البيان .. منها :

١ـ تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد والمتوهم بالمتيقن

فإذا بك ترى الحقيقة فى أجلى صورة . . والمعانى الكثيرة فى الكلمات القليلة .

ـ ومن وظائفة :

٢ ـ تزيين الكلام إغراء بالإقبال عليه . ثم وفى النهاية قبوله .

٣ ـ الحث والتقرير وتجسيد المعانى .

٤ ـ للتذكير والاعتبار .

وإذن .. فالمثل :

ملتقى كل الأذواق . والتى تلجأ إليه لما له من فوائد . .

ولا يكون جديرا بهذا الاسم إلا من استجمع خصائصه .


من أمثال القرآن الكريم

(أ) يقول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٧٣ ـ ٧٤] .

تمهيد :

عندما اتخذ المشركون إلها غير الله عز وجل لم يكن لديهم على ذلك علم . ولا هدى . ولا كتاب منير .

ومع ذلك فإن لديهم من التبجح ما يسول لهم على إعلان صحة دعواهم فيما ذهبوا إليه .

وكان لابد من إفحامهم وإلزامهم بأنهم على الباطل بهذا المثل الذى هو أعجوبة من الأعاجيب . . التى يجب أن نتأملها : أن نستمع إليه : أن نتدبره :

لأن نفس السماع لا ينفع . وإنما ينفع التدبر

والمقصود: بيان أن ما عبدتموه أمثالكم . بل أحقر منكم . .

فإن المفروض أن الإنسان لا يبذل ولاءه لمن هو أحقر منه . . ولكنكم فعلتم فعلتكم فعبدتم من هو أحقر منكم . . والطيور على أشكالها تقع :

لماذا الذباب بالذات :

يقول المفسرون : إن الذباب لما كان فى غاية الضعف . احتج الله تعالى به على إبطال قولهم :

فقوله عز وجل ﴿لن﴾ . . فهى أصل فى نفى المستقبل. إلا أنه ينفيه نفيا مؤكدا . فكأنه سبحانه قال :

[إن هذه الأصنام ـ وإن اجتمعت ـ لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها . فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا ؟! . . وكأنه قيل :

يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم . . فكيف حال انفرادهم ؟!

وقوله تعالى :

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾

كأنه سبحانه قال : أترك أمر الخلق والإيجاد . . وأتكلم فيما هو أسهل منه :

فإن الذباب إن سلب منها شيئا .فهى لا تقدر على استنقاذ ذلك الشىء من الذباب] .

والنتيجه :

وأنكم ما عظمتم الله تعالى حق تعظيمه . . حيث جعلتم الأصنام ـ على نهاية خساستها ـ شريكة لله تعالى فى العبودية .

وإذا كان الله تعالى هو القوى . . وهو العزيز . . فما حاجة الإنسان إلى أن يشرك به سبحانه غيره . . من مخلوقاته الضعاف ، المهازيل ، الأذلاء ؟

ألا إن [الذباب .أحقر الحشرات .

ولكن فى هذه الحشرة الحقيرة تكمن عظمة الله :

كيف تطير ؟ وكيف تتوالد ؟ وكيف تنقل العدوى ؟ وكيف أننا لا يصح أن ننبهر بالطائرات التى صنعها الإنسان : فالذى صنعه الله أعظم !

إنه خلق الإنسان الذى اخترع الطائرة !

ولكن الإنسان أعجز من أن يصنع جناح ذبابة !

وإن الذباب إذا سرق منا شيئا فنحن لا نقوى على استرداده . . سبحانه الله العظيم] .

يقول العلم الحديث :

[عندما نتأمل أجزاء فم الذبابة . وما كشف عنه العلم : من أن أجزاء فمها من

النوع اللاعق بمعنى أن الذبابة تفرز أولا لعابها وما يحويه من إنزيمات على المادة الغذائية الصلبة فتغير طبيعتها وتركيبها الكيماوى نتيجة فعل الإنزيمات ، ثم بعد ذلك تصعد المادة الغذائية إلى أعلى فى تجويف فم الذبابة عن طريق القصيبات الكاذبة الرقيقة المنتشرة على سطح الشفة، فأى أجهزة علمية مهما بلغت دقتها وقوتها لا تستطيع استرجاع ما أخذته الذبابة وليس هذا فحسب ، بل لا توجد تكنولوجيا أو أى معامل تستطيع استرجاع المادة الغذائية إلى طبيعتها الأولى قبل تحويلها إلى مواد أخرى بفعل لعاب الذبابة .

ومن ناحية أخرى نجد أن جسم الذبابة الصغيرة يستطيع أن يحمل أكثر من ١٥٥ مليون جرثومة، فأى قوة وأى علم يستطيع أن يسترجع هذا العدد الهائل من جسم الذبابة ؟

وقد يشاهد الإنسان الذبابة وهى تسير على الأسطح الملساء (الزجاج مثلا) معتدلة أو مقلوبة . فكيف تستطيع هذه الذبابة أن تسير وتلتصق على هذا السطح الأملس دون أن تسقط ؟ وبالرغم من صغر حجم الذبابة وضعف جسمها إلا أنها عظيمة الخلقة فيها آيات بينات لأصحاب العقول المفكرة فهى تمتلك الأجهزة التى تهيئ لها الحياة .

وقد قالوا : إن الذبابة تحمل على جسمها خمسة مليون من الجراثيم . . وكأنها مدافع أو قنابل .

وفى داخلها مخزون من القوى الدفاعية .

إننا قد نجبر الطائرة على الهبوط . . ثم نتحكم فيها . . لكن ذبابة واحدة تسلبنا شيئا . . فإننا لا نقدر على استنقاذه منها على ما نملك من أجهزة ومعامل !

وإذن . . فما أضل الإنسان . .

ما أضله حين تتزاحم النذر . . وتستعلن الآيات من حوله شاهدة بعظمة القوى العزيز سبحانه . . ولكنه يعرض عنها . .

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٧٤] .

ومعنى ذلك أن عقول الضالين فى إجازة . .

وأن «الحقد» هو الدافع : هو الواقف من وراء هذه الأوهام . .

وإنها لأوهام كتمثال الشمع :

كلما اقترب من الحق . . فإنه ينهار . .

ذلك بأن «الحقد» يشتعل . . أما الحق فيضيء . .

وإذا كان هذا دأب الطالحين . . وإذا كان هذا سعيهم الحثيث . . في القديم والحديث فإن الأمر على ما يقول عز وجل :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [الرعد: ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عز وجل :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]

المقصود من الآية الكريمة :

أن الناس قد تخدعهم قوة الملحدين فى آيات الله سبحانه : فيعجبون بتفوقهم فى مجالات العلم . والمال . والقوة . والسلطان . .

وربما سول لهم ذلك أن يتهافتوا عليهم : رغبا أو رهبا . .

ومن هؤلاء الناس : الدعاة : والذين يرون من تسلط أعدائهم ما يلقى فى قلبهم الخوف منهم . .

والآية الكريمة تضرب هذا المثل الذى يصور إلى أى حد كانت هذه القوى المزعومة هباء إلى جانب قوة الله عز وجل :

وليس هناك إلا حماية الله . وإلا حماه . وإلا ركنه القوى الركين : هذه الحقيقة الضخمة هى التى عنى القرآن بتقريرها فى نفوس الفئة المؤمنة .

فكانت بها أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقها . وداست بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض . ودقت بها المعاقل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة فى كل نفس . وعمرت كل قلب . واختلطت بالدم . . وجرت معه فى العروق . .

ولم تعد كلمة تقال باللسان . ولا قضية تحتاج إلى جدل . . بل حقيقة مستقرة فى النفس : لا يجول غيرها فى حس ولا خيال :

قوة الله وحدها هى القوة . .

وولاية الله وحدها هى الولاية . .

وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل مهما علا واستطال . ومهما تجبر وطغى ا.هـ.

كما أن من اتخذ الأوثان أولياء :

لم ينفعه فى الدارين معبوده .ولم يدفع عنه العذاب ركوعه وسجوده وهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء هم أمثولة الدنيا وعجيبتها . . وذلك من خلال تصرفهم :

ذلك بأن دعاء غير الله يعنى :

مخالفة لقويم العقل . وصريح النقل . وسليم الفطرة . وصحيح الفكرة .

وتدريب على الجلافة . وتطبع فى الكثافة]

كيف لا . . وقد اتخذ . . افتعل : تكلف ما ليس مركوزا فى طبعه :

إنه سباحة ضد تيار العقل والنقل . وتجاهل لنداء الفطرة المتجهة أساسا إلى خالقها عز وجل .

وإلى أية جهة اتجهوا : إلى من هو من دون الله : أى أنهم تكلفوا : اتخذوا له شريكا وثنا عوضا عمن لا تكيفه الأوهام والظنون .

اتخذوه وليا ينصره . . فيا لها من صفقة خاسرة . وتجارة بائرة .

ومثلهم كمثل العنكبوت :

اتخذت بيتا يحميها . . فكان مع التكلف والتعب فى غاية الوهن . .

بعدما عانت العنكبوت فى حوكه ما عانت . . وقاست فى نسجه ما قاست .

لأنه لا يكن من حرٍّ . ولا يصون من برد . ولا يحصن عن طالب .

وكذلك ما اتخذوه من الأوثان : فهو أوهن الأديان] ا . هـ .

ولو كان لهم نوع ما من العلم لانتفعوا به . . فعلموا أن هذا مثلهم . . ولكن الذى عندهم هو فقط «المكابرة» . . ولذا أكد سبحانه لهم القضية «بإن» شاهدة بأن بيت العنكبوت ليس فقط ضعيفا . . ولكنه واهن . .

مظاهر الوهن
فى بيت العنكبوت

١ ـ إنه «بيت» منكر . .

٢ ـ ثم هو مضاف إلى الأنثى . . وما تشى به من ضعف .

٣ ـ وبعد أن يلقح الذكر الأنثى تأكله . . فى نفس الوقت الذى يأكل الصغار بعضهم بعضا .

٤ ـ من حماقة العنكبوت أنها تعمل أكثر مما تحتاج .

٥ ـ ولا يعيش بيتها إلا ليلة واحدة .

٦ ـ تجعل منه شركا تصطاد به ما هو أكبر منها وهو «الذباب» وليس بيتا للراحة.

٧ ـ لا تبنيه إلا فى الظلام .لاعتمادها على حاسة اللمس .

٨ ـ بينما يذهب إليها «الذكر» طربا . . تلتهمه ولا يستطيع منها هربا .

٩ ـ إناث العنكبوت أكبر من الذكور حجما . . وهى التى تتحكم فى مصير البيت والتى تظل مرهقة فى هذا الجو المشحون بالتعب .والخلل .

وهو مثل من اتخذوا من دون الله أولياء من الكافرين :

أعطاهم الله العقل . . كما أعطى العنكبوت خيوطا فى منتهى القوة ولكن كلا الطرفين لم يستثمر هذه القوة فى اتخاذ القرار السليم . .

فأى بيت أوهن من هذا البيت ؟ وأى قوم أضعف ممن اتخذ غير الله وليا . .

ولم تقل الآية «شركاء» ولكنها تقول «أولياء» :

ليشمل ذلك كل من اعتمد على غير الله . . وإن كان مسلما . . بمعنى : أن كل طمع فى جلب نفع أو دفع ضر . . من غير الله تعالى . . فهى محاولة عابثة لا فائدة فيها . ولا جدوى منها .

وفى بيان ذلك :

يقول الرازى :

أولا : ينبغى أن يكون للبيت أمور :

حائط حائل . وسقف مظل . وباب يغلق . وأمور يرتفق بها وينتفع .

وإن لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين :

إما حائط حائل يمنع من البرد . وإما سقف مظل يدفع عنه الحر .

فإن لم يحصل منهما شيء . . فهو كالبيداء : ليس بيتا .

لكن بيت العنكبوت : لا يجنها ولا يكنها .

وكذلك المعبود :

ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع . وبه دفع المضار .

فإن لم تجتمع هذه الأمور . . فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع :

فإن من لا يكون كذلك . . فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء :

فإذن . . كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شيء . . كذلك الكافر :

لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معانى الأولياء شيء .

ثانيا : أقل درجات البيت أن يكون للظل :

فإن البيت من الحجر : يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء . والنار والتراب .

والبيت من الخشب : يفيد الاستظلال . ويدفع الحر والبرد . ولا يدفع الهواء القوى . ولا الماء . ولا النار .

والخباء : الذى هو بيت من الشعر . أو الخيمة التى هى من ثوب : إن كان لا يدفع شيئًا : يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل : فإن الشمس

بشعاعها تنفذ فيه .

فكذلك المعبود : أعلى درجاته : أن يكون نافذ الأمر فى الغير .

فإن لم يكن كذلك . . فيكون نافذ الأمر فى العابد .

فإن لم يكن . . فلا أقل من ألا ينفذ أمر العابد فيه .

لكن معبودهم تحت تسخيرهم :

إن أرادوا أجلوه . وإن أحبوا أذلوه .

ثالثًا :

أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق :

فإن العنكبوت يصير سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق :

فإن العنكبوت لو دام فى زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها . .

فإذا نسج على نفسه . . واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك ـ الدار ـ بتنظيف البيت منه . والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت .

فكذلك العابد :

بسبب العبادة ينبغى أن يستحق الثواب . .

فإن لم يستحقه . . فلا أقل من أن يستحق بسببها العذاب .

والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب ا .هـ .

ثم يستطرد الرازى فيزيد وجه الشبه وضوحًا فيقول :

[مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء . . باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا .

ولم يمثله بنسجه .وذلك لوجهين :

أحدهما : أن نسجه فيه فائدة له : لولاه ما حصل وهو : اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه .

واتخاذهم الأوثان . . وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا . .

لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو :

الدار الآخرة .التى هى خير وأبقى] ا.هـ .

وهكذا تبدو العنكبوت : اتخذت بيتا : لا يجير آويا . ولا يريح ثاويا .

إن سيادة البيت إلى الأنثى . . والتى تلتهم الذكر . . وبعد عملية التلقيح ؟ فكيف يكون قرار ؟!!

والنتيجة : أن العيب فى أنفس المعاندين . . وليس فى «المثل» هؤلاء المعاندون الذين كانوا على ما يقول الشاعر :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضا : إنه لدميم

من أمثال
السنة المطهرة

يقول ﷺ :

« مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترنجة : ريحها طيب . وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها . وطعمها حلو . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب . وطعمها مر . ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ريحها مر . وطعمها مر» حديث حسن صحيح .

تمهيد :

الأترنجه ـ والتمرة ـ والريحانة . والحنظلة :

كلها نباتات وثمرات يعرفها العربى . .

ولكل منها فى حسه مذاق : أطيبه وأحسنه : مذاق الأترنجة . وأمرها هو : الحنظلة .

حكمة الداعية :

وإذ يريد الداعية تزويد المؤمن بما يجدد إيمانه . . فإنه يستثمر هذا المذاق فى محاولة لربط المؤمن بالمثل الأعلى من حيث كان المحسوس سبيلا إلى ترسيخ المعانى المجردة فى النفوس . .

ولما كانت « الأترنجة » أعلى هذه الثمرات . . وكان لها فى الحس العربى شأن أى شأن . . ولما كان المقصود هنا أن يكون القرآن زاد المسلم اليومى . . فلا جرم أن كان هذا المثل . . وكانت هذه المقارنات لينقل إحساسه بها إلى هذا المقصود . . ليصير القرآن رائده وقائده مؤكدا ما يلى :

أن كلام الله تعالى له تأثيره فى باطن العبد وظاهره . وأن العباد متفاوتون فى ذلك : فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو : المؤمن القارئ .

ومنهم من لا نصيب له البتة . وهو : المنافق الحقيقى .

ومنهم : من تأثر ظاهره دون باطنه وهو : المرائى . أو بالعكس وهو : المؤمن الذى لا يقرأه .

ومن مظاهر حكمته أيضا : مطابقة الحديث للواقع فواقع الناس شاهد بما يلى

فهم : إما مؤمن . أو غير ذلك .

والثانى : إما منافق صرف . أو غير ذلك .

والأول : إما مواظب على قراءة القرآن . أو غير مواظب .

من خصائص الأترنجة :

وللأترنجة خصائصها التى تجعلها حقا مثال المؤمن :

فهى ـ من ناحية الشكل ـ أحسنها عند العرب بالذات .

ومن ناحية القيمة : فهى أنفس الثمار .

وقد تكون هذه النفاسة راجعة إلى اتساع مدى المتعة بها :

فالحواس الأربع تشترك فى هذه المتعة : حاسة البصر . والذوق . والشم . واللمس .

فحجمها كبير . ومنظرها أخاذ . وطعمها طيب وريحها كذلك طيب وملمسها ناعم .

وقد يكون من عمق متعتها :

أن النفس تتوق إليها . . قبل أكلها . .

ثم وبعد أكلها فهى : دباغ للمعدة . . سهلة الهضم . .

وأثناء ذلك كله : فهى طيبة الرائحة.

المستحق لهذا المستوى :

وفى الحديث الشريف إشارة إلى المستحق لهذه الدرجه العالية :

إنه القارئ : العامل [كما جاء فى رواية أخرى]

لقد جاءت الرواية بالمضارع : [يقرأ] و [يعمل به] .

ومعنى ذلك : أن هذه الدرجة لا يستحقها إلا من كانت صحبته للقرآن الكريم متجددة دائمة: بحيث صار القرآن فى حياته زاده اليومى :

إنه ذلك الفلاَّح الذى قال لى :

لا يكفينى «المسجل» فى البيت يردد القرآن دائما . . وإنما أن أقرأ أنا القرآن . . فى محاولات للأنس به . . بل والامتلاء به امتلاء يخلصنى من التعلق بالدنيا . . لأعيش به هناك فى دار هى الحيوان .

وإذ ينجح الحديث الشريف فى تحريض المؤمن على أن يكون «أترنجة» : لا ثمرة. ولا ريحانة . ولا حنظلة . . فقد بقى عليه أن يصحبه حتى يتجاوز به عقبات الطريق ليظل نسرا يحلق فى الأجواء العالية . .

وهذا ما يتكفل به هذا الحديث الشريف : « **مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الرياح تفيئه .. ولا يزال المسلم يصيبه بلاء . ومثل المنافق : كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد** » حديث صحيح .

مقصود الحديث :

والمقصود بهذا الحديث إحاطة المؤمن علما بأن هذه الدنيا ليست داره . وإنما دار قراره هى : الآخرة :

ولن يكون جديرا بالبقاء فيها إلا إذا دفع الثمن بلاء . . ويقينا بضرورة الكف عن لذاذات الدنيا . .

والثمن هو : هذه الابتلاءات والتى كأنما هى رياح تحركه ذات اليمين وذات الشمال . . كما تحرك النبات الطرى : فلا تكسره . . .

ولاحظ أنها «رياح» بالجمع . . وليست «ريحا» بالإفراد : لأنها لو كانت «ريحا» لكانت من ناحية واحدة . . فكان تفريغ الهواء من الجانب المقابل . . ثم كان الدمار .

أما الكافر : فقد قل بلاؤه . . حتى يظل عذابه شديدا . .

بعد أن ينكسر فجأة . . وفى مهب ريح عاصف .

ومن أجل ذلك كان إخبار المؤمن بهذا ليتحقق لديه شعور بأنه من أهل الآخرة . . .

ولأنه كذلك . . فلابد من هذه الابتلاءات فى دار هو فيها ضيف أو سحابة صيف !

ولأن النفس والهوى والشيطان والدنيا : فى وسوسة دائمة إرادة ألا يواصل المؤمن المسير إلى هذا المصير . . فإن الحديث الشريف يقوى إحساسه ليتحمل من البلاء ما ينتهى به إلى الرخاء .

فإن النخلة الفرعاء تستمد من معدن الأرض أشتاتا من الغذاء مختلفة الطعوم . . ولكنها فى النهاية تثمر ثمرا حلو المذاق . . والعبرة بالخواتيم :

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهى مثل المؤمن . . ثم قال ﷺ : « هى النخلة » حديث حسن صحيح .

وجه الشبه :

ووجه الشبه بين المؤمن والنخلة هو : عدم سقوط الورق : وكذلك المؤمن : لا تسقط له دعوة.

وهناك جواب أعم من ذلك وهو : بركة المسلم . وبركة النخل .

قال فى « تحفة الأحوذى » :

[وبركة النخل موجودة فى جميع أجزائها مستمر فى جميع أحوالها :

فمن حين أن تطلع . إلى أن تيبس تؤكل أنواعا .

ثم بعد ذلك : ينتفع بجميع أجزائها . حتى النوى فى علف الدواب .

والليف فى الحبال . وغير ذلك مما لا يخفى .

وكذلك بركة المؤمن :

عامة فى جميع الأحوال. . ونفعه مستمر : له ولغيره . حتى بعد موته] أ.هـ .

من بركـــات المؤمـن

ومن بركات المؤمن: أنه حريص على أن يـكون يومه أفضل من أمـسه . . وأن يكون غده أفضل من يومه . .

إنه إذا كان حريصا على «تحسين مجموعه» فى باب العلم فلابد أن يكون أحرص على ترقيته فى باب الأخلاق . .

بهذا الإسلام :

الذى يمسك الضعيف . . فلا يسقط .

والقوى . . فلا يجمح .

والمغلوب . . فلا ييأس .

مستعليا بإيمانه «سفوح» النفاق الهابطة :

ذلك بأنه لا بركة فى حياة المنافقين . . لأنهم ﴿ **لا يفقهون** ﴾ .

أ ـ يسخرون فى وقت الجد .

ب ـ يخرجون من موضوع الحوار إلى مالا يفيد .

جـ ـ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون .

وقد يسـوء فى ناظريك مشهـد المنافق . . ولكنك حين تختـبره . . فسـوف تجد مظهره أحسن من مخبره ؟ !

أما المؤمن : فهو خير كله : ظاهره وباطنه :

هو البحر : من أى النواحى أتيته

فلجته المعروف . والجود ساحله !

قد يكون فى العبادة . . لكنه لا ينسى الدنيا

ثم هو لا ينسى الآخرة . . إذا أقبلت عليه الدنيا

وقد يسلط الإعلام أضواءه على غيره . من المنحرفين :

وإذا بك أمام حياة :

فيها معان . . إلا معنى الشرف

وفيها مواقف . .إلا مواقف المروءة

ويبقى المؤمن مباركا :

روى مسلم فى «باب الحث على الصدقة» :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده .. من غير أن ينقص من أجورهم شىء » . . الحديث . .

وممن سن فى الإسلام سنة حسنة : ذلك العالم الداعية :

لقد عاش فى عهد حاكم يرغم الناس على أكل لحم الخنزير . وقد اتفق معه رئيس الشرطة أن يشترى جديا . . ثم إذا حان وقت الغداء قدمه له مطبوخا ليأكل حلالاً . . بينما يظن الجميع أنه يأكل لحم خنزير .

وكانت المفاجأة :

فلقد رفض العالم تقديم الجدى لرئيس الشرطة . لأن معنى ذلك اقتداء الناس به . . وسوف يأكلون لحم الخنزير !

الآخرة فى وجدانهم :

فإذا رحت تتلمس لهذا الورع أو لهذه البركة سببا . وجدت «الآخرة» حية فى وجدانهم لا تغيب ، فكانت البركات النازلة عليهم من السماء .النابتة من الأرض :

كان رجل على فرسه

ثم ألقى عليه رماد :

فماذا حدث ؟

نزل

ثم سجد لله وشكره . .

فلما سئل فى ذلك قال :

إن رجلا صولح على التراب .وفر من النار

إنه لمن الفائزين ؟!!

القـــــــرآن

أصلح كل فاسد ، ورد كل شارد وإذا أحسن العليل التداوى به : بمعنى أن يضعه على الداء فى «القلب» لا على لسانه بالإضافة إلى الاعتقاد الجازم ـ فإن تم ذلك لم يقاومه داء أبدا:

وكيف تقاوم «الأدواء» كلام رب الأرض والسماء ؟

الذى لو نزل على السماء لصدعها . ولو نزل على الأرض لقطعها .

وكيف لا يشفى القلوب . . وهو كلام علام الغيوب ؟!

أما القلوب القاسية :

(فهو عليهم عمى)

لا يزيدهم إلا خسارا . .

كشجرة الحنظل : كلما سقيتها عذبا فراتاً ازدادت مرارة .

فى سورة الممتحنة : مودة مرفوضة ـ ومودة مقبولة . .

مودة مرفوضة : إذا صدرت عن ضعف . . إلى الحد الذى نلقى بها هكذا مجانا!!

لكنها مقبولة إذا صدرت من مركز القوة .

يقول عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة :١ ـ٢] .

ويقول عز وجل فى نفس السورة :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة/ ٧ ـ ٩] .

النظرة النقدية من وراء الدليل :

يقول الله عز وجل :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

ويقول سبحانه فى سورة الأعراف :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] .

من أسرار القرآن

يقول عز وجل :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]

ويقول تعالى فى سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

وهذه الآيات تظهر لكل أحد . على قدر علمه وفهمه :

فأما علماء الهيئة :

فإنهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل .

وأما سائر الناس :

فحسبهم : هذه المناظر البديعة . والأجرام الرفيعة . وما فيها من الحسن والروعة .

وخص أولى الألباب بالذكر . مع أن كل الناس أولو الألباب :

لأن من اللب مالا فائدة فيه :

كَلُب الجوز ونحوه إذا كان عفنا

وكذا تفسد ألباب بعض الناس وتعفن :

فهى لا تهتدى إلى الاستفادة من آيات الله فى خلق السموات والأرض وغيرهما] ا.هـ .

وإذن . . فآيات الله عز وجل موجودة فى الآفاق . ولكن الغافلين غير موجودين!!

والذكر فى الآية على عمومه :

لا يخص بالصلاة . . والمراد به :

ذكر القلوب وهو :

إحضار الله تعالى فى النفس .وتذكر حكمه .

وفضله .ونعمه فى حال القيام . والقعود .

والاضطجاع .

وهذه الحالات الثلاث التى لا يخلو العبد عنها . . تكون فيها السموات والأرض معه : لا يتقارّان .

والآيات الإلهية لا تظهر من السموات والأرض إلا لأهل الذكر :

فكأين من عالم يقضى ليله فى رصد الكواكب :

فيعرف منها مالا يعرف الناس .

ويعرف من نظامها . وسننها . وشرائعها مالا يعرف الناس . . وهو يتلذذ بذلك العلم ولكنه ـ مع هذا ـ لا تظهر له هذه الآيات ؛ لأنه منصرف عنها بالكلية . .

ثم إن ذكر الله تعالى لا يكفى فى الاهتداء إلى الآيات . . ولكن يشترط مع الذكر : التفكر فيها . فلابد من الجمع بين : الذكر والفكر فقد يذكر المؤمن بالله . . ربه سبحانه . ولا يتفكر فى بديع صنعه . وأسرار خليقته .ولذلك قال :

﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾.

. . . وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر فى باله صانعها . . اشتغالا بها عنه :

فالذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض هم غافلون عن خالقهما . ذاهلون عن ذكره : يمتعون عقولهم بلذة العلم . ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل .

ومثلهم ـ كما قال الأستاذ الإمام :

كمثل من يطبخ طعاما شهيا : يغذى به جسده ولكنه لا يرقى به عقله :

يعنى : أن الفكر وحده وإن كان مفيدا . لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر] ا.هـ .

ذكر الله تعالى بصفات جلاله .وصفات جماله وعندما يصل الإنسان إلى قمة الذكر . . فإنه عندئذ يكون قد حصل النعمة التى لا تنقصها نعمة . واللذة التى لا تعلوها لذة .

لأنها هى التى يهون معها كل كرب . ويسلُس كل صعب] ا .هـ ويصبح كل شىء فى عين الذاكر جميلا . . على ما يقول الشاعر الذاكر :

من كل معنى لطيف : أجتلى قدحا وكل حادثة فى الكون تطربنى

درس فى الدعوة :

وفى الآية كما يقول المفسرون تعليم للمؤمن : ليكون هذا طريقه إلى الجنة : ذكر. وفكر .ثم ثناء ودعاء فى نهاية المطاف .

يقول الرازى :

[اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم : جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق :

فلما طال الكلام فى تقرير الأحكام . والجواب عن شبهات المبطلين . . عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية . والكبرياء . والجلال] .

ويقول الإمام محمد عبده «فى المنار» ١٨/ ٢٤٤

[بعد ما ذكر خلق السموات والأرض لفت العقول إلى أمر مما يكون فى الأرض وهو : اختلاف الليل والنهار :

فإن هذا الاختلاف قائم بنظام فى : طول الليل والنهار .وقصرهما . وتعاقبهما.

وهذا أمر عظيم سواء كان سببه ما كانوا يعتقدون من أنه حادث من حركة الشمس . . أو ما يعتقدون الآن من أن سببه حركة الأرض تحت الشمس . .

ومن الحكم فى ذلك :

ما نراه فى أجسامنا وعقولنا من تأثير حرارة الشمس . ورطوبة الليل .

وكذا فى تربية الحيوان والنبات . .

ولو كان الليل سرمدا .والنهار سرمدا . . لفاتت . .

استطراد

القلب

[دعامة الجسم :

وعضلاته متصل بعضها ببعض : لا تفصل بين خلاياه جدر . . كتلك التى بين خلايا الحيوان والنبات . .

ولعل هذا التكوين الخاص للعضلة القلبية قد جعلها مؤهلة تماما للعمل كوحدة :

يتواتر إيقاعها بقوة وانسجام لا إراديا

والعضلة القلبية : شديدة النشاط . موفورة القوة دائمة العمل . دائبة الحركة : لا تكل ولا تمل . ولا تسأم ولا تهرم .

كما لا يتأثر انقباضها تأثرا بينا بالتخدير الكلى] . مجلة الأزهر أكتوبر / ١٩٨٥ .

أمراض القلب

قال الراغب :

[مرض القلب هو الرذائل الخلقية :

كالجهل . والجبن . والنفاق . والبخل .

وهى تمنع من إدراك الفضائل . كما يمنع المرض البدنى من العمل .

وهذا المرض يمنع من كسب سعادة الآخرة]

من أسرار البيان القرآنى

يقول عز وجل : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] .

[والمراد هو : الذكور والإناث مطلقا تجوزا .

وليس الرجال والنساء : البالغين والبالغات .

وحكمة مغايرة اللفظ هى :

تأكيد الكثرة .والمبالغة فيها . بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره .

وأن فى صدر الآية أمرًا بالتقوى . . ولذا ذكر الكبار منهم . . لأنه فى معرض المكلفين بالتقوى .

وظاهر النص يوضح بجلاء :

أن كثرة عدد الذكور عن الإناث عند الولادة هى كثرة فعلية . وليست ظاهرية أو مجازية . وهى سنة الله تعالى فى الخلق

والتى أظهرتها الحقائق العلمية الحديثه وهى :

غلبة عدد الذكور . على عدد الإناث عند الولادة : وهو ما يعرف : بالنسبة

الثانوية لنوع الجنس للمواليد :

وهى :

حوالى ٥٠و ١ (أى ١٠٥ مولود ذكر لكل مائة مولود أنثى).

وفى هذا حكمه إلهية :

حيث إن فرصة الإناث فى البقاء على قيد الحياة خاصة فى السنة الأولى من العمر أفضل من مثيلتها فى الذكور :

وبالتالى تصبح النسبة (أى ١٠٠ ذكر لكل ١٠٠ أنثى) أثناء فترة النضج الجنسى والتناسل .

وهى أفضل نسبة لضمان بقاء نوع الإنسان .

بينما تنعكس النسبة فى الأعمار المتقدمة .

فالآية الكريمة تبين لنا قانونا من قوانين الخلق التى سنها الله سبحانه وتعالى . وهى :

الكثرة الفعلية لعدد الذكور . مقارنة بالإناث عند الولادة .

لما فى ذلك من حكمة لضمان إعمار الأرض بالإنسان كما قضى الله عز وجل] مجلة الرابطة / ٤٦٤

(وقد أوضح علم «الأجنة» الحديث :

أن الإنسان : يتكون . وينشأ من عجب الذنب هذا . [يدعونه الشريط الأولى] وهو الذى يحفز الخلايا على الانقسام والتخصص . والتمايز .

وعلى أثره مباشرة : يظهر الجهاز العصبى فى صورته الأولية :

[الميزاب العصبى ثم الأنبوب العصبى ، ثم الجهاز العصبى بأكمله]

ويندثر هذا الشريط الأولى . إلا جزءا يسيرا منه : يبقى فى المنطقة العصعصية

التى يتكون فيـها عظم الذنب (عظم العـصعص) ومنه يعاد تركـيب خلق الإنسان يوم القيامة . .

كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ فى حديثه المعروف .

«**كل ابن آدم يبلى.. إلا عجب الذنب : منه خلق . وفـيه يركب** » رواه البخارى. والنسائى . والترمذى . ومالك فى الموطأ .

ومعنى ذلك إجمالا :

[أن جسم الإنسان كله يركب من عجب الذنب . عند تكون الجنين .

وكذلك وما يبقى منه فى التراب هو الذى يعاد تركيبه يوم القيامه بأمر الله تعالى]

القلوب ثلاثة :

قلب مخلص

وقلب مقتصد

وقلب مسكون بالهوى

والأخير هو : غنيمة الشيطان

والعاقل من تحاشى الذنب لسبب :

حتى لا يُسعد أعداءه وفى مقدمتهم الشيطان .

من أدلة القرآن

يقول الله عز وجل فى سورة الزخرف: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥ ، ١٦] .

يقول الرازى :

(واعلم أنه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه :

وذلك . لأنه تعالى بين أن إثبات الولد لله محال .

وبتقدير أن يثبت الولد : فجعله بنتا . . أيضا : محال .

أما بيان أن إثبات الولد لله محال :

فلأن الولد لابد وأن يكون جزءا من الوالد :

وما كان له جزء . . كان مركبا . .

وكل مركب ممكن . .

وأيضا : ما كان كذلك . . فإنه يقبل الاتصال والانفصال .

والاجتماع والافتراق .

وما كان كذلك . . فهو عبد محدث : فلا يكون إلها قديما أزليا .

وأما المقام الثانى . وهو :

أن بتقدير ثبوت الولد . . فإنه يمتنع كونه بنتا :

وذلك . لأن الابن أفضل من البنت :

فلو قلنا : إنه اتخذ لنفسه البنات . وأعطى البنين لعباده . .

لزم أن يكون حال العبد أفضل وأكمل من حال الله !!

وذلك مدفوع ببديهة العقل] .

منطق نوح عليه السلام

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] .

والمعنى :

وعدتنى إنجاء أهلى .

وابنى من أهلى .

فأدعوك أن تنجيه

والجواب :

نقض المقدمة الأولى :

بقوله تعالى ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . ﴾[هود: ٤٦] .

ثم رجعه إلى الحق

﴿ وإلاَّ تَغْفِرْ لِي وتَرْحَمْنِي ﴾[هود: ٤٧] .

فجاء الجزاء : ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ﴾ [هود: ٤٨] .

من حكمة شعيب عليه السلام

﴿ يَا قَوْمِ . . . إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ . . ﴾ [هود : ٨٤] .

ولما هددهم جعل مقدمة التهديد توددا :

﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ [هود : ٨٤] .

ثم قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ . . ﴾ [هود : ٩٣] .

فلم يحدد : من هو : أملا فى إيمانهم . .

ولقد كان الصبى زمان كان قادرا على كسب قلوب الرجال تأثرا بهدى القرآن .
ومنهم ذلك الذى سأله الخليفه : [دارى أم داركم أحسن] ؟

فرد الصبى : دارنا أحسن . . ما دام فيها الخليفة !

ويقول عز وجل ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تشير الآية الكريمة إلى أهمية الرفق والعفو . حتى يبدو الداعية فى أجمل صورة . . .

وإلا . . فإن الرسول ﷺ مع أن الناس متأكدون أنه رسول . . إلا أنه ﷺ لو كان فظا غليظا . . لانفض الناس من حوله . . وتجاهلوا أنه رسول . .

وإذا كان الناس كذلك مع من يتأكدون صدقه . . فكيف إذا كان الداعية اليوم قاسيا غليظ القلب . فى الوقت الذى لا نتأكد من صدقه ؟!

إن الداعية مأمور أولا بحسن الخلق :

فحسن الخلق : حسنة . . لا تضر معها معصية كما وأن سوء الخلق معصية لا تنفع معها الحسنات (١) .

الدليل : قبل الدعوى

يقول الله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة ٢٤٣ ـ ٢٤٥] .

تمهيد :

قال عيسى بن طلحة لما دخل على «عروة بن الزبير» حين قطعت رجله :

«ما كنا نعدك للصراع » والحمد لله الذى أبقى لنا أكثرك :

أبقى لنا سمعك . وبصرك . ولسانك . وعقلك . وإحدى رجليك » .

---

(١) كان مالك يقول : رأيت فى هذا المسجد سبعين عالما يستنزل بهم المطر . . لكنهم لا يفهمون ما يخرج من رأسى ؟!!

وقد قدم قوله «ما كنا نعدك للصراع»

والمقصود من مثل ذلك هو :

الاهتمام والعناية بالحجة . قبل ذكر الدعوى : تشويقا وحملا على التعجيل بالامتثال .

وهذا المعنى مشتق من الآيات الكريمة :

فالمقصود هو : تحريض المؤمنين على القتال . . .

وذكر المقصود أولا هو المعتاد . . لأن ذكر المقاصد أعون على الاستعداد لبلوغها.

ولكن الحق سبحانه وتعالى فى الآية الأولى :

يذكر الدليل . .

فكأنه تعالى : يلفت أنظارنا إلى أن هؤلاء القوم مع كونهم ألوفًا . . كانوا يخافون من الموت . .

ولكن الله تعالى أماتهم : فما أغنى حذر من قدر . .

والمطلوب إذن أن نتوكل على الله . . ما دام الأمر كذلك وأن محاولة الإفلات من قبضة الموت . .

قد يكون هو نفسه سبب الموت . . بدليل قصة هؤلاء القوم . . .

ثم جاء المقصود فى الآية التالية وهو :

القتال في سبيل الله . . والأعمار بيده عز وجل . . وأنه لا يغنى حذر من قدر. . . ولو كان الإنسان فى بيته لبرز إلى مضجعه . .إن كان ممن قدر له أن يموت .

ومن ملامح منهج القرآن الكريم في الدعـــوة

يقول عز وجل :

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] .

إنه يجمع بين الترغيب والترهيب . مؤثرا تقديم الترغيب .

وحتى وهو يتوعد يمسك «بالصيد» حتى لا يطير :

وذلك واضح من خلال هذه الآية الكريمة :

ولئن . . . وإن للشك. . .

ثم هو : مسٌ . .

وهى : نفحة :

نفحة من عذاب «ربك» وليست نفحة من عذاب «الجبار»

وهذا هو منهج القرآن

والذى يتلخص فى :

١ ـ تحديد الهدف

٢ ـ ثم . . بيان العمل الموصل إليه .

٣ ـ بالإضافة إلى إعانة المسلم . . ليكـون قادرا على تحقيق الأمل . . عن طريق هذا العمل :

ويتضح ذلك فيما يلى :

يقول عز وجل :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]

ويقول سبحانه :

﴿ .. إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. ﴾ [العنكبوت :٤٥] .

ويقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

ويقول عز من قائل :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحج: ٢٧ ، ٢٨] .

وقفات .. بين يدى الآيات :

فى آية سورة التوبة : يبدو الهدف واضحا وهو : ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ .

وفى آية سورة العنكبوت : تبدو غاية الصلاة وهى :

إنشاء واعظ مقيم فى كيان الإنسان يحميه من الوقوع فى الفحشاء والمنكر.

ثم تقرر آية «البقرة» كيف كانت التقوى غاية الصوم .

ثم تجيء سورة الحج لتحدد الهدف من الحج وهو : مجموعة من المنافع وفى مقدمتها الذكر .

ومن خلال ذلك كله ـ تبدو الأهداف دافعة إلى الطاعة ، مانعة من العصيان .

إلى جانب مابثه الله تعالى فى القرآن الكريم مما يخلق جوا من التنافس أو التسابق من أجل الفوز بجزاء هذه الأعمال فى الدنيا . وفى الآخرة .

ومن أساليب القرآن

يقول الله عز وجل فى أول سورة الجاثية:

﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ③ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ④ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقال تعالى فى سورة «ص» : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [٢٧] .

يقول الخطيب الإسكافى : (١)

[أخبر تعالى أن فى خلقهما بالحق ـ السموات والأرض ـ آية للمؤمنين . وأنه خلقهما باطلا لا ليعبد فيهما ويطاع . . ذلك ظن الذين كفروا ـ والويل لهم ـ كانت الآية الأولى من سورة الجاثية : محمولة على ما تقدم من إثبات الآيات فيها للمؤمنين:

ومن تلك الآيات :

أنه لا شىء أعظم فى الموجودات منها .

ثم اتساق النجوم فيها . وتسخيرها على انتظام . مما يدل على مدبرها . ثم وقوفها مع عظمها . وثقل جرمها بغير دعامة من تحتها . ولا علاقة من فوقها . . تدل على قادر لا يشبهه قادر .

فمن وفى النظر فى ذلك . وفى سائر ما فيها من الآيات الأخر حقّه . . أداه إلى الإيمان بالله تعالى .

فلذلك قال : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ :

فخصهم لانتفاعهم بها . وإن كانت الآيات منصوبة لهم ولغيرهم .

---

(١) ٤٣٦ .

إلا أن غيرهم لما لم ينتفعوا بها . . صارت كأنها لم تكن لهم آيات .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فإن العجائب فى خلق الحيوان . وماله من أعضاء والحواس التى بها يدرك المحسوسات .

ثم فى باطنه من جواذب المواد التى بها قوام الحياة .

ثم الروح : التى بها نبات الأجساد : أكثر من أن تحصى وتعد :

فإن عرضت شبـهة لملحد بأن كون الولد بإحبال الوالد أمـه . . ومن نطفته يأخذ شبهه . . فإنه يطرح ذاك . ويرتاح بالآيات .

التى ليس إلى الوالد فعلها. ولا جارحة من جوارحه يحيط علمه بنشأتها .

والحكمة فى تركيبها .

فكيف أن يكون فاعلها تبارك وتعالى :

من صنعها .وزينها بالعقل الذى هو أكبر نعمة ؟.

فهذا هو المتفكر فى ذلك :

ينتقل من ظن . . إلى علم . وتيقن بعد شك .

واليقين : علم يحصل بعد تشكك .

ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه «موقن» . ويوصف بأنه «عالم» فلهذا قال :

﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

* وأما الآية الأخيرة وهى ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. ﴾ الآية :

فقـد تقدم من قولنا فى الفـرق بين : «يعقلون» و«يعلمون» مـا يبين الجواب عن الفائدة باختصاص هذه الآية بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾ كما قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ الآية فخص هذا المكان أيضا بقوله «يعقلون» .

لأن المعنى :

أنهم يفطنون بمعلوم لمعلوم آخر. فيعقلون من إحياء الأرض بالمطر حتى تكتسى بالنبات والشجر : أنه يحيى العظام وهى رميم وهذا موضع يقال فيه : «عقل كذا . . من كذا . أى استدركه بالعلم .بعد أن لم يكن مستدركا له .

فكأنه فى معنى : يفطنون . ويدرون . ويشعرون .

كما أن أصل الوصف بالعقل موضوع لحالة ثابتة . وحالة طارئة.

فلذلك خصت الآية الثالثة بهذه اللفظة] .

ويبقى «المؤمنون» أهلا للاعتبار . [لأنهم برسوخهم فى هذا الوصف الشريف : «المؤمنين» أهل للنظر :

لأن ربهم يهديهم بإيمانهم :

فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة .وأدلة الإلهية فيهما واضحة .

ولعله أشار بالتعبير بالوصف إلى أنه لابد فى رد شبه أهل الطبائع . . من تقدم الإيمان . وأن من لم يكن راسخ الإيمان لم يخلص من شكوكهم] أ .هـ (١) .

وقد بدأ سبحانه وتعالى بآيات السموات . لأنها : أظهر . وأكثر . وبالتالى أقهر!

ومن قوتها ما ذكره الرازى (٢) .

١ ـ إن الأفلاك والعناصر ـ مع تماثلها فى تمام الماهية الجسمية .اختص كل واحد منها بصفة معينة :

كالحرارة والبرودة . واللطافة والكثافة .

٢ ـ إن أجرام الكواكب مختلفة فى الألوان :

مثل : كمودة زحل . وبياض المشترى .وحمرة المريخ .

---

(١) البقاعى ـ سورة الجاثية .

(٢) تفسير سورة «الجاثية» .

والضوء الباهر للشمس . ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد . وأيضاً :

فبعضها سعيدة .وبعضها نحسة . وبعضها نهارىّ ذكر .

وبعضها ليلى أنثى .

٣ ـ كل فلك مختص بالحركة إلى جهة معينة .ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء] .

من دلائل يسر التكليف :

١ ـ تنزيله منجما . . مفرقا . . ليفهم . . ثم ليسهل العمل به .

٢ ـ ثم هو من الله تعالى : [المحيط بصفات الكمال] .

٣ ـ وهو الله العزيز الحكيم :

فكان كتابه عز وجل من فيض عزته وحكمته :

[عزيزا حكيما لا كما تقول الكفرة من أنه شعر . أو كذب أو كهانة ؛ لأنه لا حكمة لذلك .ولا عزة. بحيث يلتبس أمره بأمر هذا الكتاب المحيط بدائرة الحكمة والصواب .

ودل بشواهد القدرة . وآثار الصنعة من نسخة هذا الكتاب . . دل على .

أ ـ الصفتين . [العزيز الحكيم]

ب ـ وعلى وحدانيته فيهما . اللازم منه : تفرده المطلق .فقال مؤكدا لأجل من ينكر ذلك . . وترغيبا فى تدقيق النظر . بتأمل آيات الوجود . التى هذا الكتاب شرح لمغلقها .وتفصيل لمجملها .

وإيماء إلى أنها أهل لصرف الأفكار إلى تأملها :

﴿ إن فى ﴾ .

ولما كانت الحواميم . . كما روى «أبو عبيدة» فى كتاب «الفضائل» : عن ابن عباس رضى الله عنهما : لباب القرآن ـ حذف ما ذكر فى «البقرة» من قوله «خلق» ليكون ما هنا أشمل فقال «السموات» أى : ذواتها] .

وربما جاز لنا أن نقول :

إن المهم فى خلق السموات والأرض .. ليس المقصود بالدرجة الأولى الذوات .. وإنما الكيفية .. لأنها التى يكون بها الاعتبار ..واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧ ، ١٨] .

تصريف القول

وفرارا من الملل ومن الكسل .. يقول عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء: ٨٩] .

ويقول تعالى :

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] .

ما هو التصريف ؟

جاء فى المصباح

[صرفت الكلام زينته . وصرفته بالتثقيل مبالغة] .

[والصريف الصوت . ومنه صريف الأقلام] .

[والصرف بالكسر الشراب الذى لم يمزج .ويقال لكل خالص من شوائب الكدر : صرف ؛ لأنه صُرف عنه الخلط] .

وإذن فمعناه : التلوين .. والتزيين ...

أى أن الله سبحانه وتعالى ضرب للناس «من كل مثل: من كل نوع .. لتتأثر النفس .. ثم تتجاوب مع قصصه .. المتعددة .. وأسلوبه الكثير الألوان .. وما يصحبه من أصوات .

أحسن الحديث

وأحسن الحديث بإطلاق هو : القرآن الكريم وذلك قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا .. ﴾ [الزمر: ٢٣] .

وسوف يظل كذلك أحسن الحديث .. وأعذب الحديث ..

متحديا .. باقيا إلى الأبد فى سمواته العلا بحفظ الله تعالى إياه

فـى السطور . .

ثم فى قلوب هى أوعيته . .

وفى طليعـتها أولئك الذين يمـلكون صوتا جمـيلا . . يمنحه عـز وجل ناسا من عباده . . يمتلكون موهبة الصوت الذى يشع جمالا وكمالا :

الجمال : بما ضم عليه من رقـة وخشوع . . ثم كـان هو الكمال . . حين يتلوه قارئ يغترف لسانه من قلب ودود :

معمور بالتقوى . . مغمور بالجلال .

وإنك لتسمع هذا الصوت الندى . . ثم تتحسس نفـسك وأنت تستقبله لتتأكد : هل مازلت على الأرض بشرا يمشى . .أم أنك هناك سابح فى جو السماء ؟!

إنه الجمال . . والكمال . .

تسمعه ؟ لا بل تستمع إليه . .

لا . . بل تستمتع به . .

وقـد تـتـمنى عندئذ أن لو كـانت جوارحـك كلها آذانا . . تـنهل من هذا النور العلوى . .

والذى لا يوافيك حين تسـمعه من عـقل قارئه وإنما هو فيض قلبـه ينساب إليك مغموسا بالجلال والجمال . .

وقـد يحملك هذا الصـوت الأثير . . عـلى موجـات الأثير . . ثم يأخـذك من نفسك: من وعيك . . حتى إذا قـال : صدق الله العظيم . . رد إليك وعيك : فإذا أنت تقول :

حقا : صدق الله العظيم

وقدر الله العظيم :

قدر أن يرحمنا بهذا القرآن الكريم .

الأسماء الحسنى

تمهيد :

تقول العرب :

كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى . . .

لماذا ؟ لأنها دلالة على خصوبة الشخصية . .

وعلى تجدد جوانب التفوق فيها . .

وكأنما يدل كل اسم على بعد من أبعاد هذه الشخصية المتراحبة .

يقول الله عز وجل :

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ .[الأعراف: ١٨٠] .

[لله] : له وحده سبحانه وتعالى :

﴿ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ :

لشرفها . . بشرف مدلولها سبحانه

﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ لماذا ؟

لأنها الدواء . . ولأنها الشفاء . .

والمعنى :

ما دامت الأسماء الحسنى له وحده سبحانه . .

وما دامت حاجتك تلح عليك بين جوانحك وما دامت هى الدواء وهى الشفاء . .

إذن . . فخذ طريقك إلى تحقيق آمالك بها :

بها . . وحدها . . فإن ذلك أدعى للإجابة . . وأولى بالتوفيق . .

وهذا هو طريقك الأوحد . . لا أن تذهب إلى غيره سبحانه . . لأن غيره عبد المعين :

فهو مثلك يحتاج إلى معين !!

ألا وإن ذلك الدعاء نعمة ورحمة :

فلنحافظ على ذكره عز وجل بها . . طمعا فى إجابة الدعاء . .

ومن شكر هذه النعمة :

أن «تذروا الذين يلحدون فى هذه الأسماء : حيث لم يتذوقوا حلاوتها :

إن الذكر نعـمة يحسدكم الناس عليـها . . فى محاولات لتـعكير النبع الرائق . بالمكر المبيت :

فاستمسكوا بها : خذلانا لهم . وإحباطا لخططهم :

قيد هذه النعمة : بشكرها :

ومن شكرها :

١ ـ إحصاؤها .

٢ ـ وحفظها .

٣ ـ وتذكر معانيها .

من دواعى شكر :

هذه النعمه :

ومما يحملكم على الاستمساك بها . . تصوركم لمكر عدوكم بكم :

فهم يلحدون فيها :

أ ـ يطعنون فيها .

ب ـ ويمارون فى القرآن الكريم : ظاهرا وباطنا : تصف ألسنتهم الكذب .

جـ ـ يغيرون الأسماء مدفوعين بالمكر السيئ يأخذون : «اللات» من «الله» . و«العزى» من «العزيز» و«مناة» من «المنان» .

يفعلون ذلك : إيهاما واحتيالا .

د ـ وقد يخترعون من الأسماء مالم يأذن به الله .

هـ ـ وقد ينقصون : فيقولون ببعض . ويتركون بعضا .

ومن واجبكم :

ألا تدخلوا معهم فى جدل فارغ : لأن التافه قد يغلب فى معركة المراء . . ثم اتركوا القضية لله تعالى . . فاتحين بصائركم على خبايا أعدائكم حتى لا تحققوا بالجدل بعض أمانيهم .

ومما يحملكم على ذلك الترفع أمور : منها :

أن أعداءكم يحاولون ضربكم فى الصميم وفى مقتل : وهو : العقيدة .

ثم إنهم مستمرون : لا يفتؤون يمكرون كما يفيد التعبير بالمضارع فى «يلحدون».

وفى رحلة الاستمرار هذه يحاولون تطوير أسلحتهم ويواصلون مكرهم :

حيث يلجؤون إلى «الإلحاد» فى مواقف أخرى من مثل قولهم :

الله حاكم . . لكنه يحكم . . ولا يملك :

بل يترك للسنن الكونية لتدير الكون نيابة عنه ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ [الإسراء: ٤٣] .

[والقرآن الذي يجد فيه من يحسن فهمه كل ما يحتاج إليه في دنياه وآخرته، في فكره وسلوكه، علمنا أن الذكرى تنفع المؤمنين. لأنها وإن لم تعطهم ما ليس عندهم، تضع تحت أيديهم وأعينهم ما بعد عنها مما هو عندهم .

هذه الحقيقة التي شرحتها في خطبة افتتاح المؤتمر هي أن الله نزل هذا القرآن، وتعهد بحفظه، وما حفظه الله لا يقدر أن يضيعه بشر. وإن الإسلام باق خالد، وإن أهله لهم المنصورون، وإن العاقبة لهم، وإن كتب الله الظفر حيناً لعدوهم في معركة من المعارك عليهم، لما خالفوا عن أمره، ولما اتبعوا غير سبيله، فليس هذا تعذيباً من الله للمؤمنين، ولكنه تأديب لهم أن يعودوا لمثله، وقلت إننا بين أمرين: إما أن ننصر الله فينصرنا، ويكون لنا بذلك عز الدنيا وسعادة الآخرة، وإما أن نقعد عن نصرة

ديننا، ونهمل شريعتنا، فيستبـدل الله بنا غيرنا، فيدخل في الإسلام شعب حي عامل كشعب الألمان أو اليابان، فيحملوا هم لواءه ويصيروا هم أولياءه، ونرجع نحن كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين ،نسأل الله السلامة من هذا المصير] .

[وأبلغ الخطب ليس الذي يحـشد فيـه الخطيب أضخم الألفـاظ، وأبلغ الجمل، ويسوق فيه أروع الشواهد ،ويهدر بذلك هدراً، ويتكلم فيه مع لسانه يداه وعيناه .بل إن أبلغ الخطب ما قلت فيه الحـقيقة التي تدخل قلب السامع ، فيؤمن بهـا ويصدقها، ويقول لك : صدقت على أن توقـد تحتها نار العاطفـة ،لا أن تعرضها قضيـة منطقية باردة، تخاطب العـقل ولكن لا تهز الروح ، ولا تحـرك القلب ، وأن يكون كلامك من قلبك قبل لسانك] .

عن البراء والولاء يقول أحد الكاتبين :

وقرر أن مـفهوم الولاء والبـراء لم يكن مفهـوما طارئاً على العقـيدة بل هو من أصلها «لأن الأمر بالدخول فى الإسلام يقتضـى حدوث معتقد الولاء والبراء في قلب المسلم من سـاعة دخـوله فى الإسلام .ولذلك لـم يأت فى الآية السابقـة ـ يعنى آية المجادلة رقم ٢٢ ـ نهي للمـؤمنين عن محبـة وموادة الكافرين لكفـرهم، وإنما جاءت الآية بخبـر عن واقع ،وهو أنه لا وجود أصلا لمؤمن يحب ويواد الكافـرين لكفرهم» ص٣٥ .

وقد انتبه المؤلف لمعنى لطيف ركز عليه كـثيراً ودارت عليه أعِنّه القول فى المبحث الرابع عن توافق الولاء والبـراء مع سـماحـة الإسـلام وهو أن : «الحب القلبي الذي ينقض الولاء والبراء وينفي أساس الإيمان هو حب الكافـر لكفره»، وأما ما دون ذلك من الحب الذى لا يتـعلق بأصل الكفـر فإنه لا يـنقض أصل الإيمان الإسلامى.وقـد استـدل المؤلف الحصيف على ذلك بقـوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]. فقد أشارت الآية الكريمة إلى مـحبة النبى ﷺ لعمه الكافر ولم يعـتب عليه فى ذلك : «يدل ذلك على عدم مـخالفتهـا لكمال الإيمان ، وأنى لها أن تخالفه وقد وقعت من أكمل الناس إيمانا ؟ ! «ص٦٩ » .

وفي تفصيل المؤلف للأمثلة ذكر أن الحب فى المبحث الخامس طالت مناقشة المؤلف لبعض مظاهر الغلو في مفهوم الولاء والبراء، فكشف عن مناقضتها لهدي سلف الأمة الصالح من المجاهدين في تعاملهم مع أهل الذمة بالبر والقسط، وتلكم صفحات ناصعة فى تاريخ الأمة تجلت حتى في أقصى معارك العنف الفاصلة في أيام الحروب الصليبية، حيث أحسن إليهم صلاح الدين الأيوبى بما لا يزال يبهر أنظار المؤرخين ومطالعي التاريخ، ولو لم يكن ذلك من تراث الأمة الزاهر لما وصف شوقي عمر المختار بأنه :

ويشارك الأقران ذخر سلاحه ويصف حول خوانه الأعداء !

وقد أحسن المؤلف إذ نظر إلى كل ذلك ثم قيده قائلاً إن : « سببه أن المسلم لا ينظر الى الكافر المعين على أنه عدو أبدى، بل مهما قوى عداء الكافر للمسلم واشتد، يبقى احتمال أن تزول هذه العداوة بإسلام ذلك الكافر، فعلى المسلم أن يبقى للصلح موضعاً .

فلا يغرق في العداوة. فقد قال تعالى عن مشركي مكة الذين قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ٧] .

وذكر أن الحب القلبى لغير المسلمين على درجات فمنه الذي ينقض أساس الإيمان ومنه مالا ينقضه وقد يدل على ضعف فيه كحب الكافر الفاسق لفسقه أو معصيته لا لكفره، أو إعانته للكافر مع بقاء الإيمان راكزاً في القلب كما فى قصة حاطب بن أبي بلتعة التي جلى المؤلف عبرتها كثيراً في هذا الفصل مستعينا بتحليلات واستخراجات شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، والإمام القرطبى ، وغيرهما من فحول العلماء .

ودعاء المؤلف الفاضل إلى الانتباه إلى ما دعاه بفقه المصالح والمفاسد ؛ لأن من أثاروه يتغاضون عن وضع المسلمين اليوم في خريطة العلاقات الدولية، حيث هم في حالة ضعف مريع واستهداف فظيع من قبل القوى العالمية. والغفلة عن هذا الواقع تعرض المسلمين لمزيد من الاستهداف والاستغفال والاستدراج. وقد أبان المؤلف لمن

يجادلون بأن المعاهدات التي بين الدول الإسلامية والغربية بها أخطاء شرعية ولا تصح بأن معاهدات مثل تلك تبدو ظالمة أو هاضمة لحق المسلمين سبق أن وردت في التاريخ النبوى عندما أراد رسول الله ﷺ مصالحة غطفان على نصف ثمار المدينة، وهذا ليس موقفا بدعاً في التاريخ ولا في الفقه، فله أشباه ونظائر كثيرة .

دحض الشعارات

لقد وفق المؤلف أيما توفيق فى عرض جوهر موضوع الولاء والبراء مُخلصا مما لحق به من شطط وغلو، ودحض هراء أهل الشعارات الذين غدوا يلخصون الفقه بدقائقه كلها فى شعارات تروقهم، وتحلو لهم وتستهويهم ويجعلونها بمثابة قواعد محكمة أقوى من النصوص ومن فقهها، ولا يترددون في تأويل كل نص أو فقه لا يتعلق مع تلك الشعارات الصماء. وما أشقى العلم بشعارات أهل الغلو التي تعتدى على حرمة العلم ، وتجرده من لبابه وتبتذله في عبارات جوفاء .

ومع تلك المواجهة القوية التى تصدى بها المؤلف لمبتذلات الغلاة فقد جاءت لغة الكتاب هادئة رقيقة رفيقة حادبة ليس بها عنف ولا غرام . وقد يؤخذ على الكتاب تداخل بعض مباحثه، وعودة المؤلف لشرح شأن سبق أن شرحه قبل هنيهة وهذه من بعض موروثات طرق التأليف القديمة ، والتأثر بالمنهج التعليمى لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي طرائق قد لا تناسب أساليب التأليف والتعليم الحديثة القائمة على أدق مقتضيات التنسيق والتنظيم والتدقيق المطرد . وقد خالطت هذه المسألة منهج تأليف هذا الكتاب قليلا لا كثيراً، ولم تؤثر عليه إلى الحد الضار، ولكن كم كنا نتمنى أن لوخلا منها ومن أثرها على الإطلاق. والكتاب يستحق أن ينقل إلى لغات أخرى وعسى أن توفق الرابطة لنقله لبعض الألسن ونرشح منها اللسان الإنجليزى ، والفرنسي ،والأوردى والتركي والسواحيلي .

من مغالطات المشركين :

يقول الله عز وجل:

﴿ . . إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . ﴾ [الفرقان: ٤٢] .

إنهم يسخرون منه ﷺ . .

والأولى أن تتجه طاقة السخرية إليهم . . هم . .

وعليهم أن يسألوا أنفسهم :

كيف نسخر منه . . . ونحن فى نفس الوقت معترفون ضمنا بأنه يملك من البراهين ما أوشك بها أن يضلنا ؟ !!

[هكذا يتصرف الإنسان فى غيبة الإيمان] .

يقول أحدهم محذراً :

ما تمد لنا شبرا من غدر . إلا مددنا لك باعا من ختر ! [والختر : أشد الغدر].

أما فى ظل الإسلام . فالمسلمون لا يعرفون الغدر . . وإنما دينهم الوفاء . .

ولهم رأى عام ضاغط . . يلزم المتجاوز كلمة التقوى

روى الإمام أحمد :

« كان معاوية رضى الله عنه يسير فى أرض الروم . وكان بينه وبينهم عهد إلى أمد .

فأراد أن يدنو من ديارهم . . حتى إذا انقضى الأمد غزاهم من قريب :

فإذا بشيخ على فرس يقول :

الله أكبر ! . . وفاء ـ لا غدرًا . . يامعاوية !

إن رسول الله ﷺ قال :

«من كان بينه وبين قوم عهد .. فلا يحلن عقدة . ولا يشدها حتى ينقضى أمد العهد .. أو ينبذهم على سواء ».

وقد تسأل : لقد هاجم أعداءه مباغتة . . والجواب : لقد كانوا مشاكسين . مردة. وكان مجتهدا فيما ذهب إليه .

تلمس الإنسانيات
فى الأحكام التشريعية

من وراء الأحكام الشرعية يمكن أن نستنتج ما وراءها من المعانى الإنسانية.

وإن كان كثير منها منصوصا عليه مثل : الخمر .

كما يمكن أن نفهم إلى أى مدى يقدر الإسلام ظروف الإنسان. ثم يعامله على أساسها. ومن الأمثلة على ذلك :

أن العهد المكى كان أطول من العهد المدنى [١٣ : ١٠] .

وما كان ذلك إلا لأن القرآن الكريم قد راعى البيئة والوراثة وتأثيرهما فى كيان الإنسان . .

وكذلك . . لم يعاجل الله تعالى قريشا بالعقاب :

فالتقليد أمر ضروى . . ومفارقة العادات .والمراكز الاجتماعية أمر صعب . ومن هنا قال تعالى ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]

فيعفو عن هذا اللمم . والعلة فى ذلك هى :

أولا : ﴿ أنشأكم منَ الأرض .. ﴾ :

فهو أعلم بما يصلحكم . ولذا حرم عليكم لحم الخنزير : لا ضمانا للصحة فقط . . بل لأمر أبعد من ذلك هو :

الارتفاع بالإنسان عن المستوى الخلقى الهابط إلى الأرض . الناشئ عن أكل لحم الخنزير .

بدليل : أن الغربيين أكلوه . فمات عندهم الإحساس بالكرامة إلى حد يسمح الواحد منهم لزوجته أن تخالل . .

وقد فشا فيهم الشذوذ الجنسى. . إلى درجة شرّعوه بقانون . بعد أن عجزوا عن

دفعه . .

وثانيا : ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وهذا هو عامل الوراثة.

الخلـــق

يقول عز وجل :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى : ٢، ٣] .

هدى طبق سننه تعالى فى الفطرة . .

وحذف المفعول للتعميم .

وكل شىء مسوّى فى بابه .

الزوجيه

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] .

أى : زوجى وفردى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] .

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)﴾ [العاديات: ١، ٢] .

وهذا إرهاص لمستقبل العمل العسكرى من كل سلاح فتكون فيه هذه الصفات :

لأنه لو أراد « الخيل » لذكرها . . كما نص عليها فى غير آية . . فدل عدم ذكرها على أنها أوصاف لأنواع تكون فى الخيل والجمال . وغيرها .

[استدراك]:

الإسراء: إرهاص للطائرة الأسرع من الصوت .

المعراج: فوق كل تقدم علمى فى الفضاء الخارجى .

الفلــق

[الفلق] : كل مجـوف مشقوق أى : منفـرج : كالعين والأنف : فهـو كل ما فرجه الله . [من شر] :

و«شر» هنا : اسم ... لماذا ؟

لتعم الاستعاذة من كل الشرور . على خلاف ما ذكر د. زكى مبارك والذى قال:

[أنا لا أعـوذ برب الفلق من شـر ما خلـق . . بل من خيـر مـا خـلق وهو : الجمال] ؟!

ذلك بأنه جعل «شر» أفعل تفضيل . . فقـصر الاستعاذة على «أشرّ» « المخلوقات فقط .

والدليل على أنه اعتبرها أفعل تفضيل قوله : «خير» .

(ورحم الله أستاذنا الغمراوى) .

الفصل الثانى

الداعيـــة

من الإقبال عليه

إلى القبول منه

حدث ذات ليلة

فى السرادق الكبير قام الشيخ يعظ الناس . . ولكنه أطال . . فلما اعترض الناس مال واحتجب . . وادعى الغضب !

ثم عبر عن غضبه بهذا العتاب العفيف . . والذى توجه به إلى المعترضين . الذين لا يصبرون على سماع الحق بينما هم سماعون لقوم آخرين من المغنين ؟!

وكان لابد من تعليق على ما حدث :

إذا عراكم حادث . . فتحدثوا ـ فإن حديث القوم ينسى المصائب .

أجل كان لابد من فضّ هذا الاشتباك . . لا فى السرادق الواسع وإنما فى جلسة خاصة . . وفى منزل أحد المشايخ . . وكان هذا التعليق . . أو هذه التعليقات باعتبار ما حدث فرصة للتعليم .

ولكننى فوجئت بالفتى المتحمس . . والذى انتصر لشيخنا ممن اعترضوا عليه ويسعده أنه حقق النصر ، وبالدليل القاطع . ولكن ما زالت الفجوة واسعة بين الدعاة والمدعوين : وقلت فى نفسى الداعية الغاضب . . لم يكسب المدعوين بغضبه .

والذى هزمهم بالدليل . . لم يكسبهم أيضاً . . فأين السر ؟! وماذا على الداعية أن يفعل ؟؟

والسر هناك عند المدعو :

هذا المدعو . . الذى قد يحمله العناد على الجحود : جحود الشمس فى رائعة النهار .

ومهما كانت قوة البرهان . .

كما وأنه لا يستسلم لداعية لا يعترف به . .

وإذن . . فما الذى نقوده به إلى الحق ؟

إنه بما يلى يسلس قياده :

١ ـ بالخطاب اللين .

٢ ـ الاعتراف به .

٣ ـ التواضع .

٤ ـ طلاقة الوجه .

إلى غير ذلك من خلائق : هى فى مجموعها أقوى من البرهان . أو هى معه شريكان فى «الإقناع» .

البرهان : الذى قد تهزم به العقل . . لكننا لا نقنع القلب ؟؟

والمدعو لا يحب طعم الهزيمة لإنسان مهما كان ذلك الإنسان !!

تنبيه وتوجيه :

وقد يملك الداعية البرهان القاطع : يقنع به العقل . . ولكن يبقى القلب الذى نتعامل معه بلغة أخرى . . لابد منها ـ كما أشرنا آنفا . . .

ذلك بأنه لا يكفى أن يكون الداعية متسلحا بما يعينه على البلاغ : لابد من أن يكون له وجود فى وجدان جمهوره :

إن فى استطاعة القائد العسكرى أن يكسب احترام جنوده بقدر نجاحه فى أداء دوره كقائد يحقق الله به النصر . .

ولكن يبقى أن يكسب حبهم مضافا لاحترامهم :

وكذلك الداعية :

إنه ليس قائدا مهيأ للعمل بنجاح فقط . .

ولكنه «رائد» .

ورائد : لا يكذب أهله . .

وما دام رائدا . . فهو يملك القدرة على التأثير . .

ومن يملك قدرة التأثير هو وحده القادر على التغيير !

ومن مظاهر ذلك :

أن يصبح «حاجة» لدى جمهوره :

أن يصبح مرغوبا : مطلوبا . . من قبل المدعوين :

وخذ من الهجرة هذا الدرس :

فقبيل الهجرة جاءه ﷺ وفد المدينة يطلبونه : حبا له .

ورغبة فيه .

وقد استوثق له «العباس» رضى الله عنه . .

ودلت البداية على الفلاح فى النهاية .

ولا يعنى ذلك التساهل فى الدعوة إلى الحق . . تملقًا للجماهير . . حتى تحبه.

إن الدعاة يمثلون الحق المر .

ولأنه مر . . فإن نصيبهم من حب الناس ضئيل . .

وليكن !!

فلنتحمل أقدارنا :

وإذا لم نستطع أن نكون سعداء . . فلنعش أقوياء :

أقوياء : يفرضون احترامهم على الدنيا . . ولا طمع لنا فى هذا الحب على حساب الحق . . فإنما يبكى على الحب النساء !!

إن الداعية فرد فى مجتمع مؤمن :

والمجتمع المؤمن ـ ككل مجتمع ـ له آمال مشتركة يجب أن تتحقق .

وله كذلك خصوم ماكرون يتربصون به . .

ولن تتحقق الآمال . . ولن يهزم الخصوم . .

إلا بوحدة المجتمع :

و « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضه » ثم . . إن هناك تخصصات . .

ينبغى أن تتلاقى وتتكامل . لـتتحقق الأهداف الكبرى بها . . فى زمـان يبذل الأعداء كل طاقاتهم حتى لا تحقق هذه الأهداف .

والداعـية : خلاصـة هذا المجتـمع . . وقـد وضـع الله تعالى فـى يده مفـتاح القلوب . . وعليه أن يحسن إدارة هذا المفتاح . . لتستقبله تلك القلوب :

ولا يتم ذلك إلا بالوحدة الجامعة .

لقد كان من أسباب انهيار الدولة العباسية . . هو هذا الصراع العنيف المخيف بين «المأمون» وأخيه : الأمين :

حتى قيل :

« لو أنهمـا كانا من أم واحدة . . لما كانت هذه الحـرب . . ولما انتهت إلى هذه النهاية المفجعة» .

فليحذر الذين يخالفون عن أمره .

وحتى يقبل المدعو علينا:

لابد من صفات معينة يقررها المجربون :

الخطوات الأربع :

والخطوة الأولى على الطريق . . اتباع ما يلى :

المعرفه : يجب عليك أن تعرف موضوعك .

الإخلاص : ونعنى به أن تؤمن بموضوعك هذا .

الحماس : أن تكون تواقا للحديث عنه .

والممارسة :

أن تتحدث عنه فى كل مناسبة .

وفى مناسبة «كالعزاء» . عليك أن تكون .

مدركا أن المعزى مشغول فقط بأداء واجب العزاء . .

وإذا كان ولابد من موعظة فتكن على هذا النحو :

١ ـ الايجاز :

لأن البلاغة . . ما سميت بلاغة . . إلا لأنها تبلغنا مقصودنا . .

فلابد أن يكون الحديث موجزا . . وإلا تأخرنا فى الوصول إلى هذا المقصود . . وأحس المدعو بالملل . . فكان هذا الاشتباك الذى رأيناه . .

٢ ـ ثم محاولة انتزاع المعزى من مشاغله ليكون طرفًا معنا حين نحدثه بما يهمه . .

وحتى يقبل المدعو علينا فلابد من :

١ ـ مراعاة الظروف .

إن لكل مجتمع ظروفه التى تميزه . .

وبالتالى : له مشكلاته . . وأسلوبه فى معالجتها .

ومن الخطأ تجاهل هذا المعنى :

فالحديث فى سرادق المعزين غيره فى المسجد الجامع .

ذلك بأن المعزى لم يأت ليسمع . . وإنما ليتحلل من واجب العزاء . . وفى ذهنه مشاغله التى تثقله .

أما رواد المسجد . . فقد جاؤوا ليسمعوا . .

فلا بأس من محادثتهم . . وربما جاز أن يكون الحديث طويلا .

٣ ـ مع اليقين بأن غاية الداعى نبيلة . . إلا أن ذلك لا يسوغ له أن يقفز إليها فوق ما هو ثابت ومشروع . . ولا أن يتخذ إليها سبلا ملتوية :

لأن الغاية لا تبرر الوسيلة . . .

ولقد قلت يوما .. وفى نفس المناسبة :

ناقدا ما رأيته من مظاهر البذخ . . مما يناقض جلال المناسبة . .

قلت : ولكن بطريق غير مباشر :

الوفــــاء للأمـــــوات

الوفاء للأحياء شىء عظيم ، وأعظم منه الوفاء للأموات :

لمامات النبى ﷺ بكاه الصحابة قائلين :

ليتنا متنا قبله . . حتى لا نفتن بعده . .

ولكن «معن بن عدى» كانت له وجهة نظر أخرى دونهم جميعاً :

فقد رد عليهم قائلا :

ولكنى رغبت فى أن أعيش بعده . . حتى أصدقه حيا . . وميتا !

إنها وجهه نظر مختلفة . ولكن القلوب مؤتلفة .

حول قيمة الوفاء للأحق بهذا الوفاء :

ومن الوفاء للأموات . . ما روى من أنه كان بالبصرة ثلاثة إخوة .من ولد عتاب ابن أسيد :

كان أحدهم يحج عن حمزة .. ويقول :

استشهد قبل أن يحج .

وكان الآخر يضحى عن أبى بكر وعمر . ويقول :

أخطآ السنة فى ترك الأضحية .

وكان الآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق ويقول :

غلطت فى صومها أيام العيد .

فمن صام عن أبيه وأمه . . فأنا أفطر عن أمى عائشة] .

وتأمل كيف اتسعت همة هؤلاء الأماجد . .

حتى اعتبروا أنفسهم مسؤولين . . حتى عن هؤلاء العظام الراحلين . والذين حفلت سيرهم بجلائل الأعمال . .

لكنها النفوس الكبيرة :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وفى مجلس ضم :

سفيان الثورى : ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد

قال سفيان : كنت أكره الموت . .

أما اليوم . . فأنا لا أكرهه

ولما سئل فى ذلك قال :

أخاف الفتنة

وقال يوسف :

أما أنا فلا أكره طول البقاء .

ولما سئل فى ذلك قال :

لعلى أصادف يوما : أعمل فيه عملا صالحا . أو أتوب توبة نصوحا !

وقال وهيب : أما أنا : فأختار مايختاره الله تعالى لى . . وما يختاره عز وجل أحب إلى .

وأقول أنا :

اللهم أصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا . وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا . . واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير . واجعل الموت راحة لنا من كل شر . . اللهم : أحينى ما كانت الحياة خيرا لى . وأمتنى ما كان الموت خيرا لى .

وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين .

زكاة الأخوة

كان «سعيد بن عمرو» مؤاخيا ليزيد بن المهلب . فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد . ومنع من الدخول عليه . أتاه صديقه سعيد بن عمرو فقال : يا أمير المؤمنين :

لى على يزيد خمسون ألف درهم . وقد حلت بينى وبينه . فإن رأيت أن تأذن لى فأقتضيه ؟

فأذن له . فدخل عليه السجن . فسر به يزيد .

وقال له : كيف وصلت إلى ؟ فأخبره . فقال يزيد : والله لا تخرج إلا وهى معك . فامتنع سعيد .

فحلف يزيد ليقبضها . فقال عدى بن الرقاع فى ذلك :

ولم أر محبوسا من الناس واحدا حبا زائرا فى السجن غير يزيد

«سعيد بن عمرو» إذ أتاه . أجازه بخمسين ألفا .. عجلت لسعيد

وهكذا لم يفقدهم الحبس أريحيتهم التى لم تتخل عنهم حتى فى ظلمة السجن.

لقد كان سعيد ضيفا كريما .. وكان يزيد أكرم منه ..

وكأنى بيزيد يقول :

وإنى لحلال : بى الحق أيقى إذا نزل الأضياف أن أتجهما

إذا لم تذد ألبانها عن لحومها حلبنا لهم منها بأسيافنا دما !!

لقد كان الكرم طبيعة .. تفرض على صاحبها أن يكون سخيا .. وقبل ذلك أن يكون تقيا.

بل كانت جبلة الكرم تسرى بالعدوى من الصاحب إلى صاحبه على حد تعبير القائل :

لمست بكفى كفه أطلب الغنى وما خلت أن الجود من كفه يعدى

وإذا كان يزيد بن المهلب قد قضى دينه فى ظروفه الصعبة ..

فإن طلحة بن عبيد الله .. كان يبذل فطرة السخاء فيه ..

هذه الفطرة التى كانت تعبر عن نفسها ، ولا تسأل عن دين المحتاج .. ولا عن جنسيته ..

وربما عبرت عن نفسها .. وعلى نفس المستوى .. مع الأعداء ..

فكانوا مع الأصدقاء سواء :

ولقد فدى طلحة رضى الله عنه عشرة من أسارى بدر ...

وجاء يمشى بينهم].

وقد سئل بالرحم يوما . . فقال : مـا سئلت بهذه الرحم من قبل . . ثم قال لمن سأله :

[قد بعت حائطا لى ـ بستانا ـ بتسعـمائة ألف درهم وأنا فيه بالخيار : فإن شئت ارتجعته . . وأعطيتكه . وإن شئت أعطيتك ثمنه] !

إنه ـ وهو مالك الموقف ـ لم يفرض على الرجل اقتـراحا معينا . . وإنما كان من سخائه العريض : أن يخيره . . ليختار ما يشاء . . .

وإذا كنا نسمع اليوم عن معارك الجيران . . التى قد تصل بهم إلى ساحات المحاكم فإنا نـذكر هذه الأريحيـة التى حمت عـلاقة الجيـران من التآكل . . فكانـوا إخوانا متـحابين . . ومن حـبهم أن يبـادروا بالمعروف . . دون أن يلـجئوا جـارهم إلى ذل السؤال :

بلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داراً له . . لدين ركبه .

وكان يجلس فى ظل داره . فـقال : ما قمت إذن بحرمـة ظل داره . . إن باعها معدما وبت واجدا . . فحمل إليه ثمن الدار . وقال : لا تبع !!] .

وهكذا كان نوال ابن المقفع أفضل النوال على ما قيل :

أفضل النوال ما كان قبل السؤال . فإن الفضل كل الفضل فى ذلك :

النوال . . الذى يغنيك عن السؤال . .

وقلت للشيخ الغاضب . ما قاله المجربون ؟

إنما يأمر المسلم بالمعروف . وينهى عن المنكر إذا ضمن تحقيق واحد مما يأتى :

أ ـ إزالة المنكر نهائيا .

ب ـ جبر خاطر المؤمنين .

جـ ـ كسر خاطر الفاسقين .

د ـ عدم ترتب ضرر أكبر يلحق به أو بغيره .

فإذا لم تحقق الـدعوة كلها أو واحدا منها فـإنها حينئذ تكون مـخاطرة داخلة فى

النهى عن إلقاء النفس إلى التهلكة : والله تعالى يقول :

﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

وواجبنا عندئذ هو : الصمت :

ومن بلاغة الصمت :

قال بعضهم :

فى الصمت سبعة آلاف خير . .

وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات . . فى كل كلمة منها ألف :

١ ـ الصمت عبادة من غير عناء .

٢ ـ زينة . . من غير حلى .

٣ ـ هيبة . . من غير سلطان .

٤ ـ حصن . . من غير حائط .

٥ ـ يغنى عن الاعتذار لأحد .

٦ ـ راحة للكرام الكاتبين .

٧ ـ ساتر للعيوب .

وبعد ذلك كله فهو زينة للعالم . . والجاهل على سواء : فهو زينة للعالم . . وستر للجاهل .

وصدق القائل : ليس للجاهل خير من الصمت :

ولو كان يعرف هذه المصلحة لما كان جاهلا .

وخيرية الصمت هنا . . فرارا من مغبة الاسترسال الذى قد تخسر به جمهورك :

وقد قالوا : مائة صديق . . ليسوا كثيرا . .

ولكن عدوا واحدا . . يكفى !!

والحـــق يقـــال

إذا لم يكن لك كمال وفضل . . . فالأفضل أن تحفظ لسانك فى فمك .

وقد قالوا :

أ ـ اللسان : يفضح الآدمى . . كما تفضح الخفة الجوز الفارغ .

ب ـ لا تتعلم البهائم منك الكلام . . فتعلم أنت الصمت من البهائم .

من واقعية الإسلام

يعترف الإسلام بمتاع الحياة ومتعتها :

والإسلام يحب الجمال . والزينة .

ولكن فى غير إسراف ولا مخيلة . .

وقد مدح الإسلام الزهد . . ولم يمدح الفقر . لأن الزاهد هو : من يملك شيئا . . ثم يزهد فيه . .

أما الفقير : فإنه لا يملك شيئا . .

وإذ يقول الشاعر المترف :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو نظام

فإن الإسلام يجعل من الزهد متعة عباده الصالحين . لا ما يتقلب فيه المترفون . .

وإلا . . فما ارتفع ساكن القصر إلى أعتاب أبى بكر بمظهره البسيط !!

فقه الواقع :

أ ـ معرفة طبيعة المنكر وطبيعة المدعوين :

هناك منكر واقع : فتجب المبادرة إلى إنكاره .

وهناك منكر متوقع : يرجأ الاشتباك معه قبل وقوعه إذا لم يكن هناك فساد من التأخير .

والدليل :

﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾

أ ـ من أقصى : من بعيد

ب ـ يسعى [يعدو بسرعة] .

وفى الدعوة الفردية

يكفى واحد . . ومتى ؟

١ ـ إذا كانت الدعوة مجرد البلاغ .

٢ ـ أو مجرد إلقاء الحق بين يدى الغافلين عنه .

ب ـ ١ ـ الجماعة المتشابهة فى مشاربها : ويكفى ، فى دعوتها القليل .

٢ ـ والجماعة المتعددة النزعات . . لابد لها من الكثرة وقد يكون داعية أبلغ من داعية . وإن كان الثانى أغزر علما .

٣ ـ وقد يكون أسلوب أقوى من أسلوب .

وقد يكون داع أقوى حجة . . لكن النفوس تميل إلى غيره . . لاعتبارات خاصة . .

وإذن : فالجماعة المتعددة المشارب . . لابد فى دعوتها من كثير . . يدورون حولها.

وهناك دعوة أسهل من دعوة :

إن كنت تدعو إلى عقيدة . . فما أصعب المهمة .

وإن كنت تدعو إلى فضائل عملية فما أيسرها .

وهناك دعوة حاكم . . ودعوة محكوم .

والحاكم ـ لكى نكسر غروره ـ لابد من أكثر من داعية . . ومن هنا قالوا : لفظ أمة «أكثر عددا من لفظ قوم . . فكان لفظ «أمة» أنسب بالدعاة «لما فيه من معنى

التعاضد والالتحام» .

ومن فقه الواقع :

أن تكون الدعوة فى مؤسستك . أو فى قريتك :

ذلك بأن الموعظة عندئذ مباشرة . . والمكان محدود والحياء كما يقولون : فى الوجوه . .

وكلنا يعرف صاحبه . . ولا كذلك فى المدينة لتباعد المسافات .

وعندئذ : فالرفق مطلوب .. لأن ثمن القسوة فادح :

وإنه لشيء مخيف حقا . أن يكرهك أحد . .

وأقبح منه : ألا يبالى بك أحد . .

واعلم : أنه ليس كل ما تواجهه يمكن تغييره . .

جـ ـ وقال علماؤنا :

إن الناس فريقان :

فريق تغلب نفسه على قلبه .. وهذا يكتفى بالموعظة الحسنة ..

وقسم يغلب قلبه على نفسه .. وذلك لا يكتفى بالموعظة الحسنة ..

بل لابد من ورائها : معرفة الحكمة ..

التى تدرك بالتعليل . وتحسن الربط بين الأسباب والمسببات .

وهؤلاء هم الصوفية الذين تهيأ لهم اليقين الذى لا يقبل الشك . .

فاعتصموا به فى مهب الرياح . . فوقاهم هذا اليقين من كل سوء . .] .

الدعوة وطلاب الدنيا

ومن أصناف المدعوين : طلاب الدنيا . .

فلندخل إلى قلوبهم من باب الدنيا . .

لقد كان الرجل يعـلن إسلامه . . من أجل الدنيا . . وجه النهـار وعندما يدخل الليل حتى يصير الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها .

وكان الرجل يسأل الرسول ﷺ مالا . . . فيعطيه غنما بين جبلين . . فيرجع إلى قومه قائلا :

أسلموا . . فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . .

إلى الحد الذى كان الرجل من هؤلاء يقول :

كان ﷺ يعطينى وهو أبغض الناس إلى . . ثم إذا به أحب الناس إلى .

كيف ندعو المسترشد ؟

أ ـ تحببه فى الله تعالى . . عن طريق تذكيره بنعمه عليه . .

[وفى سورة النحل وسورة الرحمٰن . أمثلة .

ب ـ ثم تحريضه بأن الجماد قد سبـقه إلى طاعة الله عز وجل . . .فكيف يستسيغ هذا الوضع ؟ كيف يستسيغ أن يسبقه الجماد ؟!

جـ ـ الإجمال . . ثم التفصيل . .إثارة للشوق :

مثال : ثلاثة تشرق الدنيا بمطلعها شمس الضحى . وأبو إسحاق . والقمر !

الأصل القرآنى :

ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⑩ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ⑪ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ٩ ـ ١١]

وذلك هو الإجمال .. المثير للشوق .. إلى تفصيل هذا الإجمال فى قوله عز وجل : ﴿ نحن نقصُ عليكَ نَبأهمْ بالحق..﴾ .

وأخيرا :

فإن من فوائد الإجمال ثم التفصيل : كأنك تذكر المعنى مرتين ..

الصبر على إلحاح المدعو :

ومن المدعوين : ذلك الذى قال للرسول ﷺ : أوصنى وأوجز !

ومن قال :

دلنى على عمل إن عملته يحبنى الله . ويحبنى الناس .

ولاحظ أن الرجل مع حرصة على أن يفوز بحب القادر سبحانه وتعالى .. فإنه ـ وفى نفس الوقت ـ لايستغنى عن الناس ..ولا مانع لدى الإسلام فى هذا .. تجاوبا مع غرائز الإنسان.

ومن أساليب الدعوة

مخاطبة الوجدان :

١ ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] .

٢ ـ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر : ٥] [وفق مصلحتكم] .

٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج : ٦٥] ..

٤ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

ذكر تعالى «منه» هنا .. دون آية الخلق ..

وذكر تعالى «هو» فى آية الخلق .. رفضًا لمن قال : الطبيعة خلقت نفسها .

[الانطلاق .. من نقطة اتفاق]

وحتى يصل الطرفان إلى هدف واحد .. لابد أن ينطلقا أولا من نقطة اتفاق..

ومن أمثلة ذلك :

أ ـ أيسرك أن يكون ولدك فى البر سواء ؟

ب ـ وقوله : « أرأيت إن كان على أمك دين أكنت قاضيته » ؟

١١ ـ الموضوعية :

وهى : فض الاشتباك بين الآراء المشتجرة بلا تحيز لرأى .

وتتم الموضوعية فى إطار : فكر منظم ..

ومن انتظامه أن ينتقل من العام إلى الخاص :

يعرض الفكرة إجمالا .. ثم بيان إيجابياتها وسلبياتها كما أشرنا .

١٢ ـ توخى مصلحة الدعوة :

إن الصحيح هو أن تكون الدعوة هي التي تتحكم في منهج العمل وأساليبه وأولوياته . فإذا كنت تتميز بالأسلوب التحليلي المنطقي في أحاديثك، وكنت في جمهور بسيط فدع أخاك الذي يمتلك لغة الجمهور العادي يتكلم، لعله أفضل تأثيرا منك، في هذا الموضع، وإذا فشلت في دراستك فلا تهون من قيمة الحوار إلى الجدل، اجتهد في إعادته إلى مجراه الطبيعي العادي، حتى ولو أدى ذلك إلى قطعه بحكمة وتبصر، تفاديا لتعميق الهوة النفسية والفكرية بينه وبين الآخرين (المدعوين)، فالناس يجذبهم السلوك المتزن أكثر من الكلام المؤيد بالحجج إذا كان صحابه خِلوا من التأدب ومراعاة المشاعر والأذواق .

الدور البشرى أولا :

يقول الأستاذ الطيب برغوث : « إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقاتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية في كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر

عندها حينما يتسلم مقاليدهم، ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة] .

تميز الداعية :

[. . إن تميز الداعية ونموذجيته يتطلبان منه أن يضع مسافة بينه وبين الآخرين ليظل قادرا على الحكم الموضوعي على عناصر الموقف وملابساته فلا ينساق ليتمكن من التدخل المؤثر في الوقت المناسب والأسلوب المناسب،وفي قصة يوسف عليه السلام في السجن نموذج رائع للداعية الذي تميز عن بقية المساجين، فصار مقصدهم في الملمات : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٨] ويسألونه فيجيب، ويستفتونه فيفتيهم، ويشكون إليه مشكلاتهم وواقعهم . . .

وفي موقف الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس خلاصة لفقه الحركة في هذا المجال حين استدعاه مسؤول استعمارى كبير ،وأخذ يهدده بإقفال المسجد إذا لم يوقف نشر أفكاره ،فكان جوابه له : « أيها المسيو الحاكم . . إنك لا تستطيع ذلك . . » قال له كيف ؟! فأجابه ابن باديس : « إن كنت في عرس علمت المحتفلين ، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين ،وإذا جلست في قطار علمت المسافرين، وإذا دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإذا قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين. . وخير لكم أيها «المسيو» ألا تتعرضوا للأمة في دينها ولغتها» .

وتظهر أهمية دور الداعية حين يكون حريصا على استمالة كل الأطراف، ولو أخر أو أجل بعض ما عنده من الحق إلى فرصة أخرى أكثر نضوجا، دون أن يكون ذلك ـ بطبيعة الحال ـ من باب إقرار المحرمات وترك الواجبات ،فدعوة الآخرين تتطلب ذكاء وفطنة من الداعية ،وهذا هو المعنى الإستراتيجي للدعوة ،أو التخطيط للدعوة، وتنويع أساليبها ومناهجها] ا.هـ .

ونكرر : لابد من الإيجاز ..والذى يدل على :

١ ـ سعة اطلاع الداعية .

٢ ـ وعلى عمق تأمله .

٣ ـ ثم على تذوق سليم .

وعليك أن تتحسس رغبة الناس من نظراتهم . . لتقرر الاسترسال فى الموعظة . . أو السكوت . . على الأقل حتى لا يكونوا لك أعداء . .

وحتى لا ينتهى بك الأمر إلى مثل ما روى :

سئل حكيم :

ما أضيع الأشياء ؟ فقال : مطر الجود فى أرض سبخة : لا يجف ثراها . ولا ينبت مرعاها . وسراج يوقد فى الشمس وجارية حسناء : تزف إلى أعمى .

وضيعة تسدى إلى من لا يشكرها .

وقد حاولت إسداء هذا الجميل إلى الناس فلم يشكروه . .

وأنت المسؤول أولا ؛ لأن هناك معاندين لهم قدرة على قلب الحقائق والتشويش على الداعية :

وفيهم يقولون :

[من حقائق التاريخ وحقائق الحياة أيضا أن بعض الذين يملكون القوة لا يفكرون في الاعتذار لأحد، فهؤلاء الأقوياء لديهم قدرة غير محدودة على تبرير تصرفاتهم الخاطئة، وهم يقتنعون فى سهولة بالأسباب التى يستخدمونها فى تفسير تصرفاتهم، حتى لو كانت هذه الأسباب فى نظر الآخرين بعيدة عن العقل والحكمة والصواب، ولا جدوى على الإطلاق من محاولة إقناع هذا النوع من الذين أصابهم غرور القوة بضرورة الاعتذار عن أخطائهم التى تصل أحيانا إلى درجة الجرائم الكبيرة فما دامت القوة فى أيدى هؤلاء فهم يحسبون أنهم على حق حتى لو كانوا على باطل . . وهذه الحقيقة المؤلمة تنفعنا لأنها تقنعنا بأن أمثال هؤلاء الأقوياء لن يعترفوا بالخطأ أو يتراجعوا عنه إلا إذا أحسوا أن ما يملكونه من قوة يتعرض للمخاطر، ففى تلك اللحظة فقط يمكنهم أن يراجعوا أنفسهم ، أما قبل ذلك فإنهم يواصلون أخطاءهم دون خوف أو تردد، وسوف يبررون ما يفعلون لأنهم يشعرون أن الصواب فى جانبهم، أما النقد الموجه إليهم فهو يأتيهم من الضعفاء .

وحجة الضعيف مهما تكن قوية فإنها فى النهاية تبدو بلا قيمة ولا تأثير] ا.هـ.

التواضــــع :

ونقرأ في أهمية التواضع قول أحدهم : «كلما ازددت علما.. كلما تبين لى أنى لا أعلم !

وإذا كان من المدعوين من لا تحبه.. فلا تعلن ذلك فى الناس..

فإنما هو كالسيف الكليل فى البيت : ترهب به الذين لا يعلمون هل هو كليل أم لا !

من لباقة الداعية

أـ أن يعذر موقف الآخرين من الدهماء :

إنهم يتصورون أن «الفنان» بل وكل إنسان غير الداعية يتصورون أنه «يعطيهم» . . ومن ثم فهم يتحملونه . ويقبلون منه مـالا يقبل من الدعاة . الذين يمثلون فى حسهم «القيد» المانع من تحررهم ؟!

فلنرخ لهم من حبال الصبر :

إن للوردة ريحا طيبا . . ومن أجل ذلك يتحمل طالبوها وخز شوكها . .

والنخل . . كذلك . .

والنحل . . أيضا . .

دون التمر . . ودون العسل . . شـوك يدمى . . وعلى الداعية أن يكون له ريح طيب . . وثمر ناضج وعسل مصفى . . حتى يتحمله الناس !!

ذلك الذى سئل :

الدخان : حلال أم حرام ؟

فأجاب :

إن أحس المدخن بألم فى صدره . . فهو حرام وإن لم يحس. . فهو حلال؟؟

وإذا كان الباطل يتخفى : كعـقدة فى حبل حريرى لا ترى . . فإن للحق قدرته الفذة على الإمساك به !

فكن أنت هذا الممسك به :

لقد انتـصر الإنسـان على قانون الجاذبيـة بالطائرات الثقـيلة :ثم عاد من القـمر ببعض أحجاره .

وبإذن الله تعالى استـولد من شجرة البرتقال ليـمونا ! وبقى عليه أن يكسب كل

يوم صديقا : بالمياسرة والمسامحة .

العلم «أولا» :

تعليم الناس . . من جهالة وهدايتهم . . من ضلالة

منطلقاً من :

معرفة أسباب النزول : نزول الآيات وورود الأحاديث مدركا المقاصد : وعلل الأحكام وفقه اللغة ليتحقق ما يلى :

قرآن : يتلى . ويعمل به

وسنة : تروى . . وتتبع

ونستأنس هنا بقوله عز وجل .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ .

فالجهل سبب الإعراض :

وإذن . . فعلم المدعو أولا . . وقبل أن تقول له : افعل . ولا تفعل .

إن الداعية كهذا «الفلاح» :

فهو ينتقى البذور السليمة . . ثم يضعها فى الأرض التى أعدها للزراعة . . ثم تبدأ مهمته الثانية وهى : حماية النبات من هجمة الآفات . .

ولو أنه تكاسل . . لما حصد . . وكذلك نحن :

فمهمتنا تنحصر فى أمرين :

الطاعة : ثم حمايتها من التآكل . والداعية : حليم متسع الصدر

وقور : وليس هو بالثائر الغضوب . أو المتحمس العجول .

له حس بصير بعواقب الأمور . . يقوم مقام العين الباصرة .

لا ليصير «ميناء» هادئا واسعا :

والناس بين يديه زوارق صغيرة تترنح !

بل ليصير نهرا : جوده يروى كل من ورد . .

وإذا كان فى هيبته بعيدا كالشمس فى كبد السماء. . فقد كان بيننا تفاعل وتواصل .

إنه داعية متميز : كالماء ـ مع لينه ـ ينحت الصخر مع صلابته : هو أخفت صوتا . . لكنه أعلى حجة . وهكذا صاحب البرهان الساطع دائما : يعلو بحجته . . ويضاعف من هدوئه : إذا لقى مسترشدا . . كان هادئا . . وإن رأى مستكبرا . . بدا معتزا شامخا . . منطقه : فيه امتلاء وارتواء . .

فى أمة هى حزب واحد . . ورأى وحيد !

ثم إنه : كالنحلة :

وقد سئل الإمام على رضى الله عنه عن وجه الشبه هنا ؟ فقال :

إذا وقعت «النحلة» على غصن شجرة : لم تكسره . ولم تفسده .

فكذلك : إذا نهيت عاصيا . . فلا تكسره ولا تفسده . .

إنه لا يتحمل الضغط العالى . . وإنما هو هش ضعيف بمعصيته . . فرفقا بالقوارير .

ثم إن الداعية نور:

وإذا كانت الملائكة خلقت من النور : فهم بحكم جبلتهم :

لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون : يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

ومع ذلك . . فهم يتمنون أحيانا لو أنهم نزلوا إلى الأرض . . على ما فيها من تلوث . . لما يعلمون من عظيم الجزاء على أعمال فى الأرض . ومنها :

سقى العطشان : إطفاءً لنار عطشه . وإصلاح ذات البين : إطفاء لوقدة الخلاف بين الناس : وتلك وظيفة الدعاة والتى يتمناها ملائكة أبرار .

ومنهم الشيخ الشعراوى : وهو الداعية الناجح : والذى كان واضح الفكرة . بسيط العرض مركزا . سريع الإيقاع . . فرّارا بالمستمع من الملل .

ومع فكره هذا المتميز . . فله كذلك أخلاقه المتميزة : لم يكن فى دعوته «طوفانا» يغرق . . أو بركانا يحرق . .

فإذا رحل فإننا نبكيه مرتين :

١ ـ مرة . . لأنه رحل .

٢ ـ ومرة . . على حالنا من بعده .

ولئن كنا فقدناه . . فعزاؤنا : أن أمتنا مازالت بعون الله صالحة لتقديم أمثاله .

وحتى يظل رحم الأمة يقذف بأمثاله .فلابد من دعاة يتسلحون بما يلى : إضافة إلى ما سبق :

إجمالا :

١ ـ الثقة الكاملة بالكلمة . . وأنها قادرة على فعل مالا يقدر عليه السيف .

٢ ـ نعترف «بالآخر» . . وإن كان هو لا يعترف بنا !

٣ ـ نحاول أن ندخله من باب الترغيب وليس الترهيب . .

ذاكرين قوله ﷺ : « يسرا . . ولا تعسرا وبشرا . . ولا تنفرا» .

ولقد غضب ﷺ يوم أطال «معاذ» رضى الله عنه فى الصلاة قائلا له : « أفتان أنت يامعاذ . .» وكررها .

الولاء للدعـــوة

قال «العز» [ينبغى لكل عـالم . . إذا ذل الحق . وأخمل الصواب . . أن يبذل جهده فى نصرهما . وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما . .

وإن عز الحق . . . فظهر الصواب . . أن يستظل بظلهما .

وأن يكتفى باليسير من رشاش غيرهما . .

قليل منك ينفعنى . . ولكن قليلك . . لا يقال له : قليل

والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين] .

إن الداعية المؤمن :

طاقته : إيمانه .

وسلاحه : الكلمة الطيبة المؤمنة والتى تستمد من العقيدة قوتها ومضاءها .

أما غيره :

فبعضهم كالملاح التائه . . لا يعرف لنفسه هدفا .

وبعضهم له هدف :

ولكنه كطائرة محملة بالصواريخ : ولكن لا رشاء هناك . . ولا دلاء . . . وإنما عويل وبكاء !

إنه لا يملك طاقة الدفع . . وإنما الذى يملكه هو :

دموع التماسيح

تتحدر من عين داعية كسيح !

دعاة على مستوى المسؤولية

لقد حاول «الحاكم» المستبد أن يأكل «العالم الداعية » من لحم الخنزير . . وإلا قتله ! ورفض العالم إلحاح الحاكم . . ثم دفع حياته ثمنا لمبدئه ! وحيهلا بهذا الصمود فى وجه حاكم يفرض عليك الحرام . .

وإذن : فالفارق هائل بين هذا الحاكم الظالم . وحاكم : لا يفرض عليك الحرام ولا يمنعك من الحلال !؟

إن الداعية هنا لم يستسلم للضغط وإن كان عاليا : ذلك بأن الاستسلام ينتج :

أ ـ رعبا . وعقداً نفسية

ب ـ ثم يتحول إلى طاغية يظلم مَنْ دونه . .

أما التغلب على الخوف . . فمن ثمراته :

الصفاء . .

والوضوح

والمضى قدما

لكن هذا الصفاء . . وذاك الوضوح قد يحمل على الغرور .

وإذن . . فقد وجب التحكم فى هذه القوى حتى لا تنفلت .

الأخلاق أهم من العلم

ذلك بأن الخلُق ينتفع به كل الناس .. مهما كان المذهب ..

ولكن العلوم : تتعدد :

فلا ينتفع المرء إلا بمن يماثله فى علومه .ومعارفه .

والفضل : قيمته فيه .. لا فيما يقال عنه مهما كان القائلون .

الأخلاق فى الإسلام :

أ ـ مطلقة : غيـر ملونة .. فلا نكيل بها بكيلين إنها ليـست عنصرية ! ولكنها إنسانية .

ب ـ دائمة : نهر يتدفق بالعطاء .. لا يتـوقف لأى سبب .. وإن كنت تتعامل حتى مع أعدى أعدائك .

جـ ـ غير مقيدة بمنفعة .. وإنما هى لله تعالى : يقول عز وجل :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا .. ﴾ [الإنسان: ٨] .

والأسير أجنبى .. بل «محارب» غير مسلم ومع ذلك نكرمه .

والأصل فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ .

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ [القلم : ١، ٦].

ندخل ساحة النبوة على استحياء .. فنحن بشر ضعاف .. كما يقول العقاد عن الإنسان :

فيه من الحكمة والغباء وفيه من يـأس ومن رجاء وفيه من حب ومن بغضاء وفيه من صمت ومن ضوضاء صورة محياى لعين الرائى

وإحـساسـنا بهـذا الضـعـف يحـملنا علـى أن نطـرق بـابه فى ذكـراه .. غيـر

مادحين . . بل داعين أن يخلصنا الله من عذاباتنا . . بما ننشق من عبير ذكراه . . على ما قيل :

ما جئت بابك ما دحا . . بل داعيا . .

أخلاقنا إذن خليط .

أما هو ﷺ فعلى ما يقول سبحانه : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ .

لقد جمع الله تعالى فيه كل ما تفرق فى البشر جميعا من خصال الخير .

ولاحظ من بلاغة الآية الكريمة :

التأكيد : إن . . واللام وعلى فالخلق فطرة فيه : طبع . . لا تطبع .

ثم خطابه ﷺ . وتنكير «خلق» لتذهب النفس فيه كل مذهب . .

ثم هو عظيم يشهد به العظيم سبحانه .

سؤال :

هل جاءت الآية الكريمة ردا على تهمة الجنون ؟

ونقول :

أولا : تهمة الجنون ساقطة . . فالقضية محسومة ابتداء : من وجهة نظرهم هم . . فالله تعالى يقول : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] .

فهو «صاحبكم» الذى تعرفون من ملازمتكم له : أنه غير مجنون . .

وأنتم تعترفون بأنه صادق وأمين . . فكيف يكون الصادق الأمين مجنونا ومعناهما ينفى ذلك ؟

ولكن الخلق جاء :

لإبراز العامل الحاسم فى النصر . .

وهو الأخلاق : القدوة الحسنة بدليل فاء الفصيحة : أو التفريع :

﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾ والمعنى أنك بهذه الأخلاق . . تدخل المعركة

والمستقبل لك : بهذا الخلق العظيم . . والذى هو السلاح المضاء ولن يكون للعدد ولا للعدة أهمية كما هى فى ذهن المشركين .

وثانيا : تهمة الجنون واقعة بين أمرين : نعمة الإيمان . . والأجر الموصول . .

وكما أنه لا يغلب «عسر» «يسرين» . . فكذلك هنا : لا بقاء لتهمة الجنون بين هذين المبدأين ؟

من دروس الدعوة

١ ـ الدخول إلى ساحة المعركة بالأخلاق أولا . . فهى العامل الحاسم فى تحقيق النصر .

٢ ـ الأمانة فى عرض وجهة نظر الخصم مهما كان عوارها : فقد عرض القرآن تهمة الجنون ثم كرّ عليها . . فأبطلها . .

٣ ـ تفاهة الخصم الذى يتهم أعقل العقلاء بالجنون :وهكذا يصنع الحقد بأهله .

من أسباب قبول النصيحة

١ ـ صدورها من قلب داعية : محب لك . مشفق عليك يدعوك لما يحقق مصلحتك . .

وعلى الداعية أن يحوز هذه المفاتيح . فى جو من التواضع يحّرض الآخرين على قبول نصيحته ليكون على ما قيل :

يغضى حياء . ويُغضى من مهابته　　　فلا يكلم إلا حين يبتسم !

الداعية شخصية مستقلة

سيد الحديث . . نعم

سيد الحوار . . لا

مع تقدير التلميذ لأستاذه كرائد من رواد المتحدثين : ينهل من علمه . .ويرتوى من عينه الثرة بالخير . . إلا أنه لا يسلم قياده إليه فيما يذهب إليه من رأى . . وإنما لأنه يختلف معه فى زاوية الرؤية. . فلابد أن تختلف الآراء . . بين التلميذ. . والأستاذ . . الأستاذ : الذى يسعده أنه إذا مات . . فسوف يحمل الراية من بعده رجل جدير بتحمل المسؤولية من بعد رحيل أستاذه . .

يقول الأستاذ أنيس موضحا صلته وصلة زميل له برائده الأستاذ العقاد :

[كنا معا : لا نرى سخافة شوقى .ولا ركاكة مصطفى الرافعى ـ كما هو رأى العقاد ـ أى : أننا كنا نختلف تماما مع الأستاذ فى كثير من فلسفته الأساسية :

فى الشعر .والبلاغة.وعلم الجمال .

أى : أننا كفرنا به . . وفى مواجهته !!

ودون قدرة على إقناعه .

أو دون دليل نسوقه . . ونواجه به ذلك الجيش الجرار من الحجج والبراهين التى سوف يطلقها الأستاذ علينا . .

وقد حدث ذلك . . وكان هولا عظيما] ا .هـ .

وبهذه النظرة المستقلة . . تكون الشخصية المستقلة . .

المرشحة لحمل الراية من بعد رحيل الرواد . . أما المستسلمون لفكر واحد . . فهم أصفار على الشمال . . لا قيمة لهم بعد غياب الواحد الصحيح !] ا.هـ .

يقول مؤرخ أمريكى معاصر :

[إننا لو أخذنا من التاريخ شاهدا ودليلا . فإن أى تغيير حقيقى يطرأ على المجتمعات الإسلامية . .لن يتم إلا بواسطة هؤلاء الذين يقاومون تحديات الغرب . . وليس بمعرفة هؤلاء الذين يتعاونون مع الحكومات الغربية :

إن المجتمعات تتغير فى معظم الأحيان . . بهذه المواجهات الحادة . . وليس بالنصائح المفروضة من الخارج] ا . هـ .

الأصل القرآنى :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] .

خذ طريقك . . صامدا فوق معترك الأمواج .وصور الضلال .

على الأقل : تحديا لأعدائنا . .الذين يريدون «حبس» عقيدتنا فى قلوبنا . . حتى لا يكون لها أثر فى واقعنا . .

ألا وإنه لمن خطل الفكر . وخطأ الاتجاه أن نفعل ما يسر أعداءنا . .

حين لا نوظف هذه العقيدة . .لعمارة الحياة إنهم يريدون أن ينقسم المسلم على اثنين :

قسم للدنيا ، وقسم للآخرة

فلنكن لهما معا حتى نحقق غاياتنا :

فإنه لا ثمرة . . بلا جهد . . ولا انتصار . . بلا جهاد .

من مظاهر الحكمة

المرونة

لك فى الحياة هدف . . جميل فلتبذل من أجله مجهودا . . وإلا لن تصل . . ولا تحاول أن تصل للهدف بضربة واحدة ، لأن ذلك يجافى معركة الحياة . . وسوف تفشل . . كما فشل ذلك الثورى :

ليست المرونة : ضعفا . . ولا انهزاما ولكنها :

ثبات على المبدأ :

وحتى يبقى دائما هذا المبدأ . . نغير الخطط والوسائل كمثل «جاليليو» :

الذى فضل أن يتراجع ظاهريا عن أفكاره فعاش حتى سطر كل أفكاره بعدما لعنه تلاميذه .

وكان يقول : إذا كان الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين فإذا كان فى هذا الطريق عوارض فأقصر طريق هو المنحنى : أى : المرونة .

إن الحياة أثمن من أن نبددها فى المغامرات . . وبها نفاجئ أعداءنا بالنصر عليهم وهم غافلون مستهترون !

ومن هؤلاء المنتصرين : سيدنا موسى عليه السلام : وذلك قوله عز وجل :

﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾ [طه : ٤٤] .

يقول الشعراوى : «لينا» حتى لا يعيره بأنه هو الذى رباه . لكن : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فالأمر هو أمر عبادة لله وليست تعييرا .

قدر أمتنا

إنها قد تغلب على أمرها يوما . . ولكنها لا تستخزى أبدا :

إنها جذوة مدفونة فى التراب . . كلما هبت عليها رياح العزة : توقدت . .

يجمعها قانون الأخوة :

هذا القانون . . الذى لا ينسخه قانون : لا ينسخه قانون القومية ولا قانون الحزبية :

إن الإسلام حق بين باطلين : «القومية» : بشرية ضيقة . «والحزبية» متعصبة أنانية .


الفصل : الثالث
قيم :
ندعو الناس إليها

من دنيا الأغيار
إلى ساحة الأنوار

كان الرجل مسرفًا على نفسه . ويريد أن يعود العبد الآبق إلى سيده . .

وبدأ يتسمع نفسه اللوامة تناقشه الحساب . .ليتخذ قرار الحج . . مفتتحا به عهدا جديدا :

لقد سمع نفسه تقول :

[حاضر بجثته . غائب بهمته . .ناظر فى عطفه . .متغافل عن سخفه . .

عاشق لعاجلته .ناس آجلته . .

(الذائق سمه بيده .الساهى بيومه عن غده . .

تغالط نفسك. .وتستخدم عقلك لشهوتك . .وتعفر خدك للذتك .

وتجزع من فوت أيسر حاجة لبدنك. .ولا تبالى أن تكون ممقوتا عند ربك :

الذى خلقك فسواك . وكيفك وآواك. ومنحك وحباك . وحفظك ورعاك .

وعلمك وهداك .

فهل هذا من العقل؟ تتبجح به بين أصدقائك وأعدائك ؟

أهذا من الجنس الذى تعامل به خاصتك وعامتك ؟!

أهذا من الحزم الذى تدخره لدهرك ؟!

أما ترى أنياب المنايا بارزة متتابعة ؟!

أما ترى أحداث الليالى متشايعة ؟

أما ترى الغير محدقة ؟؟ والآفات متوالية ؟؟

إنك عمى . إنـك صمم : إنك جنون . إنك مسلوب الإخلاص فى العبادة. قليل النشاط فى الاقتداء بالسادة :

تتيقظ فى أمور الحياة الدنيا . وتحلم بأحوال الدار الأخرى . .

وليس هذا من رأى أولى النهى ولا من عادة ذوى الورع والتقى]

وبعد هذا العتاب أو هذا الحساب : قرر الرجل أن يحج : أن يخرج من ظلمة النفس إلى أنوار القدس من ذل المعصية . . إلى عز الطاعة . .

من دنيا الطمع .. إلى بستان الورع : من دنيا الأغيار .. إلى ساحة الأنوار !

ولأن النقلة هائلة . . ولأن الشقة بعيدة . . كان لابد من اللجأ إلى الله تعالى . . فهو وحده القادر سبحانه على التوفيق للعمل . . وتحقيق الأمل : وكان هذا الدعاء :

[اللهم : إنك أمرتنى . فقصرت . .

ونهيتنى . . فعصيت

وأنعمت على . . فأفضلت . .

فإن عفوت . . فقد مننت

وإن عاقبت . . فما ظلمت]

[إلهى :

معصيتك . . نادتنى بالطاعة . .

وطاعتك .. نادتنى بالمعصية :

ففى أيهما أخافك ؟ وفى أيهما أرجوك ؟

إن قلت بالمعصية . . قابلتنى بفضلك . . فلم تدع لى رجاء . .

وإن قلت بالطاعة . . ناديتنى بعدلك . . فلم تدع لى رجاء . .

فليت شعرى : كيف أرى إحسانى مع إحسانك . . أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك ؟!

وربما حاولت نفسه الأمارة أن تستيقظ من سباتها . . فلعله يعدل عن قراره لكنه

يعاجلها بقوله :

قال لى صاحبى : فصبر قليل تجد الصبر للخلاص سبيلا
غاض ذا الماء من غديرك .. لكن سوف يجرى كعهده سلسبيلا
وتصير الأمور خيرا وأبقى من عهود قد أمتعتك طويلا
وأجبت الصديق : حسبك .. قل لى أى نفع للماء يشفى الغليلا
سمكى اليوم بالجفاف قتيل هل سيجديه ذا العباب فتيلا ؟!

فى الإحرام

كان مشهد المحرمين بهيجا لافتا للنظر :

فالوزير .. والخفير .. والغنى والفقير .. سواء : لا فرق إلا بما يعمر القلب من نوايا الخير ..

وهكذا .. تذوب الفوارق .. وتتحد القلوب .. عندما ينهار حائط الغرور بما يملك الإنسان من زهرة الدنيا .. ليكون الولاء للحق وحده ..

ويذكر الرجل هذين الصديقين .. عندما تجبر أحدهما على الآخر .. اعتزازا بمنصبه .. واستهانة بصاحبه ..

فقال عنه المظلوم : نسى الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد .

وكسا الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد

يا أخى : لا تمل بوجهك عنى : ما أنا فحمة .. ولا أنت فرقد

قمر واحد يطل علينا وعلى الكوخ والبناء الموطد ...

أجميل ؟! ما أنت أبهى من الوردة ذات الشذى ولا أنت أجود أقوى ؟ إذن .. مر الليل إذ يغشاك .. والنوم عن جفونك يرتد

وامنع الشيب أن يلم بفوديك .. ومر : تلبث النضارة فى الخد أيها الطين : لست أسمى وأنقى من تراب تدوس أو تتوسد

سدت أم لم تسد فما أنت إلا حيوان مسير مستعبد ..

وإذ تطفح هذه الأبيات بمعانـى التشفى والانتقام . . فـإن الإحرام جامع للقلوب على كلمـة سواء : بما يذكر من أحـوال الآخرة وأهوالهـا وبما يعكسه «البـياض» من صفاء يحكى صفاء نفوس ينتظمها إحساس واحد صادق بأنها فى يوم الحشر :

وهنا الفارق العظيم بين حج وحج :

لقد حج الهنود . وحج المصريون . وحج اليونانيون . .

ولكنهم حجوا إلى «الهياكل المقدسة» .

وإذن . . فلم يكن ذلك الحج هو النمـوذج الصـحيح للحج كـما أراده الله عـز وجل أن يكون : إعدادا للفرد . وصياغة للأمة .

فلما جاء الإسلام الحنيـف .. ارتفع بفكرة الحج هذه.. لتكون فرضا على كل من استطاع إليه سبيلا :

فيولى وجهه إلى مكة البلد الحرام : والبيت الحرام مع الملايين الطائرة على أجنحة الأشواق . . استجابة للنداء العلوى الخالد :

﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾

اللهم : إنى أستـودعك نفسى .ودينى . ومالى .وأهلى . . وكل نعمـة أنعمت بها على .

فاجعلنى اللهم فى كنفك .و أمنك . وكفايتك . وكلاءتك . وحفظك. ورعايتك. ووديعتك :

يامن لا تضيع ودائعه . ولا يخيب سائله . ولا ينفدُ ما عنده .

اللهم : اشغلنا بذكرك . وأعذنا من سخطك .

وأولجنا إلى عفوك : فقد ضن خلقك برزقك .

فـلا تشـغـلنا ـ اللهم ـ بما عنـدهـم . . عن طلب مـا عندك ، وآتـنا من الدنيـا القناعة . .

وإن كان كثيرها يسخطك. . فلا خير فيما يسخطك !

سبحانك اللهم :

إذا ذكرت خطيئتى . . ضاقت على الأرض بما رحبت . وإذا ذكرت عفوك . . ارتد إلى روحى :

سبحانك إلهى :

أتيت أطباء عبادك ليداووا لى خطيئتى : فكلهم عليك يدلنى ! .

حول البيت :

وحول البيت . . كانت العبرات . .

العبرات التى يغسل الحاج بها أدران نفسه الأمارة بالسوء . .

ويقع الرجل تحت وطأة شلال من الشوق العارم فينشد :

أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه .. وهل بعد الطواف تدايد

وهذا محب قاده الشوق والهدى ... على حاله : لم يبله الملوان

وألثم منه الركن أطلب برد ما ... فوالله ما أزداد إلا صبابة

بقلبى.. من شوق ومن هيمان ... فياجنة المأوى . وياغاية المنى

ولا القلب : إلا كثرة الخفقان ... أبت غلبات الشوق إلا تقربا

ويامنيتى من دون كل أمان ... وما كان صدى عنك صد ملالة

إليك .. فما لى بالبعاد يدان ... دعوت أطيارى عنك بعدك والبكا

ولى شاهد من مقلتى ولسانى ... وقد زعموا: أن المحب إذا نأى

فلبى البكا.. والصبر عنك عصانى ... ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا

سيبلى هواه بعد طول زمان ... بلى : إنه يبلى التصبر والهوى

دواء الهوى فى الناس كل أوان ... أتاك على بعد المزور .. ولو ونت

بغير زمام قائد عنان ... مطيته .. جاءت به القدمان

وعبر الله عز وجل عن الكعبة «بالبيت» . . فكانت بيتا . ولم تكن «منزلا» فالإنسان فى المنزل ضيف : راحل غدا : أو بعد غد . .

أما البيت : فهو : مقام . واستقرار . وأمن وشرف . .

وسمى الله تعالى «الكعبة» شرفها الله : البيت الحرام .

وبيت العرب : شرفها . .

وفلان : [بيت قومه] أى : شريفهم .

وبات الرجل : إذا سهر الليل كله فى طاعة الله .

ثم إن البيت : أهل الرجل . . ومتاعه كذلك . .

ومن أجل ذلك كانت الكعبة «قياما» . . وللناس جميعا . .

لقد أراد الله عز وجل للكعبة ـ بيت الله الحرام : أن تكون مثابة أمن وسلام : تتيم الناس . وتقيهم الخوف والفزع . .

كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن فى الزمان : كالكعبة : جعلها الله منطقة أمن فى المكان . .

ولقد جعل الله المبيت مثابة للناس .. كل الناس .. وأمنا :

[حتى لقد امتن الله تعالى به على المشركين أنفسهم إذ كان بيت الله مثابة لهم وأمنا . والناس من حولهم يتخطفون . وهم فيه . . وبه . . آمنون] .

[إنها منطقة السلام والسماحة . فى ذلك المصطرع . حتى ليتحرج المحرم أن يمد يده إلى الطير والحيوان . وهما ـ فى غير هذه المنطقة ـ حل للإنسان ـ ولكنهما هنا فى المثابة الآمنة : فى الفترة الآمنة . فى النفس الآمنة .

إنها منطقة المرانة والتدريب للنفس البشرية ؛ لتصفو . وترق . وترف . فتتصل بالملأ الأعلى . وتتهيأ للتعامل مع الملأ الأعلى] الأمر الذى يفرض علينا التخلى عن نوازع الانتقام لنعيش فى أمان وسلام ـ تتمكن به الدعوة فى جو لا تتنامى فروعها إلا فيه

ولا يمتد ظلها إلا فى رحابه .

ونذكر هنا قوله عز وجل :

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥]

قال الجزائرى : الباء زائدة

ونقول والله تعالى أعلم :

لا زيادة هنا ، إن الإرادة تمسك بسلاح الإلحاد .. راغبة فى قضاء وطرما ، فالباء للآلة .. والله أعلم .

ونستأنس فى ذلك بقوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٨٣] بمعنى أنهم اتخذوه هو نفسه إذاعة ؟

من دروس العفو

وإذا قبل الله عز وجل وهو الخالق .. إذا قبل توبة التائب .. فأحرى بالمخلوق أن يقبل توبة مخلوق مثله ..

ويكفى مجىء المذنب معتذرا .. على ما فى الاعتذار من حرج ..

وفى هذا المعنى يقول المتنبى :

وإن كان ذنبى كل ذنب ..فإنه محا الذنب كل المحو من جاء نائبا

إن الاعتراف بالذنب ثقيل على النفس ..وإذن فمن اعترف بذنبه .. وعلى الملأ معلنا أن لا عذر له فيما اقترف ..فقد استحق العفو جبراً لخاطره الكسير .. وتحية له على شجاعته الأدبية .. فى زمان قد تأخذنا فيه العزة بالإثم ..فلا نعترف بما اقترفت أيدينا :

كتب « الحسن بن وهب » إلى «محمد بن عبد الملك الزيات» فى هذا المعنى يتودد إليه :

أبا جعفر : ما أحسن العفو كله ولا سيما عن قائل : ليس لى عذر !

ومن صور التودد التى تكسر عزيمة الثأر والانتقام قول الشاعر :

فهبنى مسيئا كالذى قلت .. ظالما فعفو جميل ..كى يكون لك الفضل

فإن لم أكن للعفو عندك للذى أتيت به أهلا .. فأنت له أهل

وإذ يستمسك المظلوم بحقه فى الانتقام مع إلحاح الجانى فى الاعتذار . .فقد تبادلا المواقع . .وصار المظلوم ظالما . . وصار من لم يقبل العذر . .غير معذور !!

ومن ذلك قول الشاعر :

عزيرى من طول البكا لوعة الأسى وليس لمن لم يقبل العذر من عذر

بل صار المظلوم ظالما :

إذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب !!

أما بعد :

فسيظل البيت مثابة للناس وأمنا . .وكل محاولة للنيل منه محكوم عليها بالفشل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل : ١] .

من منافع الحج

فى العمرة قد تدخل مكة وحيدا . . ثم تخرج وحيدا . .

أما فى الحج : فلابد من زمان ومكان وشعائر ثم رفقة تتحقق بها الوحدة . .

الوحدة : واقعا لا نظرية . .

وإذا اختلفت اللغات . .والعادات . .والطبائع فلم يمنع ذلك من الوحدة . .

نخرج من جلودنا : من قومياتنا الضيقة .

لنكون كيانا واحدا يفرض هيبته على الآخرين من خصومنا .

وسوف «يشهدون» هذه المنافع : يشاهدونها . .

لكنها لن تتحقق بمجرد شهودها . .وإنما لابد من الوحدة لتحصيلها . . من حيث

كانت المبادرات الفردية عاجزة عن تحقيقها .

ومن المنافع : رمى الجمار :

إن هذه الشعيرة تعنى :

أ ـ اكتشافنا عدونا المبين . . وهو الشيطان الرجيم .

ب ـ ثم اتفاقنا على رميه : على رفض خططه الرامية إلى التحريش بيننا . . لنوفر الطاقة التى نبددها فى خلافاتنا لنسدد بها ضربة إليه وحده ! . .

ثم قبل ذلك : الوقوف بعرفة : وكيف يشعر المسلم أنه ليس وحده فى هذه الدنيا . . وإنما هو جزء من أمة ضخمة . . يغيظ الله بها الأعداء . . وإنها لجيش لا يقهر . .

فإذا جاء الطواف : ترقى ذلك الإحساس . . ليشعر المسلم بأنه جزء من «الكون» : وكيف ؟

إن قانون «كبلر» يقول : إذا طاف النجم حول الشمس . . أسرع كلما اقترب منها حتى لا يحترق . .

وهكذا نحن . . على الأرض : نتجه إلى الكعبة فى وقار .

حتى إذا طفنا حولها زادت حركتنا !! فنحن جزء من الكون الكبير .

فإذا تأملنا قوله عز وجل ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٨] ربما جاز لنا أن نقول : إن المنافع «مشهودة لنا : إنها بين أيدينا . . وليست فى أيدينا . .

وعلينا أن نستصحب هذه الشعائر فى عودتنا كما ولدتنا أمهاتنا : صُحُفًا بيضاء ليكون السؤال . . لاعن المنافع الدنيوية . فهى محققة ضمن هذه الشعائر الدينية . . وإنما السؤال عن : متى يعى المسلمون هذه الدروس . . ليتخذوا منها منطلقا إلى عصر جديد . . مجيد . .

ومن المنافع : [رجع كيوم ولدته أمه]

بمعنى إعادة صياغة الإنسان من جديد . . ليبدأ الرحلة إلى ربه طاهرا . . وبلا

قيود .

ومن المنافع : الالتزام :

بمعنى أن شعائر الحج : ليس لـلنفس فيها مدخل . ولا للعـقل فى فهم أسرارها حيلة . . وإنما هو مجرد الطاعة ؛ لأن الآمر هو الأحق بها :

وذلك يعنى :

التدريب على مخالفة الهوى ليكون الولاء لله عز وجل وحده . . وبلا تساؤل :

لماذا ؟ وكيف ؟

ومن المنافع: قيمة التكافل الاجتماعى:

على هذه الأرض . . وفى المدينة المنورة . . كانت هناك قيم تأسست بها حضارة واستطال بناء . .

ومن هذه القيم : التكافل الاجتماعى :

حول المدينة كان يقيم الأعراب :

وذات يوم أصابهم قحط مبيد شديد . فجاعوا . ولم يجدوا إلا المدينة مهربًا لهم . . يلتمسون فيها ما يسد جوعتهم من لحوم الأضاحى . .

ولقد كـان من عادة أهل المديـنة يومئذ : أنـهم يدخرون من لحـوم الأضاحى . يدخرون منها : ما يكفيهم . ويكفى أولادهم مدة طويلة .

[وكان ما يدخرونه يسمى بالقديد]

ولما رأى ﷺ ما أصاب الأعراب من الجوع أذن فى الناس قائلا :

« لا يحل لامرئ أن يدخر من لحوم الأضاحى فوق ثلاثة أيام »

ولقد استـجاب الناس استجابة فورية : إلى حـد أنه حدث أن كل من كان عنده فضـل من هذه اللحوم قـدمه لهـؤلاء المحتـاجين من الأعراب . ذلك بأن بيـع لحوم الأضاحى ممنوع شرعا :

ثم مضى هذا العام .. وفى العام القابل سأل واحد من الصحابة النبى ﷺ قائلا :

يا رسول الله : كنت نهيتنا العام الماضى عن الادخار . فهل نفعل ذلك هذا العام؟ فقال ﷺ :

« كلوا . وادخروا . فإنى كنت نهيتكم لإنقاذ الوافدين عليكم » (١) .

وعلى هذا النهج سار سلفنا الصالح : ومنهم الإمام على رضى الله عنه .

فقد نهى فى خلافته عن ادخار لحوم الأضاحى . فوق ثلاث .

قال الحافظ ابن حجر : « وجزم ابن حزم بأن عليا رضى الله عنه قال ذلك فى وقت كان الناس فى مجاعة .

وجزم بذلك أيضا الشافعى فى «الرسالة فى [باب العلل] .

وهكذا : كان الناس قبل الإسلام .. ثم صاروا من بعده صنفا آخر .. بقيادته ﷺ :

لقد كان رحمة مهداة . ونعمة مسداة .

وصدق الله العظيم إذ يقول عز وجل :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/ ١٢٨] .

وصدق الشاعر القائل مذكرا بنعمته :

أتيت والناس فوضى : لا تمر بهم إلا على صنم .. قد هام فى صنم

والأرض مملوءة جورا مسخرة لكل طاغية فى الأرض محتكم

مسيطر الفرس يبغى فى رعيته وقيصر الروم من كبر أصمُّ عمى

يعذبان عباد الله فى شبه ويذبحان كما ضحيت بالغنم

---

(١) مسند الإمام أحمد / ٢٣١١٥ .

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم   كالليث بالبهم أو كالحوت بالبَلَم [١]

واليوم : نذكرك يا رسول الله .. ونذكر الناس بأفضالك فى صحبة شوق : يحس . ولا يوصف ـ كشوق هذا الذى قال :

وقوفى بأكناف العقيق : عقوق   إذا لم أرد والدمع فيه عقيق

وإذ لم أمت شوقا إلى ساكن الحمى   فما أنا فيما أدعيه صدوق

أيا ربع ليلى : ما المحبون فى الهوى   سواء .. ولا كل الشراب رحيق

ولا كل من يلقاك يلقاك قلبه   ولا كل من يسعى إليك مشوق

تكاثرت الدعوى على الحب : فاستوى   أسير صبابات الهوى وطليق

---

(١) البلم : داء يأخذ الناقة فى رحمها فتضيق لذلك .

هذا هو السلاح
فمتى نبدأ الجهاد ؟!

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج : ٢٧ـ ٢٨]

كان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ كلما وافت أشهر الحج . . كان يفاضل بين العبادات، وقبل أن يشرع فى الحج .

فلما حج.. فضل الحج على سائر العبادات .. لما شاهد من تلك المنافع ..أو تلك الخصائص :

وقد انطلق ـ رحمه الله ـ تعالى ـ من منطوق الآية الكريمة ،والتى جاء لفظ المنافع فيها منكرا . . شاهداً بتنكيرها على أنها منافع مختصة بهذه العبادة بالذات ،فهى كثيرة وافرة لا يحدها حد، ولا يحصيها عد، ثم هى متنوعة : دينية، ودنيوية. . على نحو لا يوجد فى غيرها من العبادات .

حتى التجارة « وإنها جائزة للحاج من غير كراهة،إذا لم تكن هى المقصود من سفره» .

ثم هى منافع «لهم» : للناس . . وليست للمعبود الذى لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين .

المنافع .. فى منطق المعاصرين

يقول أ.د. محمد رجب البيومى (١) « وما دار فى خلد الأستاذ محمد فريد وجدى، قد دار فى خلد المصلح الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبى منذ مائة عام، حيث فكر تفكيرا طويلا فى اجتماع المسلمين سنويا بهذا المكان الطاهر، ورأى أن

---

(١) مجلة الأزهر، عدد شهر ذى القعدة ١٤٢٥ هـ .

الاقتصار على الشعائر الدينية وحدها،لا يفى بالمقصود من اجتماع أمة من كل بقاع الأرض فى مكان خاص ، لتقتصر على الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، ورمى الجمار وحدها دون أن تدرك معانى الأخوة الإسلامية التى تجرى مجرى الدم فى عروق بنى الإسلام على اختلاف ألسنتهم وألوانهم » ا.هـ .

وعرض القضية على هذا النحو يساوى قول بعض المعاصرين : «إن العبادات لا تكفى» .

وقد ينتهزها عدو مناور مدخلا للطعن فى الإسلام.. من حيث إن ما شرع من عبادات غير كاف فى إصلاح الحياة والأحياء . . مع أن الحق هو : أن الله ـ عز وجل ـ كاف عبده بهذه العبادات . .ولكن سبب تأخرنا أننا لم نرتفع إلى مستواها العالى ، لم نرتب على المقدمات نتائجها . . لقد شهد الكافرون بربوبيته ـ عز وجل ـ موصوفا بصفات الجمال والجلال.. ومع ذلك فلم يرتبوا على هذه المقدمة نتيجتها وهى : إفراده ـ سبحانه وتعالى بالعبادة . .وكذلك نحن فالعبادات كافية فى إصلاح الحياة ولكن . . أين المصلحون ؟

أين المصلحون الذين يصلون . .فينتهون عن الفحشاء والمنكر ؟وأين الذين يصومون . . فيتقون ؟

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

يوم عرفة :

إن الأمم اليوم تحتفل بأعيادها . . وتقيم أقواس النصر ابتهاجا بنصرها على عدوها . . فكيف لا يكون «يوم عرفة» عيد الأعياد بما غفر الله ـ تعالى ـ لنا . . حتى عدنا كيوم ولدتنا أمهاتنا.. مراغمة للشيطان الذى يحثو على رأسه التراب ؟.

إحساس «الحاج» بأن «الحج عرفة» وأن الله يقبل فيه التوبة.. ويلعن إبليس .هذا الإحساس فرصة يراجع فيها الحاج سيئاته: لتكون له . . وقفة مع النفس.. يبدأ بعدها حياة جديدة خالية من عقدة الذنب .

ثم إنك مأمور بالحضور فى عرفات . .ثم منها إلى «مزدلفة» ثم : إلى منى،

ثم : ارم هذا الجمر وقبل هذا الحجر . .

ويعنى ذلك :

التدريب على الالتزام. . ثم إدراك أن أعضاءك تتحرك. . ولكن لا بأمرك . .بل بأمر خالقها ـ عز وجل ـ وسوف تشهد عليك فى الآخرة . . فاحذرها من الآن !!

من بركات عرفات :

الحجاج : يفطرون «يوم عرفة» ثم يوم العيد ثم الحادى عشر، والثانى عشر، فهم عمال يؤتون أجرهم طعاما وراحة وقبل أن يجف عرقهم .

لقد ذابت الحضارات الفرعونية والآشورية، فى خضم الحضارة العربية الإسلامية، ولكن حضارة الإسلام عصية على الذوبان بما تملك من عناصر البقاء : فهى مستمدة من مصدر واحد هو :

١ ـ القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٢ ـ ولها غاية واحدة هى : الكعبة .

وبالحج : سلحها الله ـ عز وجل ـ «بمنافع» هى فى الواقع أسلحة النصر. . فمتى تبدأ الجهاد بهذا السلاح ؟!! .

لابد وقبل «الوقفة» لابد من « وقفة مع النفس » :لقد وقف غيرنا مع نفسه: فجعل قوته فوق حقنا .

استدراك:

ولكننا لا ننسى للعربى ميزة ينبغى التنويه بها وهى : نخوة العروبة . وتأمل موقف المشركين وهم يحيطون ببيته ـ ﷺ ـ ليلة الهجرة !

فلقد كان بإمكانهم اقتحام البيت وفى حركة انتحارية . . ولكنهم أحاطوا بالبيت ولم يقتحموه . . مدفوعين بنخوة العروبة التى فرضت عليهم أن يكونوا فى عداوتهم للدعوة أشرافا .

وهذا درس من دروس الدعوة التى تفرض على الداعى استثمار ما يمكن أن يكون

لدى «المدعو» من عناصر الخير . . لنقوده منها إلى ما نريد ومن حيث لا يشعر .

يقرر «العقاد» تفرد معنى العيد فى اللغة العربية . . عنه فى اللغات الأخرى : فبعض أسمائه باللغات الأوروبية تدل على معنى الوليمة ووفرة الطعام .

وبعض أسمائه تدل على اليوم الدينى أو يوم «العطلة» . وليست هذه من خواص العيد ، التى ينفرد بها بين سائر الأيام .

وبعض أسمائه الحديثة تقابل كلمة «السنوية» أو «المئوية» وتصدق على احتفال بعينه . . يجوز أن يكون يوما واحدا لا يعاد إليه .

ويجوز أن يكون من غير الأعياد : لأنه من ذكرى الكوارث، أو ذكرى الحداد . . أما كلمة العيد بصيغتها هذه فى اللغة العربية فهى أدل من تلك الأسماء جميعا على خاصته ومعناه.

ويعنى ذلك كما يقول : «ويتفق لنا أن نذكر مزية لهذه اللغة فى كلمة «العيد» بلفظها ومعناها، فإن تسمية العيد بهذا الاسم، تدل عليه بأخص معانيه وهى : الإعادة والتعييد ، وليس لهذه الخاصية مدلول مفيد ، فى أسماء العيد بأكثر اللغات» أ.هـ.

ماذا بعد الحج :

اسأل نفسك . . هل ستستمر على ذلك الصفاء :

١ ـ تذكر التوحيد . . وما يثمره من وحدة ؟

٢ ـ وتذكر عداوة الشيطان . . والاستمرار فى «رمى» وساوسه ؟

٣ ـ هل ما زالت تلك المنافع . . أو هذه المكاسب . . هل مازالت متوهجة فى كيانك ؟

٤ ـ تذكر نعمته ـ تعالى ـ عليك : أن كنت «الذابح» ولم تكن المذبوح ! .

ومن وسائل التربية

يقول ﷺ : « **لا تنظروا إلى من هو فوقكم .وانظروا إلى من هو أسفل منكم؛ فإنه أجدر ألا تردوا نعمة الله** » متفق عليه .

وفى رواية :

إذا رأى أحدكم من فضل عليه فى الخلق والرزق .

إذا نظر الإنسان فى أمور الدنيـا إلى هو دونه فيها . . ظهرت له نعـمة الله تعالى عليه .فشكرها .وتواضع .وفعل فيها الخير] .

وهذا معنى : « فإنه أجدر ألا تردوا نعمة الله » . .

بين الرؤية .. والنظر :

ويلاحظ أن الرواية الأخرى تقول : إذا رأى أحدكم . .

يعنى إذا انبهر لمجرد رؤية نعم الغـير . . فراعته أحجامهـا وتنوعها . . إذا حدث ذلك . .فليـحـول اتجاه بصـره. . إلى من هو دونه . . ثم لـيدخل عـقله طرفـا فى القضيـة. . ناظرا بعين بصيرته ليتـأكد له أنه وإن فضل عليه ألف . . فـهو أفضل من عشرات الألوف . .

فـالرؤية بالعين المجـردة . . وإن فـرضت عـليـه مشـاهد . . تـراءت له . . إذا كـانت الرؤيـة البصـرية طـارئة لا يملـك الإنسـان دفعـها . . فـإن النـظر . . يعـنى: الـتفكير . . والموازنة . . واختيـار الواقع . . وأنت واصل بهذا التفكير وتلك الموازنة إلى المعنى الذى قرره الشاعر القائل :

لو كانـت الأرزاق تجـرى عـلى الحجا هلكن إذن . . من جهلهن . . البهائم !

واقعية الحديث الشريف :

والحديث الشريف لا ينكر على المسلم أن يتمنى مثل ما للغير . .ولكنه يحميه من الاسترسال مع أمانيه . . فرارا بك من الهموم التى سوف تأكل عافيتك . .

هذه الهموم التى سوف تتحول إلى مخزون من الحقد . . الذى هو أعظم عيوب العقلاء . . وهو بحق : مرعى اللئام .

شاهد من الواقع :

ونذكر ذلك الرجل الذى كان يحزنه أن يمشى حافيا . . فلما دخل المسجد . . وجد رجلا مقطوع القدم . . فحمد الله تعالى . والذى لا يحمد على مكروه سواه .

وهذا المقطوع نفسه . . إذا نظر إلى من قطعت يده مع رجله . . سوف يحمد الله تعالى . . كما حمده أخ له من قبل . .

أجل سوف يحمد الله الذى أخذ عضوا . . لكنه أبقى أعضاء .

من ثمرات النظر :

سوف ينتهى بك التفكير إلى الاقتناع بما قرره العلماء وهو : لا تتكالب على الدنيا . . فإنك فيها تنال ما قدر لك من رزق . . فى عمرك الذى سوف تعيشه . .

وبعد ذلك: ستحاسب على رزقك .وعمرك .

فاشغل نفسك بما قدمت لغد . .

نافس أهل الآخرة . . ودعك من أهل الدنيا [إن المال : غنى أرباب الدنيا :

الذى فيه يتنافسون . وإياه يطلبون . وحوله يحومون].

ولا أحب إلى الشيطان .وأبعد من الرحمن . من قلب ملآن بحب هذا الغنى . والخوف من فقده .

قال بعض السلف :

إذا اجتمع إبليس وجنوده . لم يفرحوا بشىء كفرحهم بثلاثة أشياء :

مؤمن . . يقتل مؤمنا .

ورجل . . يموت على الكفر .

وقلب . . فيه خوف الفقر .

وهذا الغنى محفوف بفقرين : فقر قبله. وفقر بعده . وهو كالغفوة بينهما] [١].

ويصير الأمر على ما يقول الشاعر :

وتنقضى الحرب محمودا عواقبها للصابرين ..وحظ الهارب الندم

وسبيل النجاة ألا نكتفى برؤية العين . . فالحواس خادعة . .

وإنما هى البصيرة . . هى النظر . . كما أشار الحديث . .

النظر إلى من هم دوننا . . لتظفر بهذه الحقيقة وهى : أن أفقر الناس إلى الله:

أغناهم به . . وأذلهم له . . أعزهم . وأضعفهم بين يديه . . أقواهم . وأجهلهم عند نفسه : أعلمهم بالله . .

وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله] [٢]

أما بعد :

فإن أصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة :

عجبت من إبليس فى تيهه وقبح ما أظهر من نخوته

تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

ومن أبالسة الإنس قارون :

قارون الذى نراه اليوم فى شخص دول كبرى تدل بقوتها وعلمها . .

ولقد كان قارون الأمس صريحا فى إعلان كفرن وغروره . .

أما قارون اليوم فإنه منافق : يحاول ! يا إقناعنا بأنه المنقذ !

ونحن مطالبون بالاعتصام بالعلم والإيمان حتى لا ننبهر به . . فى صحبة يقين جازم بأنه واصل إلى نفس المصير : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١] .

---

(١) طريق الهجرتين / ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) المرجع والموضع السابق .

ويبقى الأصلح دائما . . ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأعراف : ١٢٨].

والمغرور الذى يظن نفسه دولة داخل الدولة . . سوف يزايلها يوما . . لأن الأرض للصالحين المصلحين . .

فإذا قلت : ومتى ؟!

قل : عسى أن يكون قريبا .

يقول ابن الجوزى : [الآدمى موضوع على مطلوبات . تشتت الهمم :

العين : تطلب المنظور .

واللسان : يطلب الكلام .

والبطن : يطلب المأكول .

والفرج : يطلب المنكوح .

والطبع : يحب جمع المال .

وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة . . ولكن الهوى يشتته] (١) .

[ولا ريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره . . يحتاج إلى الانعكاف على ذكره وطاعته . . وامتثال أوامره : وهذا يفتقر إلى : جمع الهم . .

وكفى بما وضع فى الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتا للهم المجتمع . . فينبغى للإنسان أن يجتهد فى جمع همه . . لينفرد قلبه بذكر الله سبحانه وتعالى وإنفاذ أمره . والتهيؤ للقائه .

وذلك إنما يحصل بقطع القواطع .والامتناع عن الشواغل] .

ومن الشواغل :

رؤية من فضل عليك فى الخلق والمال . .

ثم وسوسة الشيطان بأنك أولى منه بالجمال والمال !

والحديث الشريف حماية لوجود المسلم من هذه التهلكة :

---

(١) صيد الخاطر ٥٥٨ .

أو كما قال البصراء : [ينبغى لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له فى أفعاله : ويعلم أنه حكيم ومالك . . وأنه لا يعبث :

فإن خفيت عليه حكمة فعله . . نسب الجهل إلى نفسه . وسلم للحكيم المالك فإن طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما بانت لى . . فيجب على تسليم الأمر لمالكه وإن أقواما نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه . . فرأوها لو صدرت من مخلوق نسب فيها إلى ضد الحكمة : فنسبوا الخالق إلى ذلك :

وهذا الكفر المحض . والجنون البارد .

والواجب نسبة الجهل إلي النفوس . فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته .

وأول من فعل ذلك إبليس :

فإنه قد رآه فضل طينا على نار . والعقل يرى النار أفضل . فعاب حكمته] .

وإذن . . فالحديث الشريف يحمينا من الكفر . ومن الجنون وذلك : بالنظر إلى من فضلنا الله تعالى عليه فى الدنيا « لأن ذلك سبيل إلى شدة الإحساس بنعم الله علينا » بقدر ما يكون النظر إلى من فضل علينا مدعاة إلى استصغار هذه النعم . .

ذلك بأن رؤية من فضل علينا طاعة للنفس التى تطلب كل ما تشتهى . . ثم يذهب الدين والدنيا . . ولا نحقق أمانينا . . ونحن مطالبون بالرضا : الرضا بالقليل : ومن رضى بالخل والبقل . . لم يستعبده أحد : ولكن التكيف صعب . . فوجب الصبر :

إن الصبر فرض . . وأما الرضا . . فهو الفضل .

[فى نور القرآن]

عندما خرج قارون [على قومه فى زينته] . . غارقا فيها . . مدلابها . . فماذا كان رد الفعل لدى قومه الذين خرج عليهم فى زينته ؟

كانت هناك ردود فعل مختلفة . . كشفت عنها الآيات الكريمة فى سورة القصص :﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٧٩] .﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ [٨٠] .

لقد انقسم الشاهدون إلى فريقين :

فريق السطحيين الذين انبهر بما رأوا . . فتمنوا أن لو أعطوا مثل قارون .

ثم فريق أهل العلم والإيمان والذين لم يقفوا عند القشرة البادية . . وإنما نفذوا إلى الأعماق . .

لقد «رأى» الفريقان قارون فى زينته . .

«رأوه» بالعين الباصرة . .

ولكن العوام وقفوا عند السطح البادى . . حيث قيدتهم هذه الزينة الصارخة . .

أما أهل العلم فقد تجاوزوا رؤية البصر .. إلى نظرة البصيرة حين أدخلوا العقل طرفا فى القضية :

لقد فكروا . . وقدروا . . ولم تأسرهم الرياسة البادية . . ناصحين العوام بأن هناك ما هو أغلى من هذه الزينة التى ترون وهو :

[ثواب الله]

وينتهى الموقف إلى سقوط الغرور . . الذى ابتلعته الأرض . . فى لحظة من زمان . .

وتستيقظ بصائر المخدوعين . . مقرين بصحة ما قرره العلماء المخلصون : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

والحديث الشريف الذى معنا يمكن لهذا المعنى فى قلوب الذين آمنوا .

فكما أن الإسلام حريص على صحة الإنسان الجسمية . . فهو أحرص على صحته النفسية .

حين ينهاه عن النظر إلى من فضل عليه فى الرزق .أو المال .أو الحسب ؛ لأن الإنسان ـ كما يقول ابن جرير وغيره :

[إذا رأى من فضل عليه فى الدنيا . طلبت نفسه مثل ذلك . واستصغر ما عنده

(١) القصص : ٨٢ .

من نعمة الله تعالى . وحرص على الازدياد . ليلحق بذلك . أو يقاربه .

هذا هو الموجود فى الغالب .

احترام الحياة

فى القرآن الكريم

مدخل :

إذا قال . . «نابليون» إن «المستحيل» كلمة غير فرنسية . . فإننا نقول وبنفس القوة:

والإرهاب : كلمة غير إسلامية !!

والمعروف هو : الترهيب !!

الترهيب : بمعنى : التخويف . . فإذا قال الله عز وجل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

فالمقصود بالترهيب هو : التخويف : الردع . . لماذا ؟

حتى لا يكون قتال بالمرة . . ضنا بدمائنا ، ودماء خصومنا أن تراق . فتذهب فى أخاديد الأرض أباديد . . وتلك إنسانية الإسلام . .

الذى يلوح بعصا العز . . لكنه لا يضرب بها !

والسؤال الذى يفرض نفسه هو : إلى أى حد يصون الإسلام الحياة ؟ ما هو المدى الذى وصل إليه فى صيانتها وتأمينها ؟

حتى يظل الكائن الحى آمنا فى سربه . معافى فى بدنه . عنده قوت يومه ؟

والجواب : من القرآن الكريم

قوله عز وجل : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] .

ولك أن تتصور رجلا يفرغ رصاصة فى صدر واحد من البشر . .

ثم لك أيضا أن تتصور ملايين البشر الذين يزحمون الكرة الأرضية . .

ثم عد إلى الآية الكريمة التى تقول لك : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

إنه وفى اللحظة التى قتلت فيها نفسا واحدة ظلما . . فقد حصدت أرواح هذه الملايين جميعا . .

ولك أن تتحقق حجم الجريمة . . من حيث إن العدوان إنما وقع على «معنى الحياة» وهو القاسم المشترك بين الناس جميعا . .

ثم احكم بعد ذلك كيف يغالى الإسلام بهذه الحياة !!

الأمن .. حق المجتمع

من خصائص المجتمع الإسلامى أنه مجتمع آمن مطمئن :

أولا : لأنه من الذكر فى حصن منيع :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

فذكر الله عز وجل بصفات جلاله وصفات جماله يضفى على الذاكر برد الأمان لأن ذكر الله تعالى هو الحصن الآمن :

فنحن مطالبون بذكر الله تعالى : قياما . وقعودا . وعلى جنوبنا : لتظل الدنيا مرتبطة بالآخرة

وليظل العبد دائما ذاكرا . . ويكون الله تعالى دائما : مذكورا مشكورا .

وثانيا : لأنه مجتمع التكافل الاجتماعى والتعاون على البر والتقوى . .

من كل ما يتماسك به البناء الذى يصير بهذا التعاون والتسامح والتغافر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . . وكالجسم الواحد :

إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

أجل : إلا المتقين الذى يجمعهم هدف واحد : المهم أن يتحقق ،ولا يهمنا على يد من تحقق . . فرارا من التزاحم على مظاهر الدنيا .

تأمين الحياة :

وفى صيانة هذه الحياة لتبقى يجيء التهديد الرعيب لكل من اعتدى على قيمة الأمن :

يقول ﷺ :

« **والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن** »

قيل : من يا رسول الله . قال : « **الذى لا يأمن جاره بوائقه** » متفق عليه . وزاد أحمد : قالوا : يا رسول الله : وما بوائقه ؟ قال : «شره»

ولاحظ : أن القسم هنا من رسول الله وثلاث مرات . .

ولا ينصب سلب الإيمان فقط على من يؤذى جاره فعلا . . وإنما على من جعل جاره فى فزع دائم منه . . بحيث يتوقع منه الشر دائما . . وما يشى به ذلك من رعب دائم منه لا يحس معه للأمن طعما . . وما يترتب على ذلك من قلق يصيبه بأخطر الأمراض .

واجب المسلمين

يقول الله عز وجل :

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦]

لقد فتحتم أعينكم لتجدوها صالحة للحياة :حياتكم أنتم فإن لم تزيدوها صلاحا . . فلا أقل من أن تتركوها كما وجدتموها . .فلا تفسدوها . . يعينكم على ذلك أن وظيفة المسلم هى : التعمير . . وليس التدمير . .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود/ ٦١]

والمتوقع أن يكون المسلم عند حسن الظن به : يعمر . . ولا يخرب ، يستبقى الحياة . . ولا يدمر هذه الحياة فليكن العقل فوق العاطفة.

كان «أسامة بن زيد» رضى الله عنه حب رسول الله ﷺ : ولكنه ﷺ نهره . . وبشدة لما حاول أن يشفع فى حد من حدود الله تعالى الله منكرا عليه ذلك ؟!!

« أتشفع يا أسامة فى حد من حدود الله ».

لأن من إخلاص الصديق ألا يقول إلا صدقا وألا يفعل إلا حقا . .

فإن فعل . . فنعما هى . .

وإن غفل . . كان الرد العنيف . .والذى يتجاهل العواطف . .

ومع هذا الموقف المثير فى صحيفة أعماله . .إلا أنه بقى فى بؤرة الشعور ولم يحكم عليه بالعزل : ليعيش فى الظل منسيا . .

ولكنه ﷺ ولاه قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . . وكان فى سن العشرين .

ومن احترام الحياة
فى السنة المطهرة

وتعاليم السنة المطهرة تمكن لقيمة الأمن فى قلوب المسلمين : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر . فانطلق لحاجته . فرأينا حُمَّرة معها فرخان . . فأخذنا فرخيها .

فجاءت الحمرة . . فجعلت تعرش .

فجاء النبى ﷺ فقال :

« من فجع هذه بولديها ؟ » قالوا : نحن . . فقال : « **ردوا ولديها إليها** » سنن أبى داود / ٢٣٢٩

ورأى قرية من النمل : أمة من النمل ـ قد حرقناها . فقال :

« من حرق هذه ؟ » قلنا : نحن . قال : « **إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار** » رواه أبو داود .

وهكذا . . تحوم الحمرة أو العصفورة حول العش . . ثم لا تهبط فيه كعادتها . . من حيث خلا من فلذة كبدها . .

ونلاحظ ما يلى :

أن هذا الخلل . . ما كان ليحدث لو كان الرسول موجودا . . لكنه لما انطلق لقضاء حاجته . . خلا الجو . . فكان هذا التجاوز .

وشجع على هذا التجاوز : هذا الفراغ . . أو هذا الترف تحت ظل الشجر . .

والذى يسحب الإنسان ـ بعدما تعود المباح ـ ليقع فى المحظور . .

ومما يلفت النظر أن الرجال هنا يعملون فى النور : بدليل اعترافهم الجماعى لما سألهم عن الفاعل فقالوا : نحن . .

وتأمل من حكمة المربى العظيم :

كيف لفت نظرهم . . وبقوة إلى فداحة ما عملوا ، وكيف لم يكن فقط «مصيبة» ولكن كان فجيعة كان كارثة . . لكنه فى نفس الوقت يعلل نهيه أو عتابه احتراما لعقولهم: وذلك قوله : « **إنه لا يعذب بالنار إلا رب النار** » .

وقبل ذلك : إن غريزة الوالدية مانعة من هذا العبث . .

وأن اللائق بالمسلم أن يؤثر من الأعمال ما له مقصد وغاية . .

وجاء رده علاجا وليس تشفيا . . ولا ارتجالا . . كما قال ابن تيمية .

فى مسلك النبوة

ومسلك الفلاسفة

ومثل النبى ﷺ : مثل طبيب دخل على مريض : فرأى مرضه . . فعلمه . فقال له : اشرب كذا . . واجتنب كذا والمتفلسف : يطول معه الكلام ، فى سبب ذلك المرض . . وصفته . وذمه . وذم ما أوجبه .

ولو قال له مريض : فما الذى يشفينى منه لم يكن له فى ذلك علم تام .

فهى إذن طريقة : [لا تفيد إلا الهذيان . وإتعاب الأذهان . وتضييع الزمان] .

فالداعية : طبيب . . يصف لك الدواء . . وبإذن الله يتم الشفاء . .

أما الفلاسفة :

١ ـ يطولون الكلام فى سبب المرض ومظاهره . ثم لا يصفون الدواء .

٢ ـ يعقدون الأمور التى كانت من قبلهم سهلة واضحة . وذلك : حين يستدلون بالأخفى على الأظهر . وبالأضعف على الأقوى . . بالإضافة إلى تعرضهم لأمور لا صلة لها بالقضية المعروضة . .

ولقد كان من الممكن أن يمر المشهد بلا تعليق : فملايين الحمائم تفعل هذا وليس الخبر مما يستلفت النظر أو تنشره الصحف ـ بلغة عصرنا .

ولكن . . لله حكمة هو بالغها : وكان لابد أن يحدث هذا لتتعلم الأمه احترام الحياة وتوفر الأمن دروسا ومنها :

أ ـ لما ذهب ﷺ لقضاء حاجته . . وخلت الديار من وجوده حدث هذا الخلل ،

أو هذا العبث . .ولو كان موجودا ما حدث . .وهكذا : تتعثر الحياة . . كلما ابتعدنا عن سنته : اليوم .وغدا .

ب ـ إنه رحمة للعالمين . .ومن العالمين هذه العصفورة ، وهى من أمة مثلنا لها نفس الحق ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] .

جـ ـ ومن رحمته : إنشاء ملكة التعمير وليس التدمير التى هى وظيفة الإنسان : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] .

﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] لقد فتحتم أعينكم على الأرض حولكم صالحة . .فعلى الأقل : اتركوها كذلك.

د ـ وفراق الأولاد ليس فقط مصيبة . .ولكنه : فجيعة . .

وسوف يقف هذا العصفور يوم القيامة يشكو إلى ربه ظلم الإنسان قائلا : «يارب: إن فلانا بالاسم ـ قتلنى عبثا .ولم يقتلنى منفعة » رواه النسائى وابن ماجه أى : إنه : لم يذبحنى ليأكلنى . . ولم يتركنى أحلق فى الفضاء .

ثم إنه يعبر عن الفرخين : بالولدين . . إثارة لمعنى الإشفاق والرحمة .وتذكيرا بغريزة الأمومة الجريح من أجل أولاد زغب الحواصل .

هـ ـ وهو درس فى ضرورة ألا نباشر عملا إلا إذا كان له هدف نافع ومحدد .

وربما قيل هنا : إن بعض الأديان ـ وقبل الإسلام ـ دعت إلى الرفق بالحيوان . .

والجواب : لقد دعا الإسلام إلى احترام معنى الحياة فى الحيوان . . وكان متجردا من بواعث الذات : أما غيره . . فلا : فالبرهميون الهنود يقولون بتناسخ الأرواح ومعنى ذلك :

أنه إذا مات الإنسان ربما انتقلت حياته إلى إنسان . أو إلى حيوان . .

ومن ثم . . يجب الرفق بالحيوان : لأنه قد يكون تقمص روح إنسان ؟

وإذن ففى الرفق بالحيوان معنى الأنانية !

أما الإسلام :

إنه يدعو إلى الرفق بالحيوان . . لأنه حيوان محض يعنى : لأنه كبد

رطبة .. وفى كل كبد رطبة أجر .

وتبلغ المأساة ذروتها عندما ندرك أن أمتنا كرسولها نصرت بالرعب : الرعب الذى يلقيه الله تعالى فى قلوب أعدائها فإذا به ينهار . ولكن الذى يحدث اليوم هو عكس ذلك تماما :

فعدونا آمن فى سربه .. مطمئن على يومه وغده ..

والخائف هو أمتنا ..

والتى تخاف خوفا من صنع بعض أبنائها المتحمسين الغافلين !!

أما بعد :

فإننا نخوض اليوم معارك وهمية .. مع من ؟

مع الخوارج ..

والأفضل :

أ ـ أن نرصد طاقاتنا المهدرة لنواجه بها إسرائيل .. التى تمتد فى فراغنا ..

ب ـ أن نراجع بعض سلبياتنا التى يستغلها أعداؤنا فى الكيد لنا ...

وقد قيل : لو فكر عربى ليدخل الإسلام . لمنعه ما يلى :

ناس يقتلون الأبرياء .. وقد يكونون مسلمين مع أن الله عز وجل يقول : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الفتح: ٢٦] .

مسئولية المجتمع

يقول ﷺ :

« لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما :

فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه » أخرجه الطبرانى والبيهقى .

ومعنى ذلك : أن من باشر القتل ابتداء : ملعون .. وملعون كذلك من رآه يقتل ولم يدفع عنه ..

ولاحظ أن الحديث الشريف لم يطالب الحاضر بقتل القاتل وإنما تنتهى مسؤوليته

بدفع حامل السلاح .ليحيا الجميع . .

وهذا الحرص على الحياة مدلول عليه بقوله ﷺ :

« **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم** » رواه النسائى والترمذى .

وعن هذه المسؤولية الجماعية يقول أحد الباحثين :

[وانظر إلى الحكمة واستخلص العبرة من هذا الحديث النبوي الشريف الذى جعل فيه الرسول ﷺ مسؤولية الأمة مشتركة بين أفرادها حيث قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ،فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ،فقال الذين في أسفلها لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ـ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (أخرجه البخاري في كتاب الشركة الباب (٦) وأخرجه ابن حنبل في المسند ٤/ ٤٨٩) . ومن هنا نقرر: أن المقصود بحرية الأفراد هي تلك الحرية المنضبطة للسلوك الأخلاقي العام التى تحترم حريات المجتمعات ولا يتعدى عليها بظلم ولا هضم. ولا يتأتى هذا المنطق السليم إلا للنفوس المطمئنة المعتدلة التى تهنأ بصحة وسلامة في القلب السليم والعقل اللبيب الذي بهما تتحقق سعادة البشرية والإيمان الحق هو سبيل كل فضيلة. مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] ا . هـ .

الحرية : عندنا ... وعندهم

أسماء سميتموها :

حطم الروس تمثال «ستالين» الذى كمم الأفواه .

وما كان أحد يدرى ـ حتى أصدقاؤه ـ الذين يتناولون العشاء معه : هل سيعودون من مجلسه : إلى بيوتهم أم إلى السجن أم يعودون جثثا إلى جانب حائط «الخالدين» فى «الكرملين» ؟!!

وحتى ابنته : فلقد فرت من ظلمه . . ثم استقر بها النوى فى أمريكا .

وتزوجت أمريكيا . . وعاشت معه ١٧ عاما . .

ثم عادت إلى بلادها . . فلم تجد الحرية . .

وإنما وجدت : حرية العبيد فى اختيار أسيادهم . .

الأسياد . . الذين منعوا الكلمة الحرة . . بطغيانهم الذى سحق كل مقاومة. وتدريب القوى الاجتماعية . . لكى تقتنع بأنها تعيش الحرية . .

حرية كاذبة خاطئة !

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]. إنها الحرية التى يحبونها . . محكومين ثم يكرهونها . . حطاما . .

تماما :

كما يحبون العدل . . مظلومين ، ثم يكرهونه . . ظالمين !!

أما الحرية فى الإسلام

فهى واسعة : رحيبة :

مجالاتها :

١ ـ الحرية الدينية .   ٢ ـ الحرية الفكرية .

٣ ـ الحرية الاقتصاديه .

الحرية الدينية :

أ ـ ثورة على التقليد :

ب ـ لا إكراه فى الدين .

جـ ـ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه] .

الحرية الفكرية :

أ ـ قصد الخير .

ب ـ وتجنب التجريح والالتزام بالحق إذا تبين وقيمة « الشورى » كانت فى بدر [فى أول معركة] .

الحرية الاقتصادية :

أ ـ منع بيع ما هو ضرورى : الماء . والكلأ . والنار .

ب ـ وحرية التملك والتصرف .

وعن الحرية الدينية يقول تعالى :

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢] . ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] . ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

مغزى هذه الآيات :

أن العقيدة لا تفرض بالإكراه . . ولكن بالأدلة التى صرفها الله تعالى فى الأنفس والآفاق :

جاء فى نظم الدرر تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى** ﴾ .

لما تبين من الدلائل . . فكأنه لقوة ظهوره وغلبة نوره .

قد انتفى عنه الإكراه بحذافيره] .

لأن الإكراه هو :

الحمل على مالم يظهر فيه وجه المصلحة .فلم يبق منه مانع .

إلا حظ النفس الخبيثة فى شهواتها البهيمية] .

فالعيب إذن ليس فى الدين . . وإنما فى الطبع الغليظ . وتعليقا على آية «المؤمنون» يقول : (لا برهان له) .

فإنه إذا اجتهد فى إقامة برهان علي ذلك لم يجد .

بل وجد البراهين كلها قائمة على نفى ذلك .داعية إلى الفلاح باعتقاد التوحيد

والصلاح :

هذا هو المراد : لا أنه يجوز أن يقوم على شىء غيره برهان] .

فهم خاطئ :

ولقد قالوا : إن قتل المرتد هو إنكار لحقه فى حرية الاعتقاد . .

والفاقهون يقولون له : لم تقدر لرجليك قبل الخطو موضعها . .

وقبل أن يعلن المرتد إسلامه . . كانت لديه فرصة التأمل والتقدير والتدقيق فى دراسة حسابات المستقبل . . لكنه : تسرع ثم نكص على عقبيه . . فأحدث بلبلة فى الصف الإسلامى . . فكان لابد من استئصاله من مجتمع . . حاول أن يفسده . .

ثم إن الحرية لا تعنى الفوضى :

وإذا ظن الإنسان أنه حر حرية مطلقة فإن من واجبنا أن نحمى البراعم منه !

كما حماها الفاروق عمر رضى الله عنه . . عندما ضرب الشاعر المفطر فى رمضان قائلا له : وصبياننا صيام ؟!

وكان عليه أن يحول «ملكة الشعر» إلى «شعور» :

شعور : بنعمة الإسلام عليه . . . لكنه ظلم نفسه . . فيجب أن ينال جزاءه . وعلى الذين يتباكون على الحرية . . أن يبكوا على من يتنكرون لها . .

أما نحن المسلمين فنحن نحب الحرية :

ونحب لذلك العبودية لله تعالى . . لأنها منبع هذه الحرية :

إنها العبودية : على الطريقة الإسلامية :

والتى بها يأخذ العبد خير سيده .

وليست العبودية هناك والتى يأخذ السيد بها خير عبده !!

وصدق القائل :

ووجه البحر يعرف من بعيد ـ إذا يسجو . . فكيف إذا يموج ؟!

مفهوم الاستقامة

عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك .

فقال : « **قل آمنت بالله . ثم استقم** » رواه مسلم .

أهمية الحديث :

قال العلماء : هذا أحد الأحاديث التى عليها مدار الإسلام .

وراوى الحديث هو : والى الطائف ، فهو رجل إدارة وحكم .

ومع ذلك فهو مهموم بآخرته التى يحرص على أن يعمل لها متجاوزا ما هو فيه من نعيم وسلطان . . فى عهد كان المسؤول هو إمام رعيته فى الصلاة .

وهو يريد الإسلام :

١ ـ ملخصا .

٢ ـ واضحا .

٣ ـ شاملا .

بدليل : «لا أسأل عنه أحدا غيرك» .

وقد نكر «قولا» وبالتنوين : تعظيما وإجلالا .

وإذ يقول : قل لى . . أى : قل لى أنا بالذات .

من دروس الدعوة :

ومن دروس الدعوة هنا :

أن يحس المدعو بأنه محتاج إلى الداعى . . وهو هنا محتاج . . بدليل أنه سأل . . وعلى هذا النحو .

مغزى جوابه ﷺ :

جدد إيمانك دائما : إنه قاعدة الانطلاق . . وبدونه . . فلا عمل ! وتجىء «ثم»

دليلا على أن ما بعدها ليس قطوفا دانية . . سهلة .

وإنما أنت مطالب بإنجاز تكاليف هذا الإيمان . . وهى رحلة شاقة تتطلب الزاد . .حتى تصل إلى تحقيق الاستقامة التى هى التعبير الحق عن هذا الإيمان .

معنى الاستقامة :

قال العلماء : هى لزوم طاعة الله تعالى ويلزم من ذلك : ترك منهياته .

وهى : من جوامع الكلم :

وهى الدرجة القصوى التى بها كمال المعارف والأحوال .

وصفاء القلوب فى الأعمال . وتنزيه العقائد عن سفاسف البدع والضلال .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى .

[من لم يكن مستقيما فى حاله . . . ضاع عمله . وخاب جده .

وقيل : لا يستطيعها إلا الأكابر : لأنها الخروج عن المألوفات .و مفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق .

ولعزتها . . أخبر ﷺ : أن الناس لن يطيقوها : فقد أخرج أحمد :

« استقيموا . ولن تستطيعوا » (١) .

وذلك يعنى : صحة الاعتقاد . وسلامة اتباع الرسول ﷺ :

اتباعه : ظاهرا وباطنا : ولا ترغ روغان الثعلب .كما قال عمر رضى الله عنه .

وليت شعرى : إن الرسول ﷺ : يأمر المستقيم فعلا بالاستقامة !

فكيف بنا اليوم ؟

إننا مطالبون . . فى طريقنا إلى تحقيق معنى الاستقامة :

أولاً : أن نتخطى عقبات الطريق .

وثانيا : تحرى الدقة والورع فى أعمالنا وأقوالنا لنظل على الجادة دائما . .

---

(١) راجع دليل الفالحين ١/٢٨٦ .

ولعلنا نسلم !

من دروس الاستقامة :

يقول ﷺ : « **إن الحلال بين . وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات : فمن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ألا وإن فى الجسد مضغة : إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب** » .

وأحيانا . . تختلط الأوراق . . وتتداخل الحدود . . ونصاب بما يشبه عمى الألوان . فلابد من العقل الواعى . . والبصيرة الكاشفة . . والتى نعرف بهما الحدود الفاصلة :

ولاحظ من بلاغة الأسلوب النبوى :

«ألا» الاستفتاحية والتى تؤكد أهمية الأمر الآتى .

وتقديم الجسد على «القلب» دليل على أنه المنطقة الخطرة فى داخلك . . وليست بعيدة :

فابدأ بنفسك . . قبل غيرك . .

[قاتلوا الذين يلونكم . .] وهى : أنفسكم .

ثم . . تأمل كيف كان القلب «مضغت» : أى : بمقدار ما يمضغ : حجم صغير .

ولكن دوره خطير . . يقودك إما إلى سعادة الأبد . أو شقوة الأبد .

ولكن . . كيف نجعل القلب سليما صالحا للخير ؟ :

١ ـ بذكر الله .

٢ ـ والانتقال من بيئة المعاصى .

٣ ـ أن تمسح رأس اليتيم :

وذلك يعنى :

أ ـ أن المحسوسات تترك بصماتها فى داخل الإنسان .

ب ـ وأن الإنسان قد يكون مترفا فلا يسمع أنينًا . . وبالتالى . . لا يعرف حنينًا . .

فإذا مسح رأس اليتيم وعايشه .. رق قلبه .. لما يرى من حاله . وما يسمع من أقواله .

٤ ـ وأيضا : إطعام المسكين ..

يقول عز وجل :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف/ ٢٨] .

ومن المستقيمات :

تحدثت بنت أخت السيدة نفيسة قالت : خدمت خالتى أربعين عاما ..

فما وجدتها بالليل إلا قائمة .. وبالنهار .. ما كانت إلا صائمة . وأشفقت عليها فقلت لها :

ارفقى بنفسك . قالت : كيف أرفق بنفسى ..وفى الطريق عقبات لا يجتازها إلا العابدون ؟ !

ومن المستقيمين :

روى عن الحسن البصرى رضى الله عنه أنه قال : تعقيبًا على من يعذب يوم القيامة ألف عام . ثم يدركه عفو الله :

قال : «يا ليتنى كنت هذا الرجل » !!

يقول هذا وله ماض حافل بجلائل الأعمال ؟!!

بناء المساجد
والرغبة فى عمل الخير

يقول ﷺ : « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا فى الجنة»

تمهيد :

يقول الرافعى : [يشق النهر .. فتقف الأرض عند شاطئيه : لا تتقدم .. ويبنى المسجد .. فتقف الأرض بمعاينها الترابية خلف جدرانه : لا تدخله]

مقصود الحديث :

دعوة إلى استدبار الدنيا .. والتحرك لعمارة الآخرة : لقد طالما لعب الإنسان .. فى طفولته .

ثم كان فى شبابه مشغولا بالزوجة والولد . ثم صار فى شيخوخته ضعيفا .

وإذن .. فلم يعد له فى العمر متسع للعمل الجاد من أجل مستقبله .. وبالتالى : لا يذكر الموت والبلى .. وكأنما كتب الموت على غيره . وصار أمره على ما قيل بحق (ما رأيت مثل النار : نام هاربها .

ومارأيت مثل الجنة : نام طالبها)

ومن وراء ذلك كله :

أمل بين يديك . وموت يطل عليك . وشيطان يتربص بك .

وإذن .. فقد حان الوقت للعمل للغد ..

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ الحشر: ١٨] .

مستدبرا لدنيا : التى كانت لحقارتها .. لا تصلح أن تكون ثوابا أو عقابا .

ونحن مطالبون : باستدبار الخلق والاشتغال بالحق . وإذا كان غيرنا من أهل الدنيا يبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال .. فأجدر بالمسلم أن يكون أكثر تضحية وأعمق صبرا :

سمعت عن « الفنان » الذى يرضى بعملية جراحية فى وجهه . . حتى يشبه تماما ذلك الزعيم الذى يقوم بتمثيل دوره فى الحياة . . إلى الحد الذى لم يكن يسمح بمناداته بـ « يا أستاذ » وإنما : « يا ريس » حتى يتقمص هذه الشخصية تماما . . وينجح فى أداء دوره .

وكان الفنان التشكيلى يندمج فى دوره . . حتى إذا رسم الزهرة كان يقول : أنا هذه الزهرة !!

وأجدر بأهل الحق أن يحلقوا فى هذا الأفق العالى . . استجابة لهذا الحديث الرامى إلى إنشاء الرغبة فى عمل الخير فى قلب المؤمن والتى ينبغى أن تتنامى مع الأيام . . لتكون الرغبة فى كل ما يشى بالخير ويحض عليه . من مثل بناء المساجد .

تأملات فى الحديث الشريف :

[مَنْ]

كل من بنى . .

والإبهام فى « من » يوسع الدائرة . . لتشمل كل من بنى مهما كان : غنيا أو فقيرا . . .

عابدا . . أو مقصرًا فى العبادة : جاد بالكثير . . أو بالقليل . . من باشر البناء . . ومن أعان ، بل من يحب ذلك . . .

شرط البناء :

ولابد أن يكون البناء لله تعالى . . وليس لدنيا يصيبها . . أو مقعد يحصل عليه . . لابد أن يكون لله خالصا : لا يطلع عليه ملك . . فيكتبه . . ولا شيطان فيفسده : ومهما كان البناء قدر مجثم طائر صغير . . فإن حقه فى الثواب محفوظ . . .

قيمة العمل:

ونرجع قيمة البناء هنا إلى أمور تجعل منه عملا عظيما . . جديرا بثوابه . ومن هذه الأمور:

١- أنه يحدد اهتمامات البانى . . بمعنى : أنه مهتم بالآخرة . . وليس بالعاجلة .

٢- ويحدد كذلك مصدر ماله الذى بنى به . وأنه حلال . فالمصادر . . تدل على نوعية الموارد : [المصارف دليل المنابع] .

فليس الذى يبدد ماله فى مجالات اللهو . . كهذا الذى يدخرها لمشروع خيرى .

٣- وسوف يشجع عمله هذا :

١- من لم يُصَلِّ . . أن يأخذ سبيله القاصد عبر المسجد . . بعد ما كان توجهه إلى ساحات اللهو .

٢- ومن كان فى يده مال ربما اتجه نفس الاتجاه ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] .

٤- سيشيع المسجد فى الحى . . . روحا جديدة ورائحة جديدة . . لم تكن من قبل : فسوف يلتقى فى رحابه المتخاصمون . والمشغولون . . وفى اللقاء خير . . لايتم إلا فى رحاب المسجد .

٥- وحتى لوكان المسجد . . لا يتسع لمصل واحد « كمفحص » قطاة : لكن الجزاء الأوفى هو . . هو . . لا ينقص . .

ما هو الجزاء؟ :

١- ربما وعدك رجل بمعروف يقدمه إليك . . ولكن . . قد لا يتم ذلك الوعد . . لأن الواعد لم يعلم . . أو علم . . ولم يقدر . . أما الذى يعدك هنا فهو العليم . . القدير سبحانه وتعالى . . ثم هو يعدك وعدا مؤكدا . . بدليل أن الجزاء محقق متى حدث شرطه وهو «البناء» .

٢- وإذا كان البناء هكذا صغيرا . . فإن جزاءه ليس « نزلا» لأن النزل ما يعد للضيف الراحل غدا أو بعد غد .

ولكنه بيت : مأوى: مريح مؤنس.

٣ ـ ثم إن البيت في الجنة : أـ فقد ضمن الباني أن يكون في الجن .

ب ـ ولمن يكون منها في العراء.

ولكنه فى بيت يأويه . . وما يشى به من قرار . . بل من خلود فيها .

٤- وإذن . . فبناء المسجد يتضمن دعوة إلى الجنة . . وما يترتب على ذلك من

استعـداد للعمل لها . . فى الوقت الذى اسـتدبرها المترفون . . الذين يبـددون أموالهم فيما لا يفيد !

من بركات رواد المسجد :

أ ـ جماعـة متحابون : الصالح يقـول عن الطالح : هداه الله ويقول الطالح عن الصالح: بارك الله فيه .

ب ـ أحرار : وإذا كان التفاوت فالتحكم شـرعة الناس خارج أعتاب المسجد . . فإنهم أحرار فى ساحته وبين جدارنه : أحرار : يمارسون الحرية الحقيقية :

والتى حملت أحدهم من عشاقها على أن يشترى « العصافير » من الصغار . . . ثم يطلقها فى جو السماء .

فى الوقت الذى صار فـيه عشاق المسـارح عبيـدًا للألوان والمظاهر . . وفى صراع دائم حول الكماليات .

هؤلاء الذين يحدقـون فى الصور الصـغيرة القـريبة فيـتعذر عليـهم رؤية الصور البعيدة الكبيرة !

جـ ـ هم أهل الله :

« **إن عمار بيوت الله هم أهل الله عز وجل** » رواه الطبرانى فى الأوسط

« **من ألف المسجد ألفه الله** » رواه الطبرانى فى الأوسط

د ـ وضيوف الله :

[**من توضأ فى بيـته فـأحسن الوضوء . ثم أتى المسـجد ..فـهو زائر لله وحق على المزور أن يكرم زائره**] الطبرانى ، والبيـهقى ولاحظ قوله: « **توضأ فى بيـته** » ولعل ذلك إشارة إلى التمكن من إحـسان الوضوء فى البيت . . إلى جانب حمـاية المسجد وما حوله من الأضرار الناجمة عن كثرة الوضوء فى المسجد . . مما يترتب على تجميع المياه هناك . .

هـ ـ والناجون من كيد الشيطان :

« **إن الشـيطان ذئب الإنسـان كـذئب الغنم : يـأخذ الشـاة القـاصـيـة : فـإياكم والشعاب . وعليكم بالجماعة . والعامة . والمسجد** » رواه أحمد

و- وجلساء الملائكة :

« إن للمساجد أوتادا : الملائكة جلساؤهم : إن غابوا . . يفتقدوهم . وإن مرضوا . . عادوهم . وإن كانوا فى حاجة أعانوهم » رواه أحمد

ز- والفائزون بحب رسول الله :

(كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد . فماتت . فلم يعلم بها النبى ﷺ .

فمر على قبرها فقال : « **ما هذا القبر** » فقالوا . قبر أم محجن . قال :

« **التى كانت تقم المسجد؟** » قالوا : نعم .

فصف الناس . . فصلى عليها .

وهكذا يحظى خادم المسجد بهذا الشرف الرفيع . .والذى يؤكد عظمة المساجد ومركز العاملين بها .

ويرحم الله عمر رضى الله عنه والذى أعلن يوما : لولا أعباء الخلافة . .لكنت مؤذنا !!

وحتى تظل المساجد كذلك . . فقد نهى الشارع الحكيم عن كل ما يحبط مفعولها: لا بيع فيها ولا شراء . . من كل ما يعكر صفو هذا المكان العظيم : عن أبى هريرة رضى الله عنه . أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لاردها الله عليك : فإن المساجد لم تبن لهذا » رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وغيرهم .

أجل : لم تبن المساجد للتذكير بأمور الدنيا . . وإنما من أجل الفرار منها . فى مكان هو أشرف الأماكن . والتى تزود النفوس بزاد من التقوى . . ومن أجل ذلك لم ير الشارع بدا من أن يواجه المنادى بهذا الحزم على ما فيه من قسوة وإن صدر من المصلين جميعا . .

ثم نهى الشارع أيضا عن كل ما يحدث رائحة كريهة تؤثر فى جلال الموقف : عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال :

« **من أكل من هذه الشجرة : يعنى : الثوم .. فلا يقربن مسجدنا** » متفق عليه

أما بعد : فقد سأل سائل :

عن مقياس حضارة أمة . . فأجاب أحد الفلاسفة من سأله عن دليل هذه الحضارة فقال :

قل لى : كم من المسارح بنت الأمة . .أقل لك : إلى أى حد كانت هذه الأمة متحضرة . . . وما هى الأشواط التى قطعتها على طريق الحضارة الطويل !!

وهكذا يقيسون حضارة الأمة بما حققته على طريق الفن . . بغض النظر عن مقدار احترام الأمة لمنظومة الأخلاق . . التى لا تستقيم أمة فى غيابها . .

ولكن الإسلام يقرر للحضارة مظاهرأخرى فى طليعتها : بناء المساجد . . فى مثل قوله ﷺ :

« من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة .. بنى الله له قصراً فى الجنة »

بناء المسجد . . وما ضم عليه من قيم الأخوة والمساواة . والنظام . والوحدة والحرية .

هذه القيم التى إن تراجعت فى أمة . . فليس لها بر يحميها ولا بحر .

نطيع الله فيمن عصاه فينا

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

إذا كان العدل أن تعدل فى الحكم بين المتخاصمين . . فإن الإنصاف هو ذلك العدل . . بفارق واحد هو أنك فى حال الإنصاف تكون طرفا فى القضية المعروضة . . ثم تنصف غريمك من نفسك ، متجاهلا مصلحتك الشخصية ، مما يجعل قيمة الإنصاف أكثر من قيمة العدل ، وفى كل خير .

تأملات فى الآية الكريمة :

وهذا الإجمال الذى ذكرنا آنفا . . يحتاج إلى تفصيل ، هو موضوع هذه الآية الكريمة ، ولنبدأ القصة من أولها :

ففى أول السورة يطالب الله تعالى ـ الذين آمنوا بالوفاء بالعهود ، العهود التى هى عقود محكمة موثقة . . .

ومن الوفاء بالعهود :

* ألا تحلوا شعائر الله أى : معالم الحج . . حج بيت الله الأعظم .

* وأن تحافظوا على حرمة الأشهر الحرم . .

* ولا تحلوا التعرض لناس قاصدين البيت الحرام ؛ لأن قصد بيت الملك كان محترما باحترام ما قصده .

والقصة هنا أن مسلسل العدوان على المسلمين كان شديد الوطأة وكان مستمرا على المستوى الفردى والجماعى . . على سواء .

أما على المستوى الفردى ، فقد كان « الحطم بن هند البكرى » قد أغار على سرح المدينة ثم اعتمر فى العام التالى ، فأراد بعض الصحابة منعه .

وعلى المستوى الجماعى : فقد منع المسلمون ـ عام الحديبية ـ أن يطوفوا بالبيت من قبل المشركين الذين أخذتهم العزة بالإثم فحالوا بين المسلمين وبين أداء حقهم الشرعى .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة تذكرة للمسلمين ألا يعاملوا أعداءهم بمثل ما يعاملونهم به .

وأن الإنسان لم يعاقب من عصى الله فيه بأنكى من أن يطيع الله فيه . . ومن طاعة الله تعالى هنا . . ألا تصدوهم عن البيت إلا مشركا ليس له أمان ولاعهد . وإلا من قصده ملحدا عابثا . . احتراما للبيت نفسه .

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ ﴾ : إذا فرغتم من إحرامكم . . فقد أبيح لكم ما كان من قبل محرما . . وفى طليعته : الصيد .

وإذ تصطدم هذه التوجيهات بمشاعركم . . وإذا كانت الرغبة فى الثأر تسوغ لكم المعاملة بالمثل . . فإن مصلحة الدعوة ينبغى أن تكون فوق كل اعتبار . ومن مصلحة الدعوة هنا : أن تجاربكم المرة مع هؤلاء المعتدين . إذا سولت لكم أن تذيقوهم نفس الكأس . . فإن ذلك قد يحقق مصلحة للأعداء ومن حيث لا تحتسبون .

فالمعارك الجانبية والمناوشات المستمرة من شأنها أن تعقد فى السماء سحبا ربما يختفى معها وجه الحق . . وهو ما يريده المعتدون . فاضبطوا أعصابكم حتى لو كانت كراهيتكم لهم بالغة حد الشنآن، فاستمسكوا بالعدل . . بل بالإنصاف حتى فى أحلك الظروف .

ولاحظ من دلائل الإنصاف ما يلى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ .

أـ فقد أضاف تعالى مادة الإجرام إلى أصحاب الحق . . بمعنى لا تحملكم شدة بغضهم على التحرش بهم :

ب ـ فإن المسلم : من لم يزده تعدى عدوه فيه حدود الشرع إلا وقوفا عند حدوده .

جـ ـ وإذا كان التوجيه هنا شديدا على النفس وذلك عندما تؤمر بالإحسان إلى من أساء إليك ، فإن الحق سبحانه يطامن من هول التكليف بما يردع النفس الأمارة

وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

أما بعد فلأن التعاون على البر والتقوى أمر خطير . . لما كان كذلك . . صرح عز وجل بقوله تعالى ـ بعد الأمر به ـ فقال تعالى : ﴿ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

فكأنه عز وجل يأمر بالتعاون على البر مرتين : لا مرة واحدة : مرة . . بالأمر به وثانية بالنهى عن نقيضه .

والآية الكريمة بهذا المعنى : توجيه كريم بالحرص على طاقات الأمة المرصودة أساسا للبناء والتعمير . . وليس للتخريب والتدمير . . وأن استمرار المعركة . . وبقاء الأعصاب مشدودة . . مظهر من مظاهر الضعف . . مخصوم من حسابنا مضاف إلى حساب أعدائنا .

ولا يعنى ذلك التخاذل أو التنازل عن حق من حقوقنا . . وإنما هى الحكمة القاضية بتدبير الأمور طبق ما تتطلبه مصلحة الدعوة أولا وأخيرا .

وأحيانا تفرض هذه الحكمة تنحية مشاعرنا . . التى لو تركناها على سجيتها لأوتينا من قبلها . .

فإذا فرضت علينا المواجهة المسلحة كنا رجالا !!

من بركات البيت:

يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] مما أدرك الناس من حكمه الحكماء « أن تقول . . وأن تجد من يسمعك: تلك أعظم آمال البشرية » .

ولقد قال إبراهيم عليه السلام .

لقد أذن فى الناس بالحج . . كما أمره ربه . . فاستمع الخلق إليه كما وعده سبحانه . . استمع إليه حتى النطف التى لم تخلق . . وهاهم أولاء يأتون رجالا .

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] ولقد كان من رحمة الله تعالى أن يكلف . . ثم يعين بلطفه تعالى ذلك المكلف

على إنجاز ما أمر به . . وذلك عن طريق صور من المحرضات على الوفاء بالمأمور به على غاية ما يكون الوفاء . .

ومن هذه المشجعات أن هذه الدعوة ليست إلى رحلة سياحية يتحرر فيها السائحون من ضوابط الأخلاق . .

وإنما هى : قصد البيت . . بل قصد أول بيت . . أول بيت وضعه الله عز وجل قلعة للتوحيد . . وإذا كان هذا البيت أول متعبد لنا ، فمن حقه علينا أن نزوره مجددين بالزيارة قيم التوحيد فى قلوبنا ، وفى نفس الوقت ، من حقنا أن نزور المكان الذى ولدنا فيه . . وكنا من قبله نسيا منسيا !

إنه أول بيت وضعه الله ـ تعالى ـ للناس . . كل الناس : وإذا كانت كلمة «الناس» من « النوس » وهو التشرذم والتفرق والضياع . .

فمن معانى ذلك : أن هذا البيت . . ماوضعه الله سبحانه إلا ليجمع قطيع البشرية الشارد . . فى رحاب هذا البيت ليتذوقوا معنى الوحدة . . بعدما كان بينهم من فرقة وشتات . وقد تكون الأشواق أكبر من الأرزاق !

وإذن فلا حج إلا على المستطيع، المستطيع ماليا . . وبدنيا . . ونفسيا ،فإن لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع . .

ومما يستطيعه المسلم : أن يكون عونا لأخيه العاجز هنا . . أن يناله قبس من بركة هذا البيت وأن يكون هدى للناس . . ومن يستشعر حكمة الحج البعيدة يدرك ذلك : فالله عز وجل يقول :

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج/ ٣٧]

فالله عز وجل لا يلحقه بعبادتكم نفع ولا ضر . . والمهم هو التقوى . . والتى هى حركة مباركة نخفف بها من آلام البشر .

والنية الخالصة خير من الأعمال الموظفة ، فإذا نالته سبحانه النية قبل العمل تلقى اللقمة . . فرباها كما يربى أحدكم فلوه ـ المهر يفصل عن أمه ـ حتى تكون مثل الجبل.

* إن البيت الذى وضعه الله تعالى للناس هو بيت من خصائصه : أنه مبارك . . وأنه هدى . . وهدى للناس جميعا . . فهو رحمة مهداة ونعمة مسداة تفرض على المسلم أن يكون كذلك : بركة وهدى ورحمة . . وإن كان فى بيته هنا . .

إن المسلم إنسان . . وهو عند الله ـ تعالى ـ أعظم من البنيان ، والشوق إلى بيته العتيق يمكن أن يترجم إلى عمل صالح . . تصلح به مرافق الأمة .

فإن الذين حبسهم العذر . . هم بأرواحهم هناك !

وذلك قول أحدهم :

ياراحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا

من أسرار الحج :

يقولون : لا تعدم الخرقاء علة .

والخرقاء هنا هى تلك المرأة التى لا تجيد الطعام . . وتفسد بسوء تصرفها ما صلح من مرافق البيت .

يخرج الخبز من بين يديها . . محترقا، والطعام . . ملحا أجاجا . .

ومع أنها عاجزة عن كل ذلك . . إلا أنها لا تعجز عن اختلاق علة . . تدافع بها عن نفسها . . فى محاولة لتغطية فشلها . . ولكن لسان الحال يكون أحيانا أبلغ من لسان المقال .

ولكن الخرقاء هنا هم ثلة من المستشرقين . . الذين ما يفتؤون يكيدون للإسلام كيدا .

ومن صور كيدهم : زعمهم أن الإسلام دين أوهام . . متخذين من شعائر الحج مثالا على ذلك .

غير أن الفاقهين من علمائنا الأقدمين والمحدثين . . حاولوا أن يفسروا مشاعر الحج تفسيرا معقولا . . يفر بنا من كلمة راعشة أو نظرة طائشة واصلين بنا إلى مرفأ اليقين :

حتى إذا ظن هؤلاء الماكرون أنهم على شيء تبين لهم أن النار التى حاولوا أن يوقدوها . . وإن أضاءت ما حولهم يوما . . فإن الله عز وجل يذهب بنورهم ويتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٨، ١٩] .

ألا وإن هذا الغموض من وراء مشاعر الحج له معنى : هو إجمالا : عودة بالعقل البشرى إلى حجمه الطبيعى :

أن يقف على أعتاب عالم فسيح . . ثم لا يتخطى هذه الأعتاب . . وعليه فقط أن يتلقى هذه الإشارات الإلهية . . الآتية من هذا العالم المجهول . . عالم الروح . . العالم الأسنى ليوقن أنه عاجز وحده عن إدراك هذه الإشارات . . التى لا يستقل العقل . . بإدراكها وإنما هو القلب الشاعر الحساس . . والذى ينفعل بها . . ثم يهديها إلى العقل . . ليدرك ما لم يكن يدرك . . . ويعلم مالم يكن يعلم . .

وهو نفس ما وعاه أرباب البصائر والذين تعاملوا مع هذه المشاعر بالقلب الذكى وليس بالعقل الذكى ؟ ! فقالوا : تأمل . . وأنت ترمى الجمرات . . فماذا ترى ؟!

ترى : جمرة صغيرة . . ومع ذلك فقد ساخ منها الشيطان . . وإذن . . فما أضعف الشيطان . . شيطان الإنس والجن معا ! والحقيقة التى تفرض نفسها هى أن العبرة فى مواجهة الأعداء ليست بقوة السلاح . . وإنما العبرة باليد التى تحمل هذا السلاح . . وما وراء هذه اليد من قلب معمور بالإيمان . . الإيمان بالله عز وجل . ثم بعدالة القضية التى تدافع عنها . .

فالقضية ليست فى فعالية السلاح وإنما هى راجعة بالدرجة الأولى إلى فعالية العزيمة، ألم تر إلى داود : الفتى ؟؟ كيف قتل جالوت . . بالمقلاع والحجر ؟! ولا ننسى كيف استهان «الفاروق» بالسيف . . فقال له صاحبه : إن معك السيف ولكن . . ليست معك اليد التى تحمله !

وحتى ولو كان قصيرا لتقدمت به خطوة إلى الأمام فإذا هو الموت الزؤام.

وهكذا الجمرة التى نرمى بها الشيطان !

إننا نرفض بها مكره السيئ . . بل هو العهد على أن نحبط كيده . .وعلى ألا نسلس قيادنا لوساوس النفس . .

ثم يأتى الطواف حول الكعبة المشرفة . . فإذا الأمر على ما يقول البصراء .

والكعبة المشرفة وهى أول بيت أقيم فى الأرض لعبادة ـ الله تعالى ـ ليست ذلك البناء الذى يمكن بناؤه ، وأستارها السوداء ليست نسيجا مطرزاً بخيوط الذهب ينتجها مصنع كسوة الكعبة المشرفة فى المكرمة مكة، وتزينها أيدى عمال التزيين المختصين، بل هى بيت الله العظيم، حفرت معانيها فى الذاكرة ووشمت على القلب، تستريح تحت الأهداب، فمنها ترتقى الروح إلى بارئها لتغيب فى عظمته وجلاله، مستجيبة لأوامره منتهية عن نواهيه، فما يكاد يصل ضيف الرحمن إلى الكعبة المشرفة حتى يرسم بجسده حدوداً بين مرحلتين، فقد جلب أوزاره معه ليتركها بجوار الباب ، وليطوى صفحة الأمس مستشعراً أن ملخص حياته هو تلك الخطوات، وكيف أن تكون على ضوء منهج عقدى ارتضاه الله ورسوله .

والطواف حول الكعبة المشرفة ليس ترديد كلمات خالية من الحس والشعور، كما أنها لا تعنى هذه الحركة الجسمانية التى يزاحم بها الحاج أخاه، لكنها تعنى التفاف القلوب ودورانها حول قدسية الله بكلمات وأدعية علمنا إياها معلم الإنسانية الخير ـ ﷺ ـ تبثها من أعماق روحك، تظهر فيها خضوعك، راجياً فيها حاجتك من خالقك الذى لا يستطيع قضاءها سواه سبحانه ، وأن لا تجعل بينك وبينه حاجزاً وفاصلاً فهو وحده القريب السميع المجيب .

والسعى بين الصفا والمروة، لا يعنى مجرد الهرولة بين الميلين الأخضرين ، وقطع هذه المسافة ماشياً ، وإنما التردد بين علمى الرحمة استمطاراً لها، والتماساً للمغفرة والرضوان .

والسعى تأكيد وتوكيد بأن ـ الله تعالى ـ أقرب إلينا من حبل الوريد، وأن الإنسان عليه قبل أن يرجو عونه تبارك وتعالى ، أن يتأكد من صحة مسعاه ويؤكده مرة

أخرى، ليصيب مسعاه بعون الله مما هو فى حاجة إليه .

وبهذا المعنى تصير مشاعر الحج على ما قيل :

اتحادا للقلوب ، وتفريجاً للكروب . . وحطاً للذنوب .

وكما يعيش المرء لجسده عشرات السنين. . يجب عليه أن يعيش لروحه أياماً. .

والله عز وجل كفيل أن يمسح فى هذه الأيام القلائل أوضار تلك السنين . .

ألا إنها ساعات ربانية : تلك التى يشرف المسلم فيها بروحه على الجنة . . حتى لكأنه يرى أطيافها . . ويرتدى أفوافها . ويسرح ببصيرته فى جنباتها الواسعة .

وفى الإسراء
دروس .. تصلح بها النفوس

تمهيد :

فى سورة «النحل» تفصيل لمراحل العناد التى تلقاها الرسول ﷺ :

الأولى : تكذيب القوم بالرسول ﷺ .

وذلك قوله عز وجل : [النحل/١١٣]

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٣] .

فقد جاءهم الهدى يدق عليهم الباب.. ولم يكلفوا عناء البحث عنه ..وجاء على لسان صاحبهم : من دمهم ولحمهم ..الذى يعرفهم ويعرفونه .. بحكم هذه الزمالة ..

ثم هو رسول : مبلغ .. فكان رد الفعل هو : التكذيب .. الذى صاروا به أهلا لعذاب .. لم ينزل فقط بساحتهم . ولكنه «أخذهم» فلم يبق لهم على أثر بعدما كانوا ملء السمع والبصر :

والثانية : أنهم كذبوا بالرسالة :

وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل/ ٢٤] ماذا أنزل «ربكم» الذى تتقلبون فى نعمه؟ .. قالوا أساطير الأولين متجاهلين أنهم الذين يوقنون بصدق «صاحبهم» ومع ذلك ..يفضلون التكذيب ..وكان بإمكانهم أن يسكتوا ..على الأقل .

وثالثة الأثافى هى .

تكذيبهم للمرسل سبحانه وتعالى :

وذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل:٣٨] .

بل يفترون على الله الكذب حين يزعمون أن شركهم من صنع الله عز

وجل . .ولولا أنه أراده لهم ما أشركوا . .

وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل/ ٣٥] .

ابتلاء الأنبياء :

وعلى كثرة مـا يحتشد فى الذاكرة من أحداث لكن هذه المواقف الصـعبة . .تظل ماثلة فى الذهن : وقد تغيب عن ناظرك . .لكنها تستمر سابحة فى خاطرك . .مؤكدة سنة الله تعالى فى الابتلاء. .الذى يكون على قدر دين المبتلى :

ولما كان ﷺ خاتم الأنبيـاء فقد كان بلاؤه واسعا وعميـقا . .مؤكدا سنة من سننه عز وجل وهى :

عند انسداد الفُرج. . يجىء الفرج !

ولو كـان العسـر فى جحـر لدخل عليـه اليسـر . . ثم أخرجـه ! وهكذا : إذا المصائب توالت . . تولت !

وجاء الفرج

ولقد جاء سورة «الإسراء» عقيب سورة «النحل» الطليعة الفرج القريب .

لتأخذ سبـيلها إلى العقول . . يقينا . . وإلى القلوب . .حـبا ، وباليقين والحب كان الإسراء والمعراج :

فى مشهد : غير مسبوق ولا ملحوق :

فكان ﷺ إماما : فى لحظات جمع فيها الزمان .

وفى أطهر مكان :

قـد يهـون العمـر .. إلا لحظة وتضيق الأرض ..إلا موضعا

ثمن الفرج

وقد كان لهـذا الفرج ثمنه عندما سكنت النفس تحت مجارى الأقـدار : فإن قتل

الصبر صاحبه . . مات شهيدا . . وإن أبقى عليه . . كان سعيدا .

شاهد من القرآن :

وأى شئ أكبر شهادة ؟

إنه القرآن الذى مكن لهذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين الصابرين وهى : أن العاقبة للصابرين :

يقول عز وجل :

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]

إنه الفرج . . والفرج القريب . . بدليل التعبير بالسين [سيجعل . .]

وليس «بسوف» .

ثم يقول عز وجل :

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦] ولن يغلب عسر يسرين !!

وشاهد من التاريخ :

لقد امتحن يوسف عليه السلام :

من الجب . . إلى القصر . . ثم إلى السجن . . ثم وفى النهاية ماذا حدث ؟

كان الأمر على ما يقول الشاعر :

وما هذه الأيام إلا منازل :

فمن منزل رحب ..إلى منزل ضنك   أما فى نبى الله يوسف أسوة
لمثلك .. محبوس عن الظلم والإفك   أقام جميل الصبر فى السجن برهة
فآل به الصبر الجميل إلى الملك

ولقد كانوا يقولون :

طبعت على كدر .. وأنت تريدها   صفوا من الأكدار والأقذار

ذلك مالا يكون !

تطلب الراحة فى دار العنا ؟!   ضل من يطلب مالا يكون !!

وإذا كان الإنسان يطلب فى الدنيا مالا يدركه . . فكيف مع الآخرة يدرك مالا يطلبه ؟

وقد كان لهم فى التعامل مع البلاء منهج رشيد :

كان أحدهم إذا ابتلى . . واشتدت عليه وطأة البلاء . . تذكر عندئذ ذنوبه . . فهان عليه ما يلاقيه !

لقد كان من حكمة الله عز وجل أن يسلط الألم على الإنسان . ولكنه برحمته سلط الزمن على هذا الألم . . فكأن شيئا لم يكن .

فإذا المبتلى فى نعمتين :

نعمة النسيان . . أو التناسى . . ثم نعمة الأمل فى فرج قريب .

الخلاص . . سبيلا إلى الإخلاص .

يقول علماؤنا : لا تهتم ..حتى .. حتى لا تغتم :

تخلص من كل ما يربطك بالدنيا . . حتى تشعر بأنه ليس فيها شىء تبكى عليه !

وهكذا كان الإسراء والمعراج درسا فى «تخليص» النفس من كل ما يربطها بالدنيا :

فقد ماتت خديجة رضى الله عنها . . ومات عمه أبو طالب كذلك . وكانا سندا للدعوة : داخليا وخارجيا . .

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينطلق الداعية . . بلا سند أرضى . .

متخلصة من كل شىء دنيوى . . ليكون سندها الوحيد هو : الله عز وجل . .

وأذكر من دروس شيخى :

أننى قلت له يوما :

هل كان لابد من «حديث الإفك» ؟! قال الشيخ :

إنه الإخلاص . . بعد الخلاص من كل علائق الدنيا . . وكيف ؟ :

لقد أراد سبحانه وتعالى أن يكون له وحده .. فأراد شيئا خلصه به من حب عائشة رضى الله عنها .. حتى يكون قلبه كله لله ..

ثم أحبها بعد ذلك .. ولكن بإذن الله .. ليكون الأمر كله لله ..

وعندئذ يتم «الإخلاص» .. ولكن بعد التخلص من كل ما سوى الله .

إن كل «حب» له عمر افتراضى .. وسوف يذبل يوما .. إلا حب الله عز وجل :

إننا نخطئ فى حقه تعالى .. ثم نطلب العفو .. فيعفو :

ثم نسأله العطاء . فيعطى .. ويشكر ، ثم يعصى فيغفر .

*** من دروس الدعوة :**

أ ـ إن أظلم ساعات الليل هى التى تكون قبيل بزوغ الفجر .. وهكذا كان الإسراء والمعراج .. ذلك الفجر الصادق :

ومن خلال تلال اليأس .. يشرق الأمل .

ومن غشاوة الأحزان .. ينبثق السرور

ب ـ ضرورة أن يطمئن «الداعى» أولا إلى أن نصر الله قريب .. بل هو آت لا ريب فيه .. فإذا اطمأن قلبه . ثقة بربه تعالى . فقد بدأ يسير فى الاتجاه الصحيح. وكذا فى السرور .. لابد من أن يطمئن أولا .. ليحسن استقبال التكليف ..

وكان الشاعر يقول للخليفة : تهيأ .. لأننى سأمدحك !

ونذكر هنا قوله عز وجل تثبيتا لقلب موسى عليه السلام :

﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٨] .

جـ ـ الترفق بالمدعو إعانة له على الامتثال : ومن أجل ذلك يقول سبحانه :

﴿ **سبحان الذى أسرى** ﴾ ولم يقل سبحانه «سبحان الله» لأن للفظ الجلالة «الله» رهبة .. ولأن القضايا الكبيرة لا تفرض بالرهبة .. وإنما بالتلطف .. ولهذا المعنى نفسه أضمر تعالى «المعراج» لغرابته .. رفقا بالمدعو .

د ـ وقال عز وجل [سبحان . .].

لتكون نسبة التنزيه أعظم مثل : رجل عدل ثم [أسرى بعبده. . .] أى :

على سراة الأرض . .يعنى : على وجهها .

وهذا أدل على الإعجاز عن إرادة السرى ليلا . . لأن إرادة السير على وجهها يدل على أنه أسرى به ﷺ مشيا على ظهرها . . لا طيرانا . .ولا سبحا .

هـ ـ ثم يقول عز وجل : ﴿من المسجد الحرام﴾ .

وهذا يدل منذ البداية على مؤانسته ﷺ حتى لا يستوحش . . بمعنى : أنه ﷺ فى ضيافة ربه عز وجل . . ولا دور للبشر هنا مطلقا . .

ثم هو «عبده» . . بينما يذكر غيره من الأنبياء «بالعلَم» .

والذكر بالصفة أبلغ من ذكر «العلَم» .

و ـ وهكذا . . لا يكتفى القرآن الكريم بإشعال الرغبة فى قلب «المدعو» وإنما : يقود خطوات أقدامنا . .وخطرات قلوبنا . . ولا يتركنا لننقل خطانا فى صحراء الحياة حيارى .

ز ـ كان الفتى المتحمس يسألنى محتدا ؟ كيف نسترد القدس ؟ وكنت أقول له : الجواب فى آى القرآن . .

يقول عز وجل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

ح ـ من خصائص الجندى المثالى :

١ ـ «عبادا» : متواضعين : يعطون . . ثم لا يأخذون . . وسروره الأكبر : لا فيما ينال من «جوائز» وإنما سروره فى تحقيق هدفه . .فتلك هى مكافأته . . وهو منسجم مع هذه الطبيعة من حوله :

فالأشجار تعطى . .لتحيا . . فإذا لم تعط . .عرضت حياتها للخطر . .

ثم هم (عباد لنا) وليسوا حزبًا من الأحزاب : عزتهم من عزة الله . . وطاقتهم مستمدة من الزيت المبارك

وهم أصحاب شجاعة ذاتية. . وليست شجاعة الذين يوضع فى أيديهم السلاح اليوم ليحاربوا ؟! من الذين لا يقاتلونكم ﴿ إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: ١٤] [أولى بأس] والبأس منكر : فهو غير محدود وهو [شديد] لأنه مستمر من القوى الأعلى سبحانه .

ومن خصائص هؤلاء العباد : [فجاسوا خلال الديار] :

إن لديهم شجاعة المواجهة .. وبالسلاح الأبيض لينجز الله تعالى بهم وعده .

وأين منهم أولئك الذين :

[يرضون بالحياة الدنيا من الآخرة . ولسان حالهم يقول :

خلق الله للحروب رجالا ... وخلقنا لقصعة وثريد

ولا هَمَّ لأحدهم إلا أن يعيش حياته بين ردائه وحذائه : يسيل لعابه على جاه يتمناه. أو مال يتشهاه . أو مأجور يغشاه .

ثم ينادى بتحرير الأرض .وهو يرقص على مزامير الشيطان .

وهل ينجح فى تحرير أرض فى قبضة عداه .من لم ينجح فى تحرير نفسه من قبضة هواه] ؟! .

قضية للمناقشة:

يقول واحد من أساتذه التاريخ فى جامعة إسلامية :

[فى حديث الإسراء والمعراج . . وفى الجزئية الخاصة بمراجعة سيدنا موسى عليه السلام لسيدنا محمد ﷺ بشأن الصلاة . . يدعى الأستاذ : أن هذه الجزئية من دس اليهود فى صحيح البخارى .

والسؤال الآن :

ألا يذهب ذلك بالثقة بصحيح البخارى؟ لأنه يفتح الباب لكل أحد أن يقول : إن حديث كذا من وضع فلان أو علان . والله المستعان .

وفى الهجرة عبر
فهل من معتبر؟

يقول الله عز وجل :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

مدخـــل :

قبل الهجرة : يكون الرجل وثنيا : فهو حر . مكفول الرزق .

فإذا دخل فى الإسلام نـكّل بـه . . فلا يمارس شعائره بطلاقة . . ولا يسـتمتع بما يستمتع به مشرك يعفر جبهته فى التراب . .

فلمـا أذن ﷺ بالهجـرة . . كان يوم الخـروج عـيدا . . من حـيث انتقـالهم إلى «المدينة» والتى سوف يعيشون فيها أحرارا مكرمين .

أحرارا مكرمين: فى الوقت الذى كان الناس يجرون عربات الحمل والركوب بدل البقر . . فى بلاد لا تدين بالإسلام . لأنها مقدسة عندهم : فهى معبودة الجماهير !

وهكذا صار المسلم بالـهجرة حرا فى عـبوديته . . بقـدر ما كان الوثنى عـبدا فى حريته !

فكرة الهجرة :

وفكرة «الهجرة» قديمة قدم الرسالات العليا .

وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . ﴾ [إبراهيم: ١٣] .

وقد استوعبها ﷺ فى مستهل حياته :

فقد سمعها من «ورقة» لما قال له : [. . إذ يخرجك قومك]

ولكن العاقبة للمهاجرين :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤] .

وهذا هو الذى حدث بالفعل :

فالأرض لله . . وليست أرضهم وهو سبحانه يورثها من يشاء من عباده :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

ومن العجيب أن الذين يخربون الأرض . . يدعون ملكيتها . . ولكن الله عز وجل ناصر عباده الصالحين : **﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾** .

أهمية الهجرة :

كان التأريخ بها ـ دون التأريخ بالرسالة والرسول ـ لأنها تحرير للإنسان من عبودية المكان . . وعبودية الإنسان . . .

على ما يقول المسلم فى دعائه :

[اللهم لا تجعلنا موضع شفقة عبادك . بل اجعلنا موضع شفقتك أنت يارب .

ولا تجعلنا محط الإحسان من خلقك . . بل موضع الإحسان منك أنت يارب .

واجعلنا أبدا بك . ومعك . وإليك :

فلا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك يارب] .

لقد كانت الهجرة بداية ونهاية :

نهاية للظلم . . وبداية لعهد جديد .

الهجرة : متنفس الصالحين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧] .

فأرض الله واسعة مفتوحة الذراعين لكل راغب فى الحرية . .

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] .

سوف يجد من الأرض الواسعة مكانا يكون له حصنا من عدوه :

عدوه : الذى يراغمه : يذله .

أما من يرضى بالذل والهوان بديلا . . فهو ذلك الذى عناه الشاعر :

ولا يقيم على ضيم يراد به　　إلا الأذلان : عَيْر الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته　　وذا يشج فلا يرثى له أحد [1]

وطن الروح

فوق وطن الجسم

إن الوطن المادى. .قد ينسى . . أما وطن العقيدة . .فإنه لا ينسى ـ .

وإذا أردت أن تشعر بمدى حب العربى وطنه المادى . . والذى يضحى به بعد الإسلام . . فاستمع إلى قول ذلك العربى .

[كم دخلت من بلدان : وكم لقيت من ناس . وكم شاهدت من غرائب وعجائب . .ولطائف وطرائف . وما نسيت بلدى على هذا كله يوما . ولاخمد الشوق إليها ساعة . وكان فى قلبى . وعلى لسانى دائما بيت «الشريف»

وقائلة فى الركب : ماأنت مشته ؟　　غداة جزعنا الرمل ؟ قلت :أعود !

«بدر» و «الهجرة » :

ولأن فى الهجرة دروسا كثيرة . .فقد نزلت آياتها مصرفة فى كثير من الآيات . . بينما نزلت آيات «بدر» جملة واحدة : ومن آيات الهجرة يقول عز وجل : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾[التوبة: ٤٠] .

ومن معانى الآية الكريمة :

١ ـ أن الله تعالى نصره يومئذ . .ولم تنصروه .

٢ ـ ثم إنها عتاب للأمة كلها إلا «أبا بكر» رضى الله عنه . .والذى صحب

---

(١)العير: الحمار ـ والرمة : الحبل البالى ـ يرثى : لا يرق له أحد ـ

الرسول ﷺ حاملا روحه على كفه فداء له .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

[إذ يقول لصاحبه]

وإذا تذكرنا نداء الرسول ﷺ لصاحبه بحرف النداء للبعيد :«يا أبا بكر» تأكدت لنا هذه المنزلة الرفيعة . .المشتقة من معنى «البعد» فى حرف النداء «يا» .

ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ إنهما ليسا أى اثنين . . وإنما هما : رسول الله . . والصديق . . وإذن فالنصر مكفول . .وفى نهاية المطاف .

[لا تحزن إن الله معنا] . .

فى الطريق إلى الغار . . أعطى ﷺ أبا بكر شجرة «الثمال» . وهى كالصبار : تصبر عن الماء طويلا . . فلما أخذها . . ثبتها على باب الغار . .

ففهم المغامرون . .أن وجودها دليل على أن أحدا لم يتجاوزها إلى عمق الغار . . لأنها توحى بمعنى «القدم» .

ونجح الرسول ﷺ ـ بهذه الحيلة ـ فى صرف أنظار المشركين .

وهو درس فى الأخذ بالأسباب :

[ولا يضير هذا الجوار الكريم وأهله أن يأخذوا بأسبابه . وأن يعدوا العدة له :

ما داموا بربهم معتصمين . وعلى ربهم متوكلين :

فإن الاعتصام بالله تعالى . والتوكل عليه أساس هذا الجوار وعماده .

وقد أمر الحكيم العليم . الذى ربط الأسباب بالمسببات .

والوسائل بالغايات . بالأخذ بالأسباب :

وهذا سيد المتوكلين يأخذ ـ مع أول الصديقين ـ بكل أسباب النجاة .فى هجرتهما إلى الله . . حتى إذا أحس الصديق وقع أقدام الكفار فوق الغار ألم وحزن . وخشى أن يصاب الرسول ﷺ بأذى لا يستطيع أن يدفعه أو يحمله .

ـ وهو أول من يفتديه بنفسه وماله ـ طمأنه ﷺ بأن الله معهما . وأنهما : اثنان . . الله ثالثهما : وقد اعتصما به وحده دون خلقه :

فلو أن السموات السبع ومن فيهن . والأرضين السبع ومن فيهن كادوا لهما لجعل لهما من هذا الكيد فرجا ومخرجا] أ . هـ [١] .

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة: ٤٠] ومتى كان الانتصار ؟

كان لحظة الخروج «إذ أخرجه» ؟!!

فى اللحظة التى ظن فيها المشركون أنهم على شىء لما أخرجوه . . فصاروا بإخراجه منتصرين . .

فى هذه اللحظة : نصره الله عز وجل . . من حيث تراجعت كل أسباب النصر البشرية :

فلا عَدد . . ولا عُدَد

لقد اكفهر الجو . . ولم يعد فى قوس الصبر منزع .

وصار الأمر على ما قيل :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا من بعد أن أنشبن فِىَّ مخالبا

ولما كان يوم الهجرة . . أطل يوم العيد على المسلمين وإن كانوا قد خلَّفوا من ورائهم أموالهم . وربما أهليهم . . بينما الوثنيون يمرحون . . ويرتعون .

ولكن الإحساس بحرية العبادة . . كان أجمل فى موازين الإيمان . . من كل ما يدل به الوثنيون الواهمون . . الظانون بالمسلمين ظن السوء . . وصدق القائل :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس !

[لا تحزن]:

نهاه ﷺ عن «الحزن» ولم ينهه عن الخوف . .

لماذا ؟ يجيب المفسرون :

إن «الحزن» إنما يكون على الغير . . والغير هنا هو :

الدعوة ممثلة فيه ﷺ . .

(١) الشيخ طه الساكت.

أما الخوف : فإنما يكون على النفس . . وليس على الغير . .

وإذن فالصديق غير خائف . لأنه ممتلئ بإيمان . . لو وزن به إيمان الأمة . . لرجح . . فممن يخاف إذن ؟!

البصائر المطموسة

وتأمل وفد الوثنية الواقف على باب الغار ، إنهم يتعجبون من عنكبوت وبيضتين .

ثم لا يتعجبون من الأرض الصلبة الجامدة . . وكيف صارت «لينة» بقدرة الله عز وجل . . حتى ساخت فيها قوائم فرس «سراقة» !!

وكان المفروض أن تستلفت أنظارهم . . ولكن هيهات . .

فلله تعالى حكمة هو بالغها :

فقد ضرب الله على قلوبهم فأعمى بصائرهم . . لتتم كلمة ربك صدقا وعدلا . .

وكان من قدرته تعالى أن سخر الكون كله لإنجاح الهجرة . . . وكان المشركون من حيث يريدون ـ كانوا أهم أسباب هذا النجاح .

[إن الله معنا]

يقول الصالحون : فلا تقل أنا «مع الله» لأن ذلك قد يكون وهما . . ولكن قل: الله معنا : مع الآخرين : بالقهر والعلم ومع المؤمنين بالرعاية والحفظ والتوفيق : قالوا :

[هناك حرس مخفيون . يحرسون الإنسان ليل نهار دون أن يراهم أو يشعر بهم، خلق من خلق الله ، أقوياء أشداء، لقد أطت السماء من كثرتهم وحق لها أن تئط فما فيها موضع شبر إلا عليه واحد منهم ساجد أو قائم .

ورغم قوتهم وعظمتهم كلفهم الله بحماية هذا الإنسان الضعيف وحفظه من الأخطار المحدقة به . اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الأنعام (٦١) : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ الآية . قال ابن كثير : أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله: **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** وحفظة

يحفظون عمله ويحصونه كقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠] الآية . وكقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] (ابن كثير ٢/ ١٤٠) .

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد (١١) : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية : أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ،حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات :

كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال .صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات . وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه . فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان » (ابن كثير ٢/ ٥٤٣) .

ومن الآثار التي ذكرها ابن كثير : قال عكرمة عن ابن عباس : ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه،فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وقال مجاهد : ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك ، وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه .

وقال أبو أمامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له، وقال أبو مجلز : جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي ،فقال : احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك ،فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر.

فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنَّة حصينة .

وبالإضافة إلى هؤلاء الحرس الذين يلازمون الإنسان هناك حرس للمهمات الخاصة فقد كان الملائكة يحرسون النبي ﷺ.

وملائكة نزلوا لنصرة المسلمين ودعمهم في غزوة بدر وغيرها . وحرس يحرسون مكة والمدينة من الدجال .

وبإمكان كل مسلم أن يطلب له حرساً من الملائكة إذا أراد ذلك. ومما ورد في

هذا الباب من الأحاديث حديث أبي هريرة رضى الله عنه المشهور عندما كلفه رسول الله ﷺ بحراسة زكاة رمضان فأتاه آت وجعل يحثو من الطعام فأخذه أبو هريرة وهدده بالرفع إلى رسول الله ﷺ فاشتكى له العيال والحاجة ووعد أنه لا يعود فتركه ،ولكنه كرر هذا ثلاث مرات،فلما أخذه أبو هريره في المرة الثالثة قال له : « **دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها**» . قال : ما هن . قال :« **إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح**» الحديث . ولما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له : « **أما إنه قد صدقك وهو كذوب.تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ! قال : لا .قال : ذلك شيطان**» أخرجه البخارى وغيره .

وفي حديث آخر رواه الزندي وغيره مرفوعاً : « **من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . عشر مرات على أثر المغرب بعث له مسلحة يحظونه من الشيطان حتى يصبح،وكتب له عشر حسنات موجبات ،ومحا عنه عشر سيئات موبقات وكانت له بعدل عتق عشر رقبات مؤمنات**» الترمذى ٣٧٨١ «وإسناده حسن» والمسلحة : قوم يحفظون الثغور من العدو .إنها حراسة ربانية مجانية فهل نغتنمها ؟] ا.هـ . (١)

أما بعد :

فلابد من الأخذ بالأسباب فالمسلمون «مأمورون» :

[ألا يلغوا الأسباب . .فيلغوا معها حكمته سبحانه. . وألا يغلوا فيها . . فيجحدوا مشيئته وقدرته تعالى .

واليوم : يعيد التاريخ نفسه : فالباطل لا يطيق رؤية الحق . .

ومن أجل ذلك يريد المبطلون « إخراج » رموز الإصلاح ، فى الأسرة .وفى المؤسسة . . حتى لا يكون لأمتنا جذور . .

أولئك الذين ضل سعيهم

لأنهم يتعاملون مع الزمان على أنه ساعات وأيام وشهور وسنوات . . ولكن

---

(١) الرابطة: ربيع الأول / ١٤٢٣هـ.

المسلم يتعامل معه طبق ما يحتويه من أحداث وأحاديث . .

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه   فما فاته منها فليس بضائر

رمضـــــان

وفضيلة الإيثار

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

مـدخـــل :

لا يفرض الإسلام مبادئه فرضا . .وإنما يمهد لها تمهيدا . .فتقبل النفس الخطاب أولا . وبعدها تقبل عليه .

ومن أجل ذلك تذكرهم الآية الكريمة بعهد الإيمان . . ثم إيناسهم بتوجيه الخطاب إليهم تشريفا لهم أن يكونوا محل خطاب ربهم سبحانه وتعالى .

ومن خلال ذلك .. تصلب الإرادة :

إن المسلم . . وفى آخر «شعبان» كان فى صراع مع نفسه حتى لا تتناول الحرام» .

وإذا به وفى أول رمضان يتسع ميدان المعركة مع النفس التى تمنع اليوم من تناول الحلال . .

وعلى مدى الشهر يصلب عودها : تماما كالطفل الصغير : إنه فى صراع مع جاذبية الأرض : فيكبو وينهض . . وخلال ذلك تصلب قدماه ليقدر على المسير . .

ومعنى ذلك أنه فى شعبان تدور معركة بيننا وبين أنفسنا إرادة فطمها عن الحرام . وفى أول رمضان . . تزداد المعركة ضراوة حين نريد حمل أنفسنا على ترك «الحلال» وهو بين أيدينا . . .

وذلك عن طريق «الصوم» والذى به تتخلق فينا قيمة التضحية. . وما التضحية إلا الإيثار . .

الإيثار الذى ينشئه الصوم لدينا :

ومن رحمة الله تعالى بنا أن جعل بيننا وبينه برزخا وحجرا محجورا ،

ولأننا صائمون . . فنحن لا نتناول حتى الحلال وهو بين أيدينا . .

وفى اليوم القائظ . . قد تجف شبكة العروق فى كيانك . . وقد تيبس خلاياك . . ثم تهتف بك هذه وتلك أن تبلها بهذا الماء البارد . .

وقد تصرخ فيك معدتك الجائعة لتطعمها من هذا الطعام الحلال . .

ولكنك لا تستجيب لهذا الهتاف ولا لهذا الصراخ مؤثرا رضا الله تعالى على هواك . .

ثم ينطلق جوادك منتصرا . . شاعرا بمتعة لو علمها المفطرون لجالدوك عليها بالسيوف !

ولأن الاستقرار على هذه القمة من الإيثار من الصعوبة بمكان . . فقد كان من رحمته ومن حكمته عز وجل أن يثبتك عليها. فكانت فريضة الصيام سبيلك إلى هذا الثبات على هذه القمة العالية وذلك قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

إن الصيام هو طريقك إلى التقوى .. والتقوى تعنى الإيثار :

فالمسلم الصائم واقع بين أمرين : بين ما يبتغى . . وما ينبغى : ما يبتغى من الطعام والشراب . . وما ينبغى من الصيام . . لكنه لا يتردد فى إيثار ما ينبغى على ما يبتغى . .

فالمتقون هم صناع فضيلة الإيثار :

أ ـ فهم : ينفقون : ودائما . . متجاوزين بالإنفاق غريزة التملك . .

فإذا وجدوا أنفقوا : وإن لم يجدوا . . تمنوا أن لو كانوا منفقين . .

ب ـ ثم هم الذين يكظمون الغيظ : فلا ينتقمون . . أعنى :

يخصون بمالهم المحاويج ـ كاظمين الغيظ : يكبتون حقهم .

فى رد العدوان . . إيثاراً لسلامة المعتدين . .

فى رد العدوان . . إيثاراً لسلامة المعتدين . .

وإذا بالصائم : رجل صارم :

مستقل الإرادة عن الغير :

محرر من كل قيد . . إلا قيد الأخلاق .

ومن كل عون . . إلا عون الله عز وجل .

ثم إن الصائمين رجاعون إلى ربهم سبحانه . . ومن قريب ﴿ **الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم**﴾ .

إنهم الذين «رفؤوا بعدما خرقوا » قمعا للشهوة العارمة . . ووقوفا بالنفس عند حدها . . وفى اللحظة التى تتحكم فيها السكرة وتنام الفكرة . .

يفعلون ذلك لياذا بالحصن الآمن : ذكر الله تعالى .

﴿ **كما كتب على الذين من قبلكم**﴾ .

[فالإنسان عنده قدرة على الجوع والعطش أكبر مما نتصور . بعض الهنود يدخلون صندوقا محكم الإغلاق وبعد أيام نجدهم أحياء : الهواء قليل ولا ماء ولا طعام. بعض الحيوانات تغرز نفسها فى الطين كل شهور الصيف حتى إذا جاء الشتاء وسقطت الأمطار انتعشت كالبذور ، بعض البذور من الممكن أن تظل مدفونة فى الحجر مئات السنين فإذا أتيحت لها الحياة تفتحت . .

بعض الجراثيم تعيش فى الصخور وفى التراب الدائر فى الفضاء ألوف السنين ، ومع ذلك تحتفظ بكل أدوات الحياة من جديد !

فى الأسبوع الماضى وجدوا فى لندن طفلة تركتها أمها فى البيت عشرين يوما، لأنها دخلت السجن .

فلما عاد الأب إلى البيت وجد الطفلة التى عمرها سنتان تلهو وتلعب فى أدوات البيت . . ثم جلست فى حمامها الصغير ترش الماء حول جسمها. أما كيف عاشت. . لقد راحت تقلب فى كل الأدراج وفى الثلاجة .

وما وجدته أكلته . والذى وجدته هو بقايا خبز ولحم وكتشاب وموستردة .

ولا شعرت بالعطش ولا الجوع ولا الخوف . . ولا نزلت منها دمعة واحدة . . كيف ؟

أما سلطات الأمن فقد عاقبت أمها على أنها تركت الطفلة وحدها فى البيت . . دون أن تخطر أحدا بذلك . . فكانت سببا فى الضعف والهزال الذى أصاب الطفلة . .

والذين يفرضون على أنفسهم الرجيم يمارسون أشكالا وألوانا من الجوع والعطش والحرمان والرياضة . . ويكتشفون أن لديهم قدرة على التحمل ، لم يكونوا يعرفونها . .

ورواد الفضاء تفرض عليهم الهيئات العلمية أنواعا من الخشونة تحت الضغوط المختلفة والحركات العنيفة والجوع والعطش ـ فقد يتعرضون لكل ذلك فى الفضاء بل إن بعض رواد الفضاء يتدربون الآن على الحياة تحت سطح الأرض تمهيدا لما سوف يحدث لهم تحت سطح القمر . . وعن طريق المعالجات الكيماوية فإنهم يشربون ويأكلون مخلفاتهم وفى نفس الوقت يمنعونهم من الاتصال بأى أحد أو سماع الراديو . . ويمكثون هكذا تحت الأرض شهورا .

فما المعنى ؟ إننا لا نحتاج إلى كل ما نأكل ونشرب وإننا أقوى وأصلب مما تتصور . ولكننا لا نجرب ذلك !] ا . هـ .

ومن أجل ذلك . . كتب الله علينا الصيام رحمة بنا . . تصل بنا إلى اكتشاف هذه الطاقة المدخرة فى كياننا . . والتى لا نحس بها . .

الإيثار فى ضمير أمتنا

على مدى ثلاثة أيام حُبس «ابن حذافة» فى حجرة . . مع طعام حرام، وخمر . . فصابر جاذبية الحرام . . وخرج من المعركة العصيبة منتصرا . . محققا عنصر القيادة المؤهلة لهذا الانتصار وهو :

[أصبركم على الجوع . . وأصبركم على العطش] .

فى الوقت الذى يتهافت فيه أعداؤنا . الذين يريدون ـ بالترف ـ تربية الصقور تربية البغاث . . وتربية أشبال الأسود تربية الخراف .

حاجتنا إلى «أخلاق الصحراء» (١)

جاء فى ذكريات / ٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩ .

[وكنا نمر على مخافر الجيش العربى الأردنى . وهم يعيشون فى هذه الصحراء ـ بما ورثوه من أخلاق الصحراء . ومن أخلاقها : الصبر .والجلد . والاحتمال. والصراحة . والبعد عن النفاق .

ولقد مررنا بأحد المخافر . فكلفونا أن نحمل صرة صغيرة . وقربة فيها ماء .

قلنا : لمن هذه ؟ قالوا : للولد دهام .قلنا : وأين هو ؟ قالوا : «جدام» أى : قدام .

فسرنا ثلاثين كيلا . حتى وجدناه وحده فى خيمة قائمة فى الصحراء :

يحرس الحدود . وإلى جانبه . .وعلى مرمى حجر منه خيمة مثلها .

تتصل بها خيمات : وإذا فى الصرة قليل من التمر .وفى القربة شىء من الماء . وإذا هو يعيش بهذا التمر . وهذا الماء : يومه كله .

يا أيها القراء : هذه أخلاق الصحراء :

فثقوا بأنكم لا تزالون أقوياء . ما دمتم مستمسكين بها : تجمعون إلى فضائلها فضيلة العلم والمعرفة بأسرار الفكر .

فما ضعف العرب إلا حينما فقدوا أخلاق الصحراء] .

وقال الشيخ : [لما استقر جنود «هانى بعل» القرطاجى . . فى إيطاليا

وذاقوا نعيم الحضارة .سرت إليهم رخاوتها . ومشى إليهم ضعفها . وأضاعوا أخلاقهم الأولى . . فغلبوا على أمرهم .

وقريب من ذلك ما كان سيقع لجنود «ابن تاشفين» لو أنهم عاشوا فى الأندلس .

ولكن الله تعالى نبهه . فعاد بهم من حيث جاء . وعصمهم من فتنة هذه الحضارة الرخوة الضعيفة] .

---

(١) الشيخ على الطنطاوي .

﴿لعلكم تتقون﴾ :

ولن نصل إلى هذه .الغاية العليا . .بكثـرة الطعام . . بل أننا مطالبون أن نخرج من رمضان على صورة غير التى دخلنا بها فيه . . وذلك بالإرادة القوية الماضية :

وفى قصة طالوت شاهد ذلك :

فقبيل المواجهة العسكرية . . عقد لهم امتحانا . . وكان الامتحان عسيرا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٤٩] .

وقد سقط المسترسلون مع الشهوة . . ممن تراخت إرادتهم . .

بينما نجحـت القلة المؤمنة . . والتى كانت تملك قوة التحكم فى نـزعاتها . .وبهم تحقق النصر المبين .

الفرصة الذهبية

إن رمضـان فرصة ذهبيـة يرحم فيها الـله عز وجل كل عاص . .بقبـول توبته : تفضلا منه عز وجل . .

وهو عـز وجل كمـا يفتـح باب التوبة بين يدى الأفـراد . .يفـتحـه أيضا أمـام المجتمعات التى كـان من عصيانها : الفرقة والشتـات . . وغلاء الأسعار . .وبالذات فى رمضان . .

إننا مدعوون إلى الانسجام مع روح الصيام . . لنكون رحماء فى شهر الرحمة. . وإلا كان هناك تناقـض بين أفعـالنا وشـريعتنا . . الأمـر الذى يحبط أثر الصـيام فى نفوسنا . .

إن الصيام شهادة للمسلم بأنه قادر على أن يكون سيد مصيره . .بعدما ظل أسيرا فى قبضـة الشهوات شهـورا . . ومن واجبه على الأقل أن يرد على التجـار الجشعين بالاحتماء بهـذه الطاقة . . تحديا لهم . وتقليما لأظافرهم . . وكـسرا لشوكة الوحش المستكن فى أنفـسهم . .لنكون معـا ذلـك المجتمع الإيمانى الذى وصفـه الحق تعالى فقال : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

ولا ينتهى بنا الحديث . . حتى نتملى ذلك الحدث الجليل . ومع الأنصار الذين قال الله عز وجل فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩].

والقصة هنا : أنه لما قدم المهاجرون على الأنصار قسموا دورهم وأموالهم بينهم وبينهم .

فلما أفاء الله على رسوله ﷺ أموال بنى النضير .

خطب النبى ﷺ :

فذكر ما صنعوا بالمهاجرين : من إنزالهم إياهم . وآثريتهم على أنفسهم . ثم قال:

إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النضير . وكان المهاجرون على ما هم عليه : من السكنى فى منازلكم وأموالكم . . وإن أحببتم : أعطيتهم . وخرجوا من دياركم :

فقال «السعدان» رضى الله عنهما :

بل يقسم بين المهاجرين خاصة . ويكونون فى دورنا كما كانوا :

وقالت الأنصار : رضينا وسلّمنا . . فقال ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار »(١) .

ثم نزلت الآية الكريمة تنويها بما فعل الأنصار .

وقفات بين يدى الآية الكريمة :

فالأنصار ـ ومن قبل أن يجتمعوا بالمهاجرين ـ جمعوا التمكن فى الإيمان إلى التمكن فى الدار :

---

(١) أخرجه البخارى / ٤٣٣٧ ومسلم / ١٠٥٩ والترمذى وابن حبان وغيرهم .

فكانت المدينة دارهم . . وهذا هو المكان . . وكـان الإيمان منزلهم . . وتلك هى المكانة

لقد تمكنوا من الإيمان الذى صار حياتهم . . على ما قال سلمان رضى الله عنه :

أنا ابن الإسلام .

لقد [تبوؤا المدينة التى هى الدار وهى الإيمان : لأنها محل تمكن الإيمان وانتشاره وظهوره فى سائر البلدان :

فلشدة ملابستها له سميت به .

ويجوز أن يكون المعنى :

ومحل الإيمان : إشارة إلى أنهم مـا أقاموا بها لأجل أن أموالهم بها : بـل محبة فى الإيمان علما منهم بأنه لا يتم بدره . ويكمـل شرفه وقدره وتنشر أعـلامه . ويقوى ذكره إلا بها . ولولا ذلك لهجروها ، وهاجروا إلى النبى ﷺ فى أى مكان حله :

فهو مدح لهم : بأنهم مـتصفون بالهجرة بالقوة . مع اتصـافهم بالنصرة بالفعل] «القضاعى» .

وإيثار الأنصار له طعم خاص :

فقد يجود الإنسان . . ثم يندم آسفا . . على ما قدم . . ولكن الأنصار :

يحـبون من هاجـر إليهم . . ولا يجـدون فى صدورهم أدنى اسـتيـاء أو ندم . ويؤثرون . . يؤثرون على من ؟! على الولد ؟ لا . . ولكن على أنفسهم

وبماذا يؤثرون ؟ يؤثرون حتى بنسائهم . . على شدة ما كان من غيرتهم . .

ومتى يؤثرون ؟

يؤثرون المهاجرين فى الوقت الذي تشتد حـاجتهم إلى ما يبذلون ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾ .

والمفـروض فـى الإيـثـار أنـه يكـون أحـيـانا . . ولكنـه فى الأنـصـار «ظـاهرة» وجـبلة . . وطبع . . بدليل التعـبيـر بالفعل المضـارع «يؤثرون» وما فيه من اسـتقرار واستـمرار : ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ .

أمـــا بعـــــد :

فتلك هى أريحية الواجدين من الأنصار . . فـأين هى عزة الفاقدين من المهاجرين المستحقين بعزتهم ذلك الإيثار ؟

وذلك ما توضحه الآية الكريمة قبل ذلك . .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

الأنصـــــار : هم المفلحون . . بما أعطوا وآثروا . .

والمهاجرون : هم الصادقون . . بما صبروا . .

وكم فى أمتنـا اليوم من مهـاجرين صابـرين يربط أحدهم حجـرا على بطنه من الجوع . . ويحفر لنفسه حفرة تقيه من البرد ويبقى أن يجدوا لهم أنصارا مؤثرين .

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]

المسلمـــون اليـــوم :

فى رمضان . . يمر الوقت متثاقل الخطا . .

تحت ضغط الجوع والعطش . .

وحتى لا يكون الملل . . فإننا نـتفانى فى الاستعانة عـلى هذا الملل بما نخترع من فنون التـسلية [وذلك : بالإغـماء : بعـد الإفطار . والاستـسلام للشاشـة و«المذياع» يفعلان بنا ما يشاء المؤلف والممثل والمخرج . . دون أن تحمر وجوهنا خجلا].

زمان . . كان «الفانوس» رمز رمضان . .

واليوم . . ذهب ضوؤه . . فى خضم الضياء المجلوب . . المبهر . .

وذهب معه معنى الصيام !!

ويظل الإسلام دين السلام

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

فى قصة نزول هذه الآية الكريمة يقول المفسرون : إن رسول الله ﷺ بعث «الوليد ابن عقبة » ليجمع الصدقة من بنى المصطلق . وكان بينه وبينهم إحنة ـ ثأر قديم ـ فلما سمعوا بقدومه . استقبلوه . ولكنه ظن أنهم مقاتلوه . فرجع . وأخبر النبى ﷺ أن القوم ارتدوا عن الإسلام . ومنعوا الزكاة . ولقد هم ﷺ بقتالهم . غير أنه وفى اللحظة الأخيرة بعث إليهم « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، فوجد الأمر على غير ما أخبر الوليد بن عقبة رضى الله عنه .

فالقوم يؤدون الصلاة ويتهجدون بالليل ، والزكاة معدة للتسليم ثم سلموها إلى «خالد » فعلا . وعندئذ نزلت الآية الكريمة كاشفة عن أدب من آداب الإسلام فى التثبت قبل الحكم على الناس والأحداث .

من أين تهب رياح الخطأ !؟

إذا كانت وظيفة العقل : ترتيب المقدمات . وصولا إلى نتيجة صحيحة ، فإن العقل قد يخدع أحيانا فلا يهتدى إلى الحكم الصحيح لسببين :

أ ـ خداع الحواس . أو القصور فى استخدامها .

ب- الحالة الوجدانية عند اتخاذ القرار .

والوليد بن عقبة رضى الله عنه ـ مع اليقين بحسن نيته ـ لم يستعمل كل مداركه لكشف أبعاد الموقف . .ثم أسرع بالعودة . وفى ذهنه صورة بتراء لما حدث . وكان عليه أن يدقق النظر جيدا . . وعن قرب . . وأن يصيخ السمع بكل طاقته . . .ليتأكد من تفاصيل الموقف ، قبل أن يتورط فى رفع هذا التقرير المتسرع إلى رسول الله ﷺ . . والذى كان من الممكن أن تترتب عليه آصار تجر الأمة إلى حرب أهلية .

وما أكثر الأبرياء الذين نسيء الظن بهم . . فنحبسهم فى سجون من ضلوعنا ظلما وعدوانا . . بينما هم غائبون لا يملكون الدفاع عن أنفسهم . ولما سلبناهم حقهم فى البحث والتدقيق ظلمناهم . . بل ظلمنا أنفسنا حين لم نعطها حقها فى التدبير . . فزايلنا الإنصاف . . وكان الإجحاف .

خداع الوجدان :

كان هناك ثأر قديم بين الوليد وبنى المصطلق كما أشرنا .

ولقد ألقى ذلك الثأر ظلاله على القلب الذى كان مهيئًا لسوء الظن بقوم له معهم تجربة مرة . وهذا هو خداع الوجدان الذى يحب ويكره أحيانا .

والمفروض أنك تحب من أحسن إليك . . وتكره من أساء إليك . . لكن الخطورة أن تطغى العاطفة على العقل وعلى الجوارح . . فتسخر ذلك كله لمصلحة شخصية .

وذلك ما تورط فيه الوليد رضى الله عنه . . عندما تدخل النفور القلبى فساق النشاط العقلى والحركة العملية فى اتجاه ما يهوى القلب !

ولقد كان السلف الصالح على أوفى ما تكون اليقظة . . وها هو ذا أحدهم يتحرر بوجدانه من مضاعفات مثل هذا الموقف . . فقرر ألا يكون نشاطه لخدمة عواطفه المتقلبة ، كان إذا عرض له أمر . . فأحس فى قلبه بميل إليه . . عرف أنه حرام . . فاجتنبه . . وإذا أحس من نفسه نفورا من أمر . . أحس بأنه حلال فأقدم عليه .

وبذلك انفصلت السلطات داخل كيانه ، سلطة العقل . . وسلطة القلب . . فلم تطغ واحدة على أخرى . . ولكنهما يتعاونان . . بينهما برزخ لا يبغيان .

دروس من الآية الكريمة:

لقد كان من تدبير الله تعالى أن يتسرع الصحابى الجليل فى الحكم على بنى المصطلق . . ليظل الدرس حاضرا فى ذهن الأمة لا يغيب . . حتى تقدر للرجل قبل الخطو موضعها . . وكأنما أراد الحق سبحانه بمجموع التجاوزات التى حدثت فى بواكير الدعوة الأولى . . أن تكون علامات على الطريق . . حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها . . ولتتعلم الأمة من الفشل . . كما تتعلم من النجاح .

والحق سبحانه ينادى الأمة بوصف الإيمان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

والإيمان نعمة ينبغى أن تشكر بالالتزام بنتائجها وأهمها :

التثبت قبل الحكم . . حتى يظل المجتمع الإسلامى صفا واحدا غير قابل للاختراق . . والمفروض فى المؤمنين أن يكونوا على درجة من الوعى لا تسمح لفاسق أن يهز كيانها . . ولو فرض وكان . . فلا بد أن يكون عنصرا غريبا يجيئها من الخارج: ﴿ إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ .

فهو نبات شيطانى مستورد .

أما أن ينبت فى أرضها . . فذلك مشكوك فيه بحكم الإيمان المانح أتباعه بصائر واعية . . تشكل سورا عاليا . . حتى لا يتسلق دعى أسوار الأمة المانعة . . لتصبح فريسة لندم . . ماكان أغناها عنه لو أنها وازنت الأمور . . ولم تعط مداركها لزعامة كاذبة خاطئة . . تسلط إعلامها المزيف ليجعل من الرمال قصورا . . ثم تدفع الشعوب ثمن تهورها . . أو تدهورها .

من ثمرات الإيمان :

مع أن بطل القصة صحابى جليل . . اجتهد فأخطأ . . لكن القاعدة تقول : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . . لقد أصبحت القضية درسا عاما . . للمجتمع كله . . ومن ثم . . لم يكن غريبا أن تعبر « بالفاسق » . . بلا حساب لما قد يصيب الصحابى من حرج يحسه من قسوة هذا الوصف الذى يأباه الإيمان .

* فالحق سبحانه وتعالى يريد بقسوة التعبير شدة الردع حتى لا يتكرر الخطأ مستقبلا . . هذا أولا .

* وثانيا : أن دولة الإيمان لها نظامها المانع من الحرج فى أعقاب المعصية . . إنها قد تصيب العاصى بالاكتئاب وقد تحمله على الهروب من مواجهة الموقف وإذن فلينقذ نفسه بالتوبة النصوح .

دولة المؤمن :

لقد أخطأ الصحابى الجليل . . وهذا حق . . لكنه بحكم الإيمان يتعلم الدرس . . ثم يعود بالتوبة أطهر مما كان . . يمارس حياته مع الجماعة بلا عقد . . تعقد حياته.

وتلك هى دولة المؤمن التى لا تعرف الأمراض النفسية . ولا الطب النفسى - إن علم نفس «فرويد» و «ادلر» وغيرهم من علماء الغرب . يقف عاجزا خارج أبواب هذه النفس المؤمنة . . ولا حاجة لهذه النفس المؤمنة الكاملة إلى ترهات « فرويد» وعقده وكوابيسه . لأنها تخطت الفلك « الفرويدى » وتخطت النفس الحيوانية ، التى يتحدث عنها « فرويد » وارتفعت بإيمانها إلى فلك آخر نورانى . لا يعرفه علم النفس الغربى . وهذا الإيمان العالى هو فى ذاته شفاء النفوس . وبلسم الأرواح .

النفس المؤمنة لا تعرف الاكتئاب :

وهذا الإيمان هو الذى أصلح بال صاحبه مصداقا للآية الكريمة : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد : ٢] .

ولقد قال علماؤنا : إذا سمعت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾:

فأصغ . . فإنه خير تؤمر به . أو شر تنهى عنه . والنداء بوصف الإيمان فى الآية الكريمة فاتحة خير ، وبارقة أمل ، يوحد الفكر ، وينقذ المذنب من الشتات ، فتجتمع الهمة ، وتنقشع السحب ، وتتضح الرؤية ، ثم يسود الهدوء ، ليتوفر الجو المعين على اتخاذ القرار السديد . . وهكذا وكما قيل بحق : (إن النفس المؤمنة لا تعرف الاكتئاب . . فهى على العكس نفس متفائلة . تؤمن بأنه لا وجود للكرب ما دام هناك رب، وإن العدل فى متناولنا مادام هناك عادل . وإن باب الرجاء مفتوح على مصراعيه مادام المرتجى والقادر حيا لا يموت).

أهمية التثبت قبل الحكم :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ

اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧، ٨] فى موجة حماس طارئة طالب بعض المسلمين بالمسارعة إلى تأديب بنى المصطلق فور سماعهم نبأهم من الوليد بن عقبة . وكانوا مدفوعين بحميتهم وغيرتهم على دين الله . . وجاءت هذه الآية الكريمة لتذكرهم بأن هذا التسرع ليس له ما يسوغه . فالرسول ﷺ حاضر بينهم . . وهو الرائد الذى لا يكذب أهله . . ومن ثم فيجب عرض الأمر عليه ليقول فيه كلمة الفصل . . وهو المؤيد بالوحى الأعلى . .لقد كان الوليد مخلصا فيما فعل . .وكان هذا البعض أيضا مخلصا فيما أشار .

بيد أن الإخلاص وحده لا يكفى . . فالقضية خطيرة . . ونتائجها معروفة سلفا . . وإذن . . فالتثبت واجب .

وإلا . . فلو أن الرسول ﷺ سارع ونفذ مقتضى هذا التقرير الخاطئ . . ثم حقق اقتراح هؤلاء بسرعة عقاب القوم . . لحدث ما لاتحمد عقباه . . وأصابهم من الندم والجهد والتمزق ما الله به عليم .

وكان من الممكن أن يحدث هذا التمزق لو لم يكن فيكم رسول الله ﷺ ، أما وهو موجود فهذا تناقض . ثم يحدث وقد منحكم الله الإيمان هبة منه . . بعد أن حبب إليكم هذا الإيمان الذى صار نور حياتكم ؟ ذلك ما لا يكون .

فلتحذر الأمة المسلمة من خبر الفاسق . .من كل إعلام منحرف يزين من الأقوال والأفعال ما يقضى على الثقة الجامعة قلوب الأمة على كلمة سواء ، ولتأخذ معلوماتها من المصدر الموثق ، إبقاء على هذه الثقة . . ولتقضى فى نفس الوقت على كل محاولة مغرضة ، إن للإيمان تكاليفه ، وللرشد ضريبته ، فلنكن دائما أهلا لذلك الرشد ، وهذا الإيمان .

من آصار التساهل :

تقول اللغة : إن « النبأ » يعنى الخبر المهم . . أما الخبر : فهو الأمر العادى المتوقع . .

ويعنى ذلك مزيدا من الحذر إذا جاء الفاسق بأمر مهم يترتب عليه فساد ذات

البين التى لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، مع ملاحظة أن أضرار التساهل فى قبول أخبار المنحرفين لا تصيبنا وحدنا .

ولكنها تصيب أقواما أبرياء ولا يقف الجهل حينئذ عذرا مادامت وسائل التثبت من صحة الخبر ميسرة وافرة ، ومادام الرسول ﷺ فينا ، وأيضا لا ينفع الندم على نهاية مؤلمة صنعناها بأنفسنا . . وكان فى الإمكان تلافيها .

(فاتركوا عبادة الجاهلية . . فإن الله تعالى لم يترككم عليها . ولكن الله حبب إليكم الإيمان . .

تثبتوا فى الأمور كما يليق ـ بأهل ـ الإيمان . . فإن الله حبب إليكم الإيمان) [1] وبعد :

فإلى المسؤولين فى المواقع القيادية أن يتقوا الله فى قبول التقارير فى شأن مرؤوسيهم . . حتى لا يصير تقرير الفاسق فى موظف أشد قبولا من قول الصادق الصالح فيه .

فالتثبت هنا أدخل فى المسؤولية من حيث اتصاله بالترقية المادية والأدبية فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله .

•

---

(١) الرازى .

صيام

عن الكلام

يقول الله عز وجل :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون : ١-٤] .

تمهيد :

عندما مر الرجل الصالح على واحد من مجالس الشباب . .لفت نظره أن واحدا منهم كان يتصدر المجلس : عالى الصوت . . كثير الكلام فكان منه ذلك الدرس البليغ عبر هذا الحوار الهادف: قال الشيخ للفتى المتعالم : هل ترجو بكلامك هذا ثوابا ؟ فقال الفتى : لا . .

فقال له الشيخ : وهل تتوقى به عقابا ؟ فقال الفتى : لا . .وعندئذ قال له الشيخ محذرا :

لماذا إذن تصر على مباشرة أمر : لا ترجو به ثوابا . . ولا تتوقى به عقابا ؟!

ومن دروس الموقف :

أن الشيخ هنا يحمى الفتى من كيد الشيطان . . الذى يتخذ من فضول الكلام سبيلا إلى إحباط سعيه . . فإذا أمسك الفتى عن (فضول الكلام) يسد عنه بابا من الشر :

وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال ﷺ لمعاذ : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم ».

وقفات بين يدى الآيات

إن المسلم يتحرك صاعدا . .بالصلاة : تعظيما للخالق . .

ثم تكون حركته الأفقية «بالزكاة» شفقة على المخلوق . وبذلك تتم العبادة صدقا

وعدلا بتحقق عنصريها:

أ- تعظيم الخالق .

ب- والشفقة على المخلوق .

ولكن الشيطان الرجيم يحاول أن يقطع عليه الطريق بما أشارت إليه الآيات الكريمات :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ـ ١٧] .

وإنها لمعركة ضارية يخوضها الشيطان بما يملك من أسلحة المكر والخداع . ومنها: فضول النظر . وفضول الكلام . والطعام ومخالطة الناس .

ما هو اللغو؟

إن اللغو من الكلام هو مالا يعنينا من الكلام :

حتى الكلام المباح . . عندما لا تكون هناك حاجة إليه . مما ترفضه مروءة الرجال :

والمؤمنون :

يصفهم ربهم :

(بالحزم . والاشتغال بما يعنيهم . وما يقربهم إلى مولاهم فى عامة أوقاتهم).

ومن سماتهم أنهم : (إذا مروا باللغو مروا كراما) بمعنى :

أنهم إذا سمعوه : كنوا عن القبيح . ولم يصرحوا به .

وإذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم) بصائر ذوى التمييز / ج/ ٤ .

أما اللغو المعفو عنه . . فهو المشار إليه بقوله عز وجل : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

فالمقصود به :

(ما يجرى فى الكلام على غير عقد) « لسان العرب ».

على ما يقول الشاعر :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله   إذا لم تعمد عاقدات العزائم

والتعبير بقوله عز وجل : (معرضون) بالاسم . دليل على أن الإعراض عن لغو الكلام صار لهم ملكة راسخة بمعنى : أنهم لا يمتنعون عنه فى الصلاة فقط . .

وإنما يمتنعون عنه فى كل الأوقات : فطرة تبذل نفسها تلقائيا .

وحتى لو كان منهم تبسط فى الكلام . . فهو كلام لا لغو فيه ولا تأثيم .

وهى صورة من صور الإحسان . . الصادرة عن قاعدة تقول :

لقد أحسن الله إليك . . مع حاجتك إليه . . فأحسن إليه سبحانه . . وهو فى غنى عنك . . أحسن كما أحسن الله إليك . .

معنى الإعراض :

أولا : لا يتسببون فيه .

ثانيا : لا يفعلونه .

ثالثا : لا يرضون به .

رابعا : لا يخالطون من تورط فيه .

يقول صاحب الظلال :

[إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللهو واللغو والهذر : له ما لا يشغله عن ذكر الله . وتصور جلاله . وتدبر آياته فى الأنفس والآفاق .

وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب . ويشغل الفكر . ويحرك الوجدان :

وله ما يشغله من تكاليف العقيدة :

تكاليفها فى تطهير القلب . وتزكية النفس . وتنقية الضمير . .

. . ولاينفى هذا أن يروح المؤمن عن نفسه فى الحين . بعد الحين :

ولكن هذا شىء آخر غير الهذر واللغو والفراغ] ا . هـ

فاجعل لحياتك معنى . . واجعل لهذا المعنى هدفا . .

فإن فعلت . . فإنك إذن من المفلحين .

وحرى بالمؤمن أن يعد كلامه من عمله . . . ليكون منه على حذر . .

وهكذا كان الصالحون : والذين بلغ بهم الورع درجة ليس وراءها وراء :

كان الإمام أحمد بن حنبل مريضا مرضا فرض عليه أن يئن . .وبصوت مسموع: فسمع واحدا من عواده يقول :

« إن الملكين يسجلان . . حتى أنين المريض ! وعلى الفور . . كف عن الأنين . . مع أن الأنين مجرد « صوت » وليس جملا يحسن السكوت عليها . . مسجلا بذلك ورعه . .بالتخلى عما فرض عليه . ولم ينشئه اختيارا . .متحملا بركان الألم يهز كيانه هزا . .

ولكن « سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص كان له شأن آخر فقد كان من رأى عواده أن ينفس عن نفسه بأمرين :

أ - بالأنين . .

ب - وبوصف ما به للطبيب . .

ولكن الرجل يرفض هذه الشفقة قائلا : أما الأنين : فإنه جزع . وعار . ولا يسمع الله منى أنينا . فأكون جزوعا .

وأما الطبيب : فوالله . .لا يحكم غير الله فى نفسى : فإن شاء قبضها . . وإن شاء من بها على !!

وهكذا . . يمسك الرجل عن الشكوى . . حين قرر الصمت . . راضيا بحكم الله عز وجل . . وقبل أن يأكل الكلام حسناته كما تأكل النار الحطب ! .

وعندئذ كان فى مرضه الخطير على أوفى ما يكون الاستقرار النفسي :

مع الله تعالى : بالذكر والصبر

ومع الناس : بالأخوة .

ومع النفس : بتطهيرها من كل ما يعكر صفوها . . ولو كان لغو الكلام !

الأعرابية .. ولوثة المدنية:

سمعت أعرابية صراخا فى دار . . فتساءلت : ما هذا !!

قالوا : مات لهم عزيز !

فقالت : ما أراهم إلا :

أ- من ربهم يشكون .

ب- وبقضائه يتبرمون .

ج- وعن ثوابه راغبون [معرضون].

ولعلها كانت الزيارة الأولى لهذه الأعرابية للمدينة . . التى رأت من عاداتها مالم تألفه . .

ثم كان منها ذلك النقد اللاذع . . والذى جعل من هذا الصراخ موقفا من قدر الله تعالى . . والذى يجب الرضا به . والتسليم بحكمته . .

وليت شعرى . . إذا كان هذا رأيها فى لوثة من لوثات المدنية . . فكيف كانت تقول لو تأخر بها العمر فرأت ما يفعل الرجال اليوم من سرادقات ولقاءات ونفقات؟

الدرس العملى :

روى عن عمرو بن عبيد أنه قال له تلميذه : يا أبا عثمان ، إنى لأرحمك مما يقول الناس فيك . فقال : يابن أخى : أسمعتنى أقول فيهم شيئا ؟ قال : لا .

قال:

فإياهم فارحم !!

أجل : إنهم أولى بالرحمة منه :

من حيث إنه الفائز بما أضيف إليه من حسناتهم وهم الخاسرون بما أضيف إليهم من سيئاته . .

فأى الفريقين أولى بالرحمة ؟!!

وموقف « عمرو بن عبيد » يذكرنا بقوله عز وجل :

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩].

إنهم قوم ساء عملهم بصدهم عن سبيل الله تعالى . .

وهو حكم عليهم بما قدمت أيديهم :

فمن قوانين البيع والشراء . . أنك تدفع المال ثمنا لسلعة هى أغلى منه . .

ولكن هؤلاء الناس يعكسون القضية :

يدفعون الآيات فى مقابل ثمن زهيد . . شروا الأردأ على الأغلى . .

وهكذا كان موقف « عمرو بن عبيد » :

لقد كان كما قيل فيه :

كلهم طالب صيد . . غير عمرو بن عبيد !!

وذلك أنه رفض أن يستجيب لرد العدوان . . فكان موقفه درسا لمدرسة تحرض المشتوم على ضرورة الرد على من شتمه ثأرا لكرامته . . إنه حافظ على سلعة الحسنات التى اكتسبها بالصبر . . والتى لا يعادلها أن يرد على شاتميه . . الأولى بالإشفاق حين شتموا فحرموا بالشتم من ثروة دونها كل ثروة .

ثم هو فى النهاية درس للتلميذ فى رفض الغيبة : درس يتلقاه عمليا . . فلا

ينساه أبدا .

ولعل الإحساس بحجم خسارة المغتاب هو الذى كان من وراء ما حدث « لدواد الطائى » يوما ذات يوم مر بمكان . وفجأة وقع مغشيا عليه !!

فحمل إلى منزله . .

ولم تكن المفاجأة عند أهله الذين غادرهم صاحيا . . ثم عاد إليهم فاقد الوعى . .

وإنما كانت المفاجأة عنده هو . .

وذلك أنه لما أفاق عن ذلك ، فقال : ذكرت أنى اغتبت رجلا فى هذا الموضع ، فذكرت مطالبته لى بين يدى الله تعالى . .

فكان ما كان !

الدفاع عن الغائب :

ولقد كان الإخوة من الوفاء للغائب والحاضر معا . حتى لا تكون غيبة تخصم من حسنات أحد : فى مجلس من مجالس « أحمد الغزالى » سأله سائل :

« إن عليا كرم الله وجهه قال عن نفسه :

« لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا »

مع أن إبراهيم الخليل عليه السلام يقول فيما حكاه القرآن عنه :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠].

فهل كان على أقوى يقينا من الخليل !!!

فأجاب على الفور :

« اليقين : قد يتصور معه الجحود ».

يقول عز وجل :

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] .

أما « الطمأنينة » فلا يتصور معها جحود لأنها استقرار . وسكينة . وهدوء !!

وأحيانا . . كانت السخرية ذلك السلاح الحاد . . والذى يعاتب من تورط فى غيبة أخيه :

دعى إبراهيم بن أدهم إلى وليمة فسمع من يغتاب غيره . فقال : زمان : كنا نأكل الخبز قبل اللحم أما أنتم اليوم . . فقد عكستم القضية تأكلون اللحم . . . قبل الخبز . . . يقصد الغيبة .

وهكذا . . يذكر الآكلين لحوم إخوتهم . . يذكرهم بما يحفظونه من آيات القرآن . . ثم لم يحافظوا على ما ضمت عليه الآيات من عظات .

ولنا هنا تعقيب :

فالذى يغتابه الناس مسؤول أولا إذا وضع نفسه موضع التهم .

أما المغتاب : فمسؤوليته مباشرة . . ومن الناس من يسكت إذا اغتيب منافسه . . لأنه لا يريد أن يقسم شرفه على اثنين :

هو . . ومنافسه . . فهو أنانى . .

وبنفس القوة ربما كان الوضيع . . أنانيا حين يغتاب الشريف ليقسم وضاعته على اثنين .

وإذن . . فأطراف الغيبة فى الإثم سواء !!

أما بعد :

فإن مجالس البشر :

إما جمال : يبلغ القمر فى سمائه .

وإما دمامة : تنحط إلى الذباب فى أقذاره .

ومجالسنا تحت رقابه الله عز وجل . . ونحن محاسبون عليها:

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ [المجادلة:٧].

وإذن فلتكن مجالسنا جميلة جمال القمر

﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المجادلة :٩]

ولقد كان اليهودى إذا رأى مسلما .. يميل على صاحبه كأنه يبيت شرا.. ليحزنه..

وقد قال تعالى فى ذلك

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ... ﴾ [المجادلة :٨].

ألا إن هدف الإسلام الأكبر هو :

ربط المسلم بما يبقى :

(وإذا عصتك نفسك فيما تكره ... فلا تطعها فيما تحب)

وكان سلفنا الصالح عند حسن الظن بهم :

فسعوا لعمارة الآخرة .. متجاوزين مناعم الدنيا ومن صور ذلك :

يسأل أحدهم صاحبه :

ما هى « الوظيفة » التى تشتاق إليها . فيقول « حفّار قبور » أو « خدّاد ».

ليظل ذاكرًا آخرته ..والتى نفر نحن اليوم من كل ما يذكرنا بها ...

ولكنهم مع ذلك عمروا الدنيا .. بمعنى .

أنهم يصلون إلى الآخرة ...عن طريق الدنيا ولو أنهم لزموا المساجد ..ما أغاظوا الأعداء

إن مشكلة المسلمين اليوم :

١- أنهم يتحركون خارج نطاق القرآن : يحفظونه .. ولكنهم لا يحافظون على مبادئه .

٢- ومنهم الذين يحلقون فى أجوائه فعلا ولكنهم مشغولون بقضايا مثل :

إبليس من الملائكة أم من الجن ؟

وكان الظن أن يسألوا عما به صلاحهم من مثل :

تاب الله سبحانه على آدم ولم يتب على إبليس :

فلماذا ؟

نهاية المطاف:

فقد نستطرد فيما لا يجدى من القول . . وفى نفس الوقت يتراجع نصيبنا من الحسنات . . ونحن لا ندرى :

روى الترمذى : أن رجلا من الأنصار توفى .

فقال بعض الصحابة : طوبى له .

فقال النبى ﷺ : « فما يدريك ؟» .

«فلعله تكلم بما لا يعنيه . أو بخل بما لا ينقصه » وهكذا : على عظمة الصلاة والزكاة . . ولكنها من اللسان على خطر عظيم :

وصدق القائل :

« ما شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان » .

فليحذر الإنسان !!

فليحذر من فضول الكلام :

(ومن يفعل ذلك :

فقد أخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم . وفتح عليها أبواب الرحمة . وانغمر ظاهره وباطنه .

ويوشك أن تحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء: فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح يحمد القوم السرى) .

من الإشارات العلمية
فى القرآن الكريم

تمهيد :

بدعوة كريمة من جامعة « جنوب الوادى » كان لى شرف الإسهام فى مؤتمرها حول الإشارات الحضارية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وكان مما قرره واحد من الزملاء أنه مشرف على رسالة « دكتوراه » عن «عسل النحل » . . لما فى هذه المملكة من أسرار . ذكر بعضها . . ثم لم يذكر ما ضمت عليه آية سورة النحل وهو بيت القصيد :

يقول عز وجل : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل : ٦٨]

وقلت له: تذكر أن جودة العسل إنما هى على الترتيب الذى ذكرته الآية الكريمة : عسل الجبال . . . ثم . . الشجر ، ثم . . ومما يعرشون

وكانت مفاجأة بسببها اتفقنا على أن يكون لمثل هذه الأبحاث مشرف مهتم بالدراسات الإسلامية . . متعاونا مع زميله : المشرف العلمى .

ثم كان من تدبير الله تعالى أن يتأكد ذلك الاتفاق بسبب ما قرأته من بحث حول « السمع والبصر » فى القرآن الكريم الأمر الذى حرك الرغبة الكامنة فى أن أتتبع الآيات الكريمة . . مضيفا بعض ما فهمته . . منطلقا من القاعدة التى تقول :

لا يضيع العلم بين اثنين .

وما قرأته لم يكن هو البحث بنصه وإنما هو تلخيص له على صفحات مجلة «البيان » فى الإمارات العربية المتحدة :

تقول المجلة :

يقول عز وجل:

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

ويقول الباحث: إن هناك آيات أخرى تعد بالعشرات تقرن بين السمع والبصر ، وأول ما يلفت النظر فيها هو ذكر السمع قبل البصر مع أن البصر لا يقل عن السمع أهمية وقد يفوقه في الأهمية . وذكر السمع قبل البصر مطابق للحقيقة العلمية فبينما يصبح الجنين سميعا وهو في الشهر الثالث من الحمل لا يصبح بصيرا إلا بعد الولادة بأسبوعين .

فاكتمال حاسة السمع في هذا الطور المبكر يعطي الجنين فرصة الاستماع إلى دقات قلب أمه فترة كافية تجعله يستوعبها تماما بحيث يتذكرها بعد الولادة كلما ضمته إلى صدرها وبهذا يهدأ ويطمئن وقت الإرضاع . أما حاسة البصر ، فإن أعضاء الأبصار لا تمارس وظائفها إطلاقا طوال الحياة الجنينية ـ رغم إكمال تكوينها ـ لانعدام الضوء اللازم لنقل صور المرئيات . . فضلا عن أن الجنين ليس في حاجة إلى ممارستها أصلا . . وأول ما استوقفني وحيرني في عشرات الآيات التي تخص حاسة الإبصار بالذكر هو اختلاف اللفظ المستعمل للتعبير عنها فهو أحيانا يكون مشتقا من لفظ «بصر» وأحيانا أخرى من لفظ « رأى » . وفى أحيان ثالثة من لفظ « نظر » فالتعبير بلفظ « بصر » يتمثل في قوله تعالي على لسان السامرى مخاطبا موسى عليه السلام ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ [طه:٩٦] والتعبير بلفظ: « نظر » يتمثل في قوله تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ . . والتعبير بلفظ رأى يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] والألفاظ الثلاثة مختلفة تماما في البنية اللغوية وليس بينها حرف واحد مشترك سوى حرف الراء . . كما أنها ليست من المترادفات بحيث يصح استعمال أى لفظ مكان الآخر . . كما أنه ليس صحيحا أن استخدام الألفاظ الثلاثة إنما هو من قبيل التنويع . . خصوصا إذا وردت مجتمعة كما في الآية الكريمة : ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فالقارئ المستدبر لابد أن يكتشف وراء هذا التنويع اللفظي وظيفة أهم هي دقة التعبير عن خصوصية المعنى . . ولكي يتحقق ذلك نستعرض الحقائق العلمية الأساسية وهي أن وظيفة الإبصار إنما هي عملية مركبة من شقين متكاملين هما الشق النظري وتقوم به العين ، ثم شق الرؤية ويقوم به مركز عصبى خاص في قشرة المخ وهو متصل بشبكية العين عن طريق العصب البصري . وبقيام هذا المركز بإدراك ما يرد إليه من الشبكية تتم عملية الإبصار .

وبالتالى فيمكن تعريف عملية الإبصار بأنها : « الإدراك الحسي لعالم المرئيات ذات الكيان المادي بعد النظر إليها في الضوء » . . كما أن الصور التي تسقط على الشبكية لا تنطبع عليها مثلما تنطبع الصورة الفوتوغرافية على سطح الفيلم الخام . . وإنما تنتقل فورا على شكل ومضات عصبية عبر العصب البصري لتصل إلى مركز الرؤية . والتكامل الوظيفي بين العين والمخ في إتمام عملية الإبصار لا يمنع من أن يقوم كل منهما ـ في أي وقت ـ بعمله مستقلا عن الآخر مع اختلاف النتيجة وفقا للجزء الذي يعمل .

نظر بلا رؤية ورؤية بلا نظر :

وبناء على تلك الحقائق الأساسية فإن عملية الإبصار لا تتم إذا انعدم أحد شقيها. ولكن الشق الذي يتم أداؤه يأخذ شكل ظاهرة غير مألوفة لأنها تمثل عملية فسيولوجية ناقصة . والظاهرتان المحتملتان كنتيجة لهذا الانفصال الأدائي بين العين والمخ هما : النظر بلا رؤية والرؤية بلا نظر .

ففي حالة النظر بلا رؤية يحدق الناظر بعينين سليمتين مفتوحتين في الجسم الموضوع أمامهما . . ولكن الناظر إذا سئل عما أمامه لأنكر أن أمامه شيئا . والنظر بلا رؤية وبالتالي بلا إبصار يحدث عندما يكون الناظر شارد الذهن أو في حالة رعب شديد مفاجئ أو واقعا تحت تأثير الخمور أو المخدرات . فكل هذه تسبب عطلا مؤقتا لخلايا المراكز العصبية في المخ . . والنتيجة هي حالة عمى مؤقت يزول بزوال أسبابه .

أما إذا أصيبت خلايا مركز الإبصار بتلف عضوي فالنتيجة هي العمى الدائم على الرغم من سلامة العينين . أما الرؤية بلا نظر فتحدث نتيجة عطل في عضو النظر «العين » أو عضو نقل الصورة « العصب البصري » أو كليهما بشرط بقاء المراكز العصبية سليمة عضويا ووظيفيا والرؤية بلا نظر يمكن أن تحدث أيضا رغم عدم وجود ما يمكن النظر إليه أصلا .

وذلك باستحضار بعض المشاهد القديمة من الرصيد المخزون من عمليات إبصار سابقة . وهذا يدخل في باب أحلام اليقظة قياسا على الأحلام التي نراها أثناء النوم.

من وحي آيات البصر :

وفي ضوء الحقائق العلمية السابقة نقرأ قول الله تعالى : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١] .

والموقف هنا حدثت فيه عملية إبصار تامة الأركان : فأخت موسى أولا قامت بالنظر هنا وهناك بحثا عن أخيها الطفل المنشود والذي سبق لها النظر إليه ورؤيته . . وبالتالى إبصاره ، فلما وقعت عيناها عليه في هذا المكان الجديد تكونت له في مخها صورة مطابقة لتلك التي اختزنها عقلها الباطن في مرات سابقة . .فتعرفت عليه . أما والحالة هذه فأي الألفاظ الثلاثة تعبيرا عن هذا الموقف ؟ لاشك أنه لفظ « بصر » الذي ورد في النص القرآني للتعبير في إيجاز معجز عن اكتمال أركان عملية الإبصار.

وفي سورة النور يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] والأبصار المذكورة هنا هي العيون التي هي النوافذ التي تطل منها على الموجودات والعين ـ عمليا ـ هى عضو النظر . . فلماذا لم يستعمل لفظ الأنظار واستعمل لفظ الأبصار ؟ لو اقتصرنا على الجانب اللغوي لقلنا إن هذا نوع من البلاغة التي يستعمل فيها ما سوف يكون محل ما هو كائن . ولكن هذه البلاغة لها أيضا سند علمي إذ أن النظر هو بوابة البصر .

ومنع عملية الإبصار يتم بسهولة أكبر لو بدأنا بإغلاق الباب المؤدي إليه وهو العين.

ومن مظاهر عدالة الله: أن جميع العضلات المتحكمة في تحريك كرة العين وفي فتح الجفون وإغلاقها هي من النوع الإرادي الخاضع لسيطرة المخ . وهو الذي يحوي مركز الإبصار كما يحوى مركز الحركة . أي أنه هو المتحكم الفعلى في حركة تلك البوابات) (١) .

وسائل المعرفة :

١- الحسى .

٢- العقل .

يقول عز وجل : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل :٧٨] .

والسؤال : لم خص السمع والبصر بالذكر هنا ؟

ونبادر فنقول : وخصهما أيضا بالذكر فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

العقل :

لا منتهى لمدركاته .

والبصر يدرك : الألوان . والأشكال . والمقادير .

والسمع يدرك : الأصوات فقط .

وفى الآية التى استهل بها وهى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

يلاحظ إفراد السمع والبصر والفؤاد كذلك . . لأن الحديث عن مسؤولية الإنسان الفردية عن كل ما يسمع ويبصر ويفهم . .

---

(١) من بحث للدكتور عفيفى محمود عفيفى الأستاذ بكلية العلوم جامعة المنصورة .

ومن أجل ذلك أفرد .

أما فى قوله تعالى :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة : ٧] .

فهذا النموذج :

١- يسيطر عليه هواه .

٢- فتعطلت وسائل الإدراك .

٣- وفى طليعتها القلب . .

فقدمه تعالى لذلك .

يمتن الله تعالى علينا بنعمة السمع ونعمة البصر . . ولا يمتن بآلة السمع ولا بآلة البصر وهما :

الأذن والعين . .

وإذ يعنى الإنسان بأذنه أو بعينه . . فإن العناية العظمى إنما تكون بوظيفة كل منهما . .

أما نفس الآلة فليست وحدها محل امتنان .

والناس اليوم فى غفلة ساهون : يعتنون بالجارحة . . ثم لا يذكرون وجه النعمة فيها . .

﴿ . . . وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦]

ومن مسئوليتنا :

١- رفض التقليد .

٢- رفض اعتقاد الخطيئة الموروثة .

٣- عدم الخوف من الآخرين . اتكالا على الله عز وجل .

٤- عدم تعطيل الآلات عن أداء وظيفتها : فرارا من هذه الوصمة : فى قوله عز

وجل : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

أهمية البصر :

فى تراثنا العربى ما يؤكد أهمية البصر :

قال الشاعر :

وتنال منك بحد مقلتها

ما لا ينال بحده النَّصل

إن العيون التى فى طرفها حور

قتلننا ثم لم يحين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به.

إن لله فى العباد منايا

سلطتها على القلوب العيون

وقالوا:

ليس بعد العين أين

والصب تفضحه عيونه

إنما تبرق العين بالابتسامة . . قبل الشفتين

وقالوا :

وفى العين غنى للعين . . أن تنطق أفواه

والعيون :

نوافذ العقل ، ووتر العاطفة ، ومرآة الذات

وإذا أردت أن تعرف المكنون . . فتأمل العيون

جاء فى « طوق الحمامة » لابن حزم /١٠٥ :

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة : نهى عن الأمر .

وتفتيرها : إعلام بالقبول .

وإدامة النظر : دليل التوجع والأسف .

وكسر نظرها : آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها: دليل على التهديد .

وقلب الحدقة إلىٰ جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه .

ثم يقول :

والحواس الأربع أبواب إلى القلب والعين أبلغها .

أشارت بطرف العين خيفة أهلها

إشارة مذعور . . .ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا .

وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

فائدة البصر :

١- التوقى من الخطر .

٢- الاعتبار بالمرئيات .

٣- يمكن التحكم فى كل الجوارح إلا العين :

فهى النافذة التى نطل منها على ما فى أعماق الإنسان .

قال صاحب المنار :

[للعقل وجوه كثيرة فى إدراك المعقولات . فليس الناس فيه سواء . فجمع لاختلاف الناس فيه .

هذا على أن القلوب يراد بها هنا العقول بخلاف السمع .

فإن أسماع الناس تتساوى فى إدراك المسموعات . .فلا تتشعب تشعب العقول .

وأما الأبصار : فهى مثل العقول فى التشعب. وأعظم معين للعقول فى إدراكها.

ومن عجيب صنع الله عز وجل :

أن العينين شىء واحد . . ولكنهما منفصلتان ولا ترى إحداهما الأخرى

وهنا سؤال :

إذا كان البصر بهذه المثابة . . فلماذا قدم السمع على البصر ؟

قال أحد العلماء : قد لا يكون التقديم للتفضيل بدليل :

ذكر الأنبياء فى سورة الشعراء . . بلا ترتيب وقال قائلهم :

[أنا لا أتكلم فى التفضيل . . فذلك إلى الله ورسوله .

وإنما أشرح موجودا .

وأبين مناسبة اللفظ له .

يقول صاحب المنار :

[ما يصلك من طريق السمع . قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر .

ولكن وروده على الحكاية لا يغير من حقيقته : فهو معقول أو مبصر .

فمن ذكر لك برهانا على حقيقة علمية . . فإنما تسمع منه الأصوات والحروف .

وأما فهمك المقدمات ووصولك منها إلى النتائج . فهو عن طريق عقلك لا من طريق سمعك .

وقد يكون التقديم :

١- لأن السمع مخلوق أولا .

٢- ويمارس وظيفته قبل البصر .

٣- دقة صنع آلة السمع . ويكون التقديم إذن حضا على ضرورة البحث عن أسراره .

يقول الباحث : « جميع العضلات المتحكمة فى تحريك كرة العين . وفى فتح الجفون . من النوع الإرادي ».

وما أثبته العلم هنا . ربما جاز لنا أن نراه على ضوء الآية الكريمة ٢٠ من سورة هود :

﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ .

والمعنى :

أنهم يستطيعون الإبصار . . ولكنهم لا يبصرون . . .

أما فى السمع :

فإنهم لو حاولوا . . ما استطاعوا .

وفيما يتعلق بتقديم « السمع » فى التكوين . . يمكن أن نسترشد بقوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

وفى تفضيل البصر قيل :

(لأن أنواع المبصرات كثيرة . فتعطى العقل مواد كثيرة .

والسمع لا يدرك إلا الصوت . . . . والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه : البصر .

فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة .

بخلاف السمع :

فإنه ينبوع واحد لااختلاف فيما يصدر عنه) .

يعنى :

لأن العقول والأبصار تتصرف فى مدركات كثيرة . . فجمعت . .

وأما السمع : فلا يدرك إلا شيئا واحدا . . فأفرد) .

أهمية السمع :

يقول عز وجل ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة :٧] .

لأن الله تعالى قدم السمع . .فهو الأفضل . . .

وذهب العلماء يتلمسون مظاهر هذه الأفضلية .

١- السمع أوسع مدى : فنحن نسمع من كل الجهات الست .

٢- ووظيفة السمع أشرف وأهم : فنحن نتلقى به الأحكام الشرعية . . وإذن فجنايتهم من حيث السمع أعظم :

أ- لأنهم يتلقون به الأحكام .

ب- وبه يتحقق الإنذار فكان تقديمه أحق وأنسب بالمقام .

والبصر أقل :

لأنه يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد .

٣- بواسطة السمع تنتقل الأفكار من عقل إلى عقل .

٤- من حيث الخلق : خلق السمع أولا . ويمارس وظيفته قبل البصر .

٥- السمع شرط للنبوة . .وما بعث نبي أصم . .

[ومن لا يسمع لا يتكلم] .

وإفراد السمع : لأنه مصدر والمصدر لا يجمع . .

والبصر أيضا مصدر فهو لا يجمع . .لكنه جمع !!

ومنهم من فضل البصر .

١- لأن القوة البصرية: نور : والسمع متعلق بالريح .

٢- البصر يرى من بعيد . .دون السمع .

٣- [عجائب صنع الله فى تخليق العين أكثر منها فى تخليق السمع] .

فى المثل [ليس وراء العيان بيان] .

ولذلك في قيام التوثيق قدّم البصر ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢].

٤- فى العين جمال ليس فى الأذن

ولعل الإمام عليا من هؤلاء حيث قدم البصر فى قوله :

سبحانه من بصَّر بشحم .

وأسمع بعظم.

وأنطق بلحم ! .

والحـــق :

أن القلب ملك . . يأتيه جنوده . . . كل فيما يخصه حتى الأنف ينقل إليه الهواء نقيا . . وإلا توقف القلب . .

ومن فقد حاسة فقد بمقدارها علم ما كانت سببا فيه . .

[ومعظم العلم : يتوقف على البصر .

والإرشاد والتعليم . . . يتوقف على السمع]

وفى قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

قدم القلب هنا . . لأن المقام للتأمل وهو وظيفة القلب

وقد كرر السياق القرآنى الحديث عن السمع والبصر :

(كل الآيات مكية إلا آية ٧و٢٠ من سورة البقرة فمدنيتان) .

لأن فى التكرار إيقاظا للحس ليبحث . . قبل أن يتبلد .

استطــــراد:

وكان عمر قد خرج من مكة . وكان حمزة قد خرج من مكة .

وحـتى داخل مكة . . كـان أبو بكر - وهو رجـل إذا صلى بكى - يصـر على أن

يصلى أمام أهل مكة . خارج باب بيته . . لاداخل الدار .

وليس هذا شأن الضعفاء .

ولكنه تصلب المؤمنين الصادقين :

فلم تكن الهجرة عملية لواذ من قوة غاشمة ولكن كانت انتقالا إلى أرض جديدة للدعوة تمهيدا لقيام الدولة الإسلامية) .

(إن الهجرة هنا تغيير يصيب عنصر الناس فيخرج منه طاقات كامنة .

وهى عملية أقرب ما تكون إلى نقل نبات من « أصص» صغيرة . محدودة القدرة . . إلى أرض جديدة واسعة: يترعرع فيها النبات الذى كان على وشك الذبول. لو ظل محصورا فى تربته المحدودة . . .

وفى المهجر : تنمو الطاقات . وتتكون الثروات .

وتنطلق القدرات .

وما من نبى ولا دين جديد إلا وهاجر النبى وهاجر روّاد الدين .

وانتشر الدين فى المهجر . لا فى البلد الأصلى] (١) .

وإذن فلم تكن الهجرة فرارا أو هروبا من خطر محدق بل كانت نقطة تحول انتقل بها الإسلام إلى مرحلة جديدة . نحن الآن فى حاجة إلى مثلها بعدما غشانا من الهوان ما غشى : بعدما استفحلت المشكلات . . وتشعبت القضايا . .

أجل نحن فى حاجة إلى هجرة اليوم . . من واقع متخلف إلى غدٍ أفضل . . ولكن على ضوء ما تعطينا هجرته ﷺ من أسس يستقيم عليها البناء . ثم يطاول السماء .

جناحا الأمة :

ولم يكن أجمل من المهاجرين فى تضحياتهم إلا الأنصار فى إيثارهم .

ولقد أثبت الله تعالى ذلك كله فى كتاب يتلى . . ويتعبد بتلاوته ما بقى الزمان

---

(١) من مقال للدكتور - فهمى الشناوى .

.. لقد فعل المهاجرون والأنصار أجمل ما يليق بهم ..

وإن خير احتفال بالهجرة اليوم أن نعود إلى هذه القيم .. والتى تتقاضانا أن نرتفع بها من المدارسة .. إلى الممارسة !

إيثار الأنصار :

أجل لقد كان الأنصار هم المرشحين لنشر الدعوة فلقد تجمع فى الأنصار ما تفرق فى العرب .. الذين اختصوا بأن يكونوا أول من يكلف بالإسلام .

ففيهم : نجدة ، وفيهم : فروسية .. وقوة .. وكانوا من عشاق الحرية التى جعلت هاماتهم مشدودة .. ورؤوسهم مرفوعة ...

ولم يقفوا موقف التابع الخاضع للغير أبدا

أغلى من الوطن :

وكانوا سائرين على سنة نبيهم ﷺ : فلقد عاش ﷺ فى مكة أكثر من نصف قرن من الزمان ... ومع ذلك لما اصطدمت عقيدته بوطنه .. لم يتردد فى النجاة بعقيدة سليمة .. مضحيا بذكرياته . متجاهلا نداء غريزة حب الوطن فى كيانه بل إن حبه لمكة كان عميقا :

أولا : لأنه يحبها ، فهى وطنه .. وفوق هذا لأن الله تعالى يحبها .

ومع ذلك .. يؤكد أن فى إمكان الإنسان أن يرحل بعقيدته التى هى أغلى من كل ما فى الحياة .. وفوق ما يحب الإنسان .. مهما كانت جذور هذا الحب ضاربة فى أرض النفوس .

يقول الرافعى :

[كانت خطواته ﷺ فى هجرته تخط الأرض . وكانت معانيها تخط فى التاريخ ..

أما المسافة : فكانت : بين مكة والمدينة ..

وأما المعنى : فكان بين المشرق والمغرب].

[لم تكن الهجرة سياحة ولا سباحة] :

ومعنى ذلك : أنها لم تكن مجرد انتقال من مكان إلى مكان . .وإلا لم يكن لها هذا الشأو البعيد :

لم تكن الهجرة سباحة . .ولا سياحة . .

لم تكن « سباحة » فى زورق يتهادى فوق أثباج نهر صغير . .

ولكنها كانت ذلك الحدث الأكبر . والذى شكل وجدان الأمة . .[من حيث كانت مرآة تستجمع كل الأحداث السابقة عليها . واللاحقة بها . . .وعلى ضوئها نمضى مستبصرين]

لقد كانت صراعا بين الحق والباطل : بين الدين الجديد . .والكفر العتيد .

فلما استعد المؤمنون لدفع الثمن . .لما وصلوا بقيمة التضحية إلى عمقها :

التضحية . .بالمال . .بل بالوطن . .بل بالنفس ، لما وصلوا بها إلى هذا المستوى. .جاء نصر الله والفتح .

قيمة التضحية

وتبدو قيمة التضحية فوق كل اعتبار :

فالمهاجر : يغالب فى كيانه : غريزة حب الوطن . .

ثم إن الوطن هنا : مكة المكرمة . .والبيت الحرام . .

ومع ذلك غرائز : الأبوة والجنس والتملك . .

أضف إلى ذلك . .ما استكن فى طبيعة العربى من عشق الديار . .والبكاء على الأطلال . .

خير أمة :

وفتحت الدنيا عينيها على جيل غير مسبوق :

يقاوم كل هذه الضغوط التى لم تصمد أمام إرادته الماضية :

وكان هذا الجيل حجة الله البالغة . . على كل من تذرع بشبهة زائغة !

كانوا حجة على كل من يعتذر عن نفسه . . راضيا بالخنوع لظلم الطغاة . . مؤكدين لهم : أن الخانعين إذا وجدوا غناهم بالمال . . .

فإن المهاجرين كان غناهم عن هذا المال بل عن هذه الحياة !

وإذا كان الحب كبيرا . . . فإن التضحية فى سبيل المحبوب . . تجعل الحياة . . مهما كانت مرارتها : تجعلها حلوة المذاق :

دور الشباب
فى إتمام الهجرة

من الأهمية بمكان أن يعرف القائد خصائص رجاله . . ثم استثمار مواهبهم فى خدمة الدعوة . . وإلا . . فإنه فى غياب الوعى بخصائص الرجال لا يتم عمل كبير :

ومن هؤلاء الذين استثمر ﷺ مواهبهم فى الهجرة :

أ- مصعب . . وصهيب رضى الله عنهما . .

وكان ذلك قبل الهجرة . .

ب- وعلى . . رضى الله عنه . . أثناءها . .

ج- وسراقة . . من بعدها :

أ- كان « مصعب بن عمير » ممن مهد للهجرة :

فقد هاجر بعد بيعة العقبة الأولى سفيراً للإسلام .

يقول « هيكل » فى حياة محمد :

[دعت أخبـار مصعب رضى الله عنه محمداً ﷺ . . أن يفكر فى الأمر طويلا . . . فهاهم أولاء أتباعه بيثرب يزدادون

كل يوم عددا وسلطانا . ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجد زملاؤهم بمكة من أذى قريش . .

وها هى ذى « يثرب » بها من الرخاء أكثر مما بمكة : بها زرع ونخيل وأعناب أو ليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك . . ليجدوا عندهم أمنا . . وليسلموا من فتنة قريش إياهم عن دينهم !

الذكاء من أسلحة المعركة

[شرى علىٌّ نفسه : ولبس ثوب النبى ﷺ].

ثم نام مكانه وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ [أى : بالحجارة].

وقد كان رسول ﷺ ألبسه برده . وكانت قريش تريد أن تقتل النبى ﷺ . فجعلوا يرمون عليا . ويرونه النبى ﷺ [يظنونه] وقد لبس برده .

وجعل على رضى الله عنه « يتضور » [يتقلب] فإذا هو على !! فقالوا :

إنك للئيم : إنك لتتضور .

وكان صاحبك لا يتضور . . .

ولقد استنكرناه منك]

أخرجه أحمد / ١ / ٣٣١ وصححه الحاكم في المستدرك / ٣ / ٤ .

ج- أما سراقة بن مالك فهو الذى كان ـ كما قيل بحق :

ذلك الشاب الذي قرر مطاردة الرسول الكريم وصاحبه حتى يظفر بهما وهما في الهجرة ، وبالتالي يحصل على الجائزة التي رصدها المشركون لمن يتمكن من ذلك، ولكن بعد أن رأى الآيات حيث غاصت أقدام فرسه في الرمال كلما حاول الاقتراب منهما ثلاث مرات طلب الأمان من الرسول العظيم، فكتب له كتاب الأمان ، وظل سراقة محتفظا بهذا الكتاب ،حتى كان فتح مكة حضر سراقة إلى الرسول وقال له :

هذا كتابك يا رسـول الله وأنا سراقة فقال الرسول : « هذا يوم وفـاء » وأعلن سراقة إسلامه .

ومما يذكر أن الرسول بعد أن سلم سراقة كتاب الأمان في الهجرة قال له : «كيف يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ » فـقال : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم » وقد حدث بالفعل ما أخبر به الرسول فقد تم للمسلمين فتح مدائن كسرى في عهد العادل عمر بن الخطاب على يد سعـد بن أبي وقاص واغتنم المسلمون خزائن كسـرى بما فيها من كنوز ونفائس ومن بينهـا سوارا كسرى وعندمـا وضعت بين يد أمير المؤمـنين عمر ابن الخطاب سأل عن سراقـة فلما حضر ألبسه سـواري كسرى تحقيقـا لنبوءة الرسول الكريم ﷺ .

وهكذا كان للهجـرة أثرها المباشر القوي في نفس الشـاب المشرك الذي تحول من مطارد للنبى وصاحبه إلى مـتستر على خط سيرهما في الهجرة ثم مـسلم صادق فيما بعد الهجرة .

ويبقى آل الصديق :

طليعة الركب :

كان أبو بكر رضى الله عنه وآله أول من علم بنبأ الهجرة . .وبالتالى . .كانوا أول من تحمل مسؤوليتها مع النبى ﷺ :

علمت بها عائشة وأسماء رضى الله عنهما . .

ثم عبدالله بن أبى بكر رضى الله عنه .

ثم عامر بن فهيرة خادم الصديق رضى الله عنه . .

إلى جانب عبدالله بن أريقط الدليل الذى كان مشركا .

وفى الغار :

قطّع أبو بكر ثوبه مـزقا . .ثم سـد بها جـحور الغـار حماية للـرسول ﷺ من الحشرات :

وكان أبو بكر أشـد خوفا . . منطـلقا من قاعـدة أن قتل الرسول ﷺ قـتل للأمة كلها . .

أما هو : فواحد . .

إنها قيـمة الصداقة التى يجب استـحياؤها فى قلوب أبنائنا اليوم بعـد ما صارت باهتة ضعيفة الأثر . .

الأرواح .. جنود مجنده

يقولون :

[قل لى من تصاحب: أقل لك: من أنت، إن كل إنسان يعمل على شاكلته . . ويصاحب من يناسبه فى جبلته . . فالأمين يستعين بالأمين . .

ثم :

إن العفيف إذا استعان بخائن

كان العفيف شريكه فى المأثم

(والطيور على أشكالها تقع).

وقد كان اصطفاء الرسول ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه دليـلا يؤكد قدرته الفائقة على اختيار الرجال . .

ثم كـانت مواسـاته له . . على مـا حكاها القـرآن الكريم آية تؤكـد صدقـه فى رسالته :

قال عز وجل : ﴿ لا تَحْزَنْ ﴾ .

ولم يقل : لا تخف :

لأن الخوف . . يكون على النفس . .

ثم إنه من الخوف يتولد الشك . . ومن الشك يتولد الاتهام . . ثم الصدام

أما الحزن : فعلى الغير . .

وفى ضوء ذلك يقول البصراء :

لما قدم محمد ﷺ الله تعالى فى : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠].

عصمت أمته . .

ولما قال موسى عليه السلام نفسه فى:

﴿إن معي ربي﴾ [الشعراء: ٦٢].

امتحنت أمته !

دور عبد الله:

وكان عبدالله بن أبى بكر رضى الله عنهما كـان عينا على المشركين : ينقل إليهما فى المساء ما أجمع عليه المشركون

وعامر بن فهيرة راعى غنم أبى بكر :

يذهب بالغنم إليهما ليلا ليحلبـا ويذبحا وقبل ذلك يمحو آثار أقدام عبدالله . . . والذى كان يتردد على الغار تضليلا لمقتفى الآثار .

وأسماء رضى الله عنها . . ذات النطاقين . . ودورها معروف.

شهادة حق :

وقد شهد الفاروق ببلاء أبى بكر وآله فيما روى :

أن عمر رضى الله عنه سمع ناسا يفضلونه على أبى بكر رضى الله عنه . .

فقام فيهم خطيبا . . وكان مما قاله عندئذ :

ما فـعله أبو بكر : من مشيـه خلف الرسول ﷺ فى الهـجرة . .إن هذا والله : أفضل من عمر وآل عمر !

بل روى عنه أنه قال : لليلة واحدة فى حياة أبى بكر خير من آل الخطاب جميعا!

ويعنى ذلك أنه رضى الله عنه :

ينسب الفضل لأهل الفضل :

وليس هو من الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . .

ومن مدرسته : ابن المبارك : فقد دعا أحد العبيد الله تعالى يوما فنزل المطر . . .

وكان قد دعا هو فلم ينزل ولم تأخذه العزة بالإثم . .

وبناء على هذا المقياس يفترق الناس : ففى الناس أقمار . . وفى الناس أنجم وفى الناس ألف لا يعد بواحد !!

من أمراضنا الاجتماعية

يقول الله عز وجل :

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات : ١٢].

تبدأ حركة الإصلاح بسد منافذ الشر أولا . . وأوسع منافذ الشر هو :

الظن :

لأنه اتهام بغير بينة . . فهو من الأمراض الاجتماعية الخطيرة .

وسيلة الشيطان:

وسوء الظن من أسلحة الشيطان الفتاكة : فقد قالوا :

لم يكابد الشيطان أشد من مؤمن عاقل . . فإن عجز عن قهره . . . تحول إلى الجاهل .

من أسباب سوء الظن:

قد تكون نفس الإنسان مضمومة على السوء . . فطويته سيئة . . فهو يسارع إلى سوء الظن وكذلك من كانت فعاله سيئة :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

ومن الأسباب أيضا :

الغفلة عن القرآن الكريم . . والذى كان من آدابه :

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات: ١٢].

والغرور :

فقد يفهم الإنسان أنه وحده « فوق » بينما غيره « تحت »:

ومن أجل ذلك ـ فهو قابل للاتهام . . بل هو من صنّاعه.

وعادى محبِّيه بقول عدوه وأصبح فى ليل من الشك مظلم

١- من آثاره السيئة:

١- ما يصيب الظان نفسه على نفسه . . فكراهيته لهم ترتد إليه .

٢- وقد تصل موجة الشك لأهل الحل والعقد . . وينتشر الفساد .

وإذن فواجبك :

أن تتحقق . .

واجعل حسن الظن هو الأصل . والعتاب هو الأفضل .

فقد يكون الكلام المنقول صحيحا .

لكن تكييفه كان خطأ .

فارجع إليه لعله .

١- أن يعتذر.

٢- أو يوضح ظروف ما قاله.

وكم تهاجر الزوجان . . وتغاضب الصديقان . . بسبب سوء الظن : فضع أمر أخيك على أحسن أحواله :

عامل أخاك بما ظهر واترك لربك ما استتر

من الحلول العملية:

كان الجار يصلى . . من أجل أن ينتصر على جاره وكان جاره كذلك . .

فقال لهما الداعية : هل يسركما أن يقبل الله دعاءكما !!!

وإذا قبل الله تعالى الدعاء . . فلن ينتصر أحدكما . . ولكن المنتصر هو : من يتهم

نفسه . . ثم لا يتهم غيره !

وممن اتهم نفسه :

أبو العتاهية الذى قال :

إلهى لا تعذبنى فإنى	مقر بالذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى	وعفوك إن عفوت وحسن ظنى
فكم من زلة لى فى البرايا	وأنت على ذو فضل ومنٍّ
إذا فكرت فى ندمى عليها	عضضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا . وإنى	لشر الناس إن لم تعف عنى
أُجنُّ بزهرة الدنيا جنونا	وأفنى العمر فيها بالتمنى
ولو أنى صدقت الله فيها	قلبت لأهلها ظهر المجن

ومن منكرات الأقوال
آفة الكذب ...وهلاك الأمم

قيل يا رسول الله : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : « نعم » .

قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ . قال : « نعم » .

قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : « لا » .

لأن الإسلام دين الفطرة . . فهو غير قابل بطبيعته للكذب الذي هو نقيضها .

وإذا جاز للمـؤمن تحت ضغط غـريزة الحيـاة وغريزة التملك أن يجـبن أو يبخل أحيانا . . فلا يجوز له بحال أن يكون كذابا، فلا غريزة في كيانه تحمله على ذلك .

بالإضافة إلى ما في قلبه من إيمان هو في حقيقته صدق يأبى أن يزامل نقيضه .

أساس الكذب وتطوره :

يحس الإنسان بالهوان . . فيجبن عن مواجهة الحقائق التي قد يكلفه الإقرار بها: وقتـا أو مالا أو جهـدا . . فيكذب . . ثم يكذب حتى يصـير الكذب عادة له . . غير شاعر بسمها السارى في نفسه مع مرور الأيام .

الصواب (روى مالك من حديث ابن مسعود):

« لا يزال العبـد يكذب ، ويتحرى الكذب ، فـينكت في قلبه نكتة سـوداء ، حتى يسود قلبه ، فيكتب عند الله من الكذابين » .

وهذه النكتة السـوداء الواصلة بالكذاب الى هذا الدرك السحيق هي مـا أشار إليه الحديث الشريف :

« عليكم بالصدق : فـإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يـهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصـدق حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب: فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجـور يهدى إلى النار، وما يزال العبد يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابا » .

إن التساهل في الحديث ابتداء يجر الإنسان إلى مزيد من الكذب يصير به إلى تسيب يفلت به زمامه إلى درجة الفجور الذي لا يبالي تحت وطأته بقيمة عليا .

جاء في كتاب « الأدب الصغير » : (رأس الذنوب : الكذب :

هو يؤسسها : مبتدئا بالأمنية ، ثم الجحود ثم الجدل : يبدو لصاحبه بالأمنية الكاذبة ، فيما يزين له من الشهوات فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى .

فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة .

فإن أعياه ذلك ختم بالجدل ، فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج ، والتمس به التثبت ، وكابر به الحق ، حتى يكون مسارعا للضلالة ، ومجاهرا بالفواحش) .

درجات الكذب :

والكذب مستويات :

١- كذب اللسان : وهو الإخبار الكاذب المنافي للواقع .

٢- كذب النفس : وهو عجزها عن قبول الحق والدفاع عنه .

٣- كذب العمل : وهو أداؤه بصورة شكلية لا تحقق الفرض منه .

وهو بهذا المفهوم مر الثمرات :

ظلم للحقيقة التي يزحزحها الكاذب عن مكانها ، ثم هو إضرار بالغير وتغرير به وبالأمة يوردها المهالك .

الكذب بين الرذائل:

يأخذ الكذب موقعه في طليعة الرذائل المدمرة لكيان الفرد والمجتمع . .

بل ربما فاق التحذير منه كل رذيلة سواه . . ولو كانت هي الشرك بالله تعالى :

روى أبو بكر قال : (قال ﷺ : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟** » قلنا: بلى قال : « **الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** » وكان متكئا فجلس فقال :

« ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » . فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت) .

كانت ترى التركيز الشديد على الكـذب تحذيرا منه ، وكان الظن أن يكون التركيز على جريمة الشرك ، أو جريمة قتل النفس بغير حق .

ولكن الأمر جاء على غير ما كنا نتوقع .

(فمع أن شهادة الزور ليست بأكبـر جرما ، ولا بأعظم إثما من الإشراك بالله ، إلا أن النبى ﷺ حرص على أن يكون نهيه عنها نهيا مؤكدا حاسما .

فابتـدأ العبارة . . «ألا» . . التي للتنبـيه ، وغيـر من وضع جسمـه الشريف . وكرر وأطال التكرار ، حتى أشفق عليه أصـحابه مما رأوا على وجهه الشريف ، وفي نبرات صوته ما عسى أن يزعجه فتمنوا أن يسكت).

ولعل سر هذا فيما ذكره ابن حزم:

(ما أحببت كذابا قط).

وأني لأسامح في إخاء كل ذي عـيب وإن كان عظيما وأكل أمره إلى خـالقه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخـلاقه ، حاشا من أعلمه يكذب فهـو عندي مبارح لكل محـاسنه معف على جمـيع خصاله ، ومـذهب كل ما فيه ، فـما أرجو عنده خـيرا أصلا .

وذلك لأن كل ذنب فهو يتـوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاسـتتار به ، والتوبة منه حاشا الكذب .

فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان) .

ثم يضيف ابن حـزم إلى تجربته تجـربة الآخرين الشاهدة بما انتـهى إليه من تمكن الكذب من النفس ـ بعد طول الممـارسة ـ ليصبح بعد ذلـك ضارب الجذور في النفس لا يذهب إلا بذهاب صاحبه .

يقـول : (وما رأيت قط ولا أخـبرنى مـن رأى كذابا وترك الكذب ، ولم يعـد إليه).

ثم يختـتم ذلك ببيان لحـمة الكذب وسـداه وهي : الكفر الذي هو نقـيض الحق

الذي قامت عليه السموات والأرض . وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق ، وهو يحب الحق . وبالحق قامت السموات والأرض .

وما رأيت أخزى من كذاب :

وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ، ولا هتكت الأستار، بغير النمائم والكذب .

ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزي والذل)

ومن مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب يقرر العلماء (أن المؤمن مستعد لأن يتطبع على كل خلق ـ حال ابتلائه ـ من الأخلاق الذميمة مثل : الشح أو الطمع أوحب السلطان .

لكنه أبدا لا يطبع على الخيانة ، ولا على الكذب . فلماذا ؟ وما هو الفرق بين هاتين الرذيلتين ، وبين غيرهما من الرذائل ؟ إن الإسلام عقيدة وعمل ، وأساس العقيدة الصدق ، وأساس العمل الأمانة ، إذن فالانطباع على الكذب قالع للإيمان والانطباع على الخيانة مانع من صحة العمل ، فلا غرو أن استحال إمكان وجود الإيمان في قلب المؤمن مع انطباعه قولا وسلوكا على نقيض هذا الإيمان .

وأما بقية الرذائل الأخرى كالشح ، والبخل ، والحسد ، وحب السيطرة فإنها لا تمثل تناقضا مباشرا وأساسيا مع أصل الإيمان .

فهي جملة من العوارض التي تخف ، أو تثقل ، ولكنها تمثل الضعف الذي لا تخلو منه بشرية الإنسان .

أما الكذب والخيانة والانطباع عليهما ، فهما يمثلان عدوانا على الناس ليس في تركيب الفطرة غير المنحرفة ذهاب إليه ، على شدة وفظاعة ضرر هاتين الرذيلتين الهدامتين في الجماعات) .

لماذا الاجتراء على الكذب ؟

يقرر البصراء بطبيعة النفوس :

أنه ليس للكذب عقوبة مادية مرصودة يخشى بأسها فيرتدع ، إلى جانب ما يحققه الكذب من منافع عاجلة في الدنيا تغري به ، وتدفع إليه ، كل ذلك يؤدى إلى اتخاذه حرفة لاكتساب الدنيا ، بينما الرذائل الأخرى ليست كذلك : فالذى يريد القتل ربما تصور الحد الرادع . . والذى يكف بأسه فلا يقدم على قتل أخيه الإنسان ، لاسيما إذا تصور العقاب المدخر يوم القيامة .

وقد يؤثر فيه مشهد والديه الضعيفين فلا يوقع سهما ضررا مدفوعا بشفقته عليهما الناشئة عن ضعفهما الذي يراه ويحس به .

من أجل ذلك كان للكاذب تحذير خاص ينهض في مواجهته ليكف بأسه بعد أن ضعف الوازع في نفسه الأمارة بالسوء الحريصة على المتاع القريب .

كيف نحمل أبناءنا على الصدق ؟:

إذا كان تحرى الكذب يجعل من الإنسان كذابا . . فإن تحرى الصدق يقف به موقف البر الواصل به إلى الجنة .

ويبدأ ذلك من العمر الباكر . . حين نأخذ أبناءنا بفضيلة الصدق حتى فيما بدا من الأمور تافها :

وتأخذ الوقاية سبيلها على النحو التالي :

١- اجتناب الظن . . اكتفاء بما ظهر من الأمور قال ﷺ : « **إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث** ».

٢- البعد عن كل ما يوحى بالشك . . وإيثار ما وضح صدقه : قال ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة** ».

٣- تحرى الصدق حتى في أدق الأمور مما يتساهل فيه عادة : عن عبدالله بن

عامر قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا ، فقالت : تعال أعطك، فقال لها رسول ﷺ : « **ما أردت أن تعطيه** » ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، فقال لها : « **أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة** » [١] .

٤- إظهار الغضب ومقاطعة الكاذب حتى يتوب ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة [٢] .

من منكرات الأفعال

الهجر

عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : أن رسول ﷺ قال :

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال : يلتقيان : فيعرض هذا . ويعرض هذا . وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ».

رواه مسلم وابن ماجه / ٥٦٤٠

وفى رواية :

لا يحل لامرئ مسلم .   [وفى « امرئ » عموم]

تمهيد :

يحرص الإسلام على تنقية القلوب من أوضارها وأكدارها . . ثم شحنها بعاطفة الحب الجامعة المانعة . . .

. . حتى إذا صلحت بالحب . . صلح الجسد كله . . فصار المجتمع عندئذ صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . . . وتهيأ له أن يعبد الله تعالى على بصيرة . . من حيث إن طاعة الله سبحانه : عبادة . . ومعاملة لاتتم إلا فى رحاب الوحدة . . التى تعتصم بها الأمة فإذا هى مستمسكة بالعروة الوثقى . . . آمنة فى نفس الوقت من السقوط . .

(١، ٢) رواهما أحمد .

وفى حلقة من السلسلة الرامـية إلى إنشاء هذه العاطفة النـبيلة . . يجىء الحديث الشريف مشددا النكير على واحـدة من العلل المانعة من هذا الود . . وهى : التهاجر ـ والتدابر . والخصام ظاهرة بشرية . . لكنها ليست حتمية . . وإذا كان الأصل ـ بحكم الإيمان ألا يكون هجران ـ إلا أن الإسلام يسلم . . ابتداء . . بوجوده . .

فإذا وجد . . فلا ينبغى أن يتجاوز ثلاث ليالٍ . .

لكن . . لابد من دراسة أسباب الظاهرة :

فما هى الأسباب؟

١- وجود الزلة من أخيك . . .

٢- البث المباشر من النمامين .

(لاحظ قولهم هنا إبلاغ واشٍ) .

(كأنه : يزين . . ويلون . . تمويها) .

٣- الملل يدخل على أحدهما .

فإن الملالة تورث القطيعة ولا يكون لملول صديق] .

بين الفراغ .. والملل:

إن الطبيعة : ضد الفراغ :

وأنت إذا ثقبت زجاج المصباح الكهربائى . . المفرغ من الهواء :

ماذا يحدث ؟ الذى يحدث هو :

تسلل الهواء الخارجى . . . ليملأ فراغه !

وكذلك العقل البشرى :

إنه إذا خلا من الشواغل . . تسللت إليه الهموم والأحزان . . والسخط والتذمر . والعصيان .

ما هو الهجر ؟

إنه مجموعة رذائل :

فيه معنى « القطع » والعيب . والفحش هو الهجر .

وأهجر فلان فى كلامه : عبث .

وهجر المريض : خلط وهذى .

وفيه معنى : الاستهزاء :

تقول : أهجرت بالرجل ، أى : استهزأت به .

وإذن . . فليس الهجر مجرد فتور فى العلاقة . . وإنما هو مجموعة من العيوب تجعل من الهجر نارا تأكل الأخضر واليابس ثم هو فى حق من ؟

فى حق أخيك المسلم . . والذى كان عليك بحكم إسلامك وبحكم الأخوة ألا تهجره لقد كان المفروض أن يكون الإسلام والأخوة مانعين من الهجران .

أما وقد ضعفا فى قلبك . . فينبغى ألا تزيد على ثلاث . .

لماذا !

١- واقعية الإسلام الذى يقول لك :

لا تغضب أى لا تتعاط أسباب الغضب . . أما الغضب نفسه فلا تملك دفعه إذا حل كظاهرة نفسية.

٢- ثم إن الثلاث مدة كافية للمراجعة ودراسة الموقف . . بعد هدوء النفس قد يترتب على الزيادة :

١- اتساع الحزن = بالعناد . . وقول أحدهم لماذا لم يبدأنى هو .

٢- ثم إن البعد جفاء . كما قيل .

٣- وقد يتدخل المغرضون فيفسدون .

المسؤولية الفردية :

١- لم يقل هنا لاتهاجروا فالمسؤولية فردية :

وعبر بالليل : لماذا؟

يتضح المعنى لو كنتما زوجين :

فقد يلهيك الصفق فى الأسواق وهموم العمل . .

أما عندما تعود إلى بيتك . . فى سجوة الليل لتجده ساكنا . . . ساكنا مهجوراً . . فإن ذلك يثير فيك ذكريات عزازا !

ويعرض الحديث أسوأ صورة :

يلتقيان . . . أى كل يوم فيعرض :

يعرض بمجرد رؤية صاحبه : بلا روية ولا تفكير . . ولو كانا فى مدينتين متباعدتين لخف المصاب .

ولكنهما يلتقيان يوميا . .

والناس من حولهما . وكذا الأطفال : الكل يشاهد . ثم يقلد .

حماية كل الأطراف:

والحديث يحمى الصاحبين من إذاعة الأسرار وما يترتب عليها من فقدان الثقة . ثم احتراق الأعصاب . واختراق حدود الله تعالى .

موقف المتخاصمين:

واجب الفرد :

١- مجاهدة النفس والهوى . . وهى كما قال ابن الجوزى : (تحتاج إلى صناعة عجيبة : فإن أقواما أطلقوا نفوسهم فيما تحب . . فأوقعتهم فيما كرهوا)

٢- وما كرهوه تعلنه هذه الحقيقة : (عاجز من لم يكسب الإخوان . . وأعجز منه من فقد ما كسبه منهم).

وخيرهما : الذى يبدأ بالسلام.

يقول الشاعر :

ما ودّنى أحد إلا بذلت له صفوا لمودة منى آخر الأبد

ولا جفانى وإن كنت المحب له

إلا دعوت له الرحمن بالرشـــد

ولا ائتمنت على سر فَبُحْتُ به

ولا مددت إلى غير الجميل يدى

ولا أخون خليلى فى خليلته

حتى أغيب فى الأكفان واللُّحُد

إنها شرعة الحب . . لا الكراهية . فالحب بناء . والكراهية هدم . .

ثم هو الحب على الطريقة الإسلامية :

وليس هو الحب الذى عبر عنه ماجن فقال :

أنسب وقت للحب هو : فصل الصيف . .

إنه الانفعال الذاهب :

كالصيف . . أوسحابة الصيف ! وأشرف من هذا أن يكون هكذا :

يكفى من الحب أنى لما تحب أحب !

الحب الذى يزرع فى قلبك بستانًا مورقا مثمرا . .

موقف الأمة :

تمهيد:

العشاق . . يتآلفون . . (وإلفين كالغصنين ويوفون . . [جميل بثينة] .

فكيف بالمتقين . . . !

وأهمية التدخل يحرّض عليها :

١- أن الخصمين منفعلان . .

٢- والعنصر الثالث هادئ مؤهل للحل الإسلامى .

ومن السنة :

لا يُبْلِغُنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا . فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

وهذا شرط من شروط صحة العملية التعلمية :

فقد قالوا : إن الفكرة لا تعبر من المدرس إلى الطالب إلا على جسر من المحبة:

٢- مهد السبيل للصلح :

أ- [كان يأخذ أصحابه لأحد ـ فرارا من عقدة الهزيمة ويقول :

أحد : جبل نحبه . . ويحبنا .

ب- ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نما خيرا فزال عنه وصف الكذب .

ومضى الفكر الإسلامى يحرض على الصلح فقالوا :

١- امش ميلا وعد مريضا .

٢- وامش أميالا . . للصلح بين اثنين :

إنه الاستنفار لنسبة أكبر من التحمل :

للإصلاح . علاجا لمرض الشحناء .

١- فهما اثنان . . بل أسرتان بل عائلتان !

ثم إن السلام يعود عليك قسط منه

[وعيادة المريض] :

ألا وإن زيارة المريض : مجرد رفع للروح المعنوية لدى المزور : تجديداً لما أبلاه الزمن من مودتنا .

فإذا تجاهلت . . وآثرت موقع العاتب . .

فأنت جارح . . لا ناصح .

وتذكر هنا خطة الإسلام التى تضرب للإنسان موعدا قد يصل إلى خمسة عشر يوما . . أى بعد مدة تتغير فيها الفصول . لتجىء النهاية بعد دراسة عملية للمشروع .

وبنفس القوة :

يقرر الإسلام ألا يزيد الهجر عن ثلاث . . لماذا !

وكان بعض الزهاد :

يتطوع ويهب ثواب طاعته لأعدائه لعلهم أن يتوبوا . .

وهكذا المؤمن : إنه فسيح الآمال ، مسيح الآلام . . روىّ الفؤاد ، رحب الآماد .

ويتقاضاه ذلك :

دراسة أسباب الشحناء ثم التدخل لفض الاشتباك .

إن الذى يصلح جهاز « التلفاز » مشوش الصورة لا يقصد إلى « الشاشة » .

ولكنه يبحث عن العلة هناك فى الأعماق : فى الداخل .

أما بعد :

فليت الرجلين المتخاصمين كانا طفلين !!

ألم تر إلى خصام الأطفال !!

إنهم يملكون من دفء العواطف ما لا يحسون معه بالجفاء :

ولذا فالخصام عندهم سريع الالتئام .

أما عند الكبار فيطول !!

من واقعية الإسلام :

يدور موقف « الطبيب » على محورين :

١- سلبى : وهو المنع من الأكل الضار .

٢- إيجابى : وصف الدواء الشافى بإذن الله تعالى .

والأصل فى ذلك هو هذا الحديث :

١- المنع من الضار وهو (الهجر) .

٢- ثم الإصلاح . . ليكون الحب . .

ولاحظ قوله ﷺ : «لايحل» . . بدل يحرم . . .

حتى لا يصدم مشاعر المسلم الذى تعرض لامتحان قاس . والذى قد يظن ـ لفداحة ما نزل به من عدوان ـ أنه محق يحل له الهجر !

نهاية المطاف :

يا أيها المسلم :

أ - إنما يمنعك من الهجر :

١- الإسلام .

٢- والأخوة

ب- ولا يحل لك أن تهجر . . .

والمضارع يفيد الاستمرار . .

ومن معانى ذلك :

إنك ممنوع من دوام مسلسل الهجران . .

ومن واقعية الإسلام: أن يسلم بمرة واحدة من الهجران شريطة ألا تزيد عن ثلاث ليال، وقبل أن يعلو الصدأ علاقتك بمن تهجر . . وعندئذ يصعب العلاج !!

من ملامح
مدرسة العنف

تسافر الوفود الرسمية أو تأتى إلينا . . فى محاولات لتصحيح صورة الإسلام . . عبر مؤتمرات جامعة . . . وعلى أهمية ما تحققه إلا أن هناك من يستبد بالفتى المتحمس وفى الظلام ليقنعه بأن طريقه إلى الجنة عبر « السوق » المزدحم . . بهذا الحزام الناسف !!

وهكذا يحاولون هدم السنة بالسنة !!

وإلا فحديث الرسول ﷺ صريح فى تجنب الأسواق بالذات . . وحمايتها من كل ما يعكر صفوها :

قال ﷺ :

« من مر فى شىء من مساجدنا وأسواقنا - ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه مخافة أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشىء » .

يقول فى الفتاوى / ٢٨/ ٣١و ١٤٣ .

[والقلوب البشرية ليست معصومة من الوساوس، وفيها قابلية لهذه الوسوسة والموسوس موجود ، بقدرة فائقة عليها . وهو : الشيطان . والنفس .

« والقلوب فيها وسواس النفس والشيطان : يأمر بالشهوات . والشبهات ما يفسد عليها طيب عيشها .

ولهذا . . فالنفوس البشرية فيها ميل . وحب للشهوات والمعاصى .

وإن كانت هى مرذولة عقلا وشرعا . وقد يدفعها لذلك حب الاستحواذ بالشىء. وكراهية اختصاص الآخرين به) .

منطلقة فى ذلك من جبلتها وهى : (الجهل بعلل الأحكام وحكمها . ثم بمقاصدها الكبرى) .

الاستبداد منبع الفساد

إنها مدرسة الاستبداد . . ومن رحمه يكون العنف أو الإرهاب

من معانى العنف :

وذلك أن تضـرب كفـا بكف إزاء مـا يحدث فى بـعض بلاد الإسلام ثم تسـأل نفسك :

هل لك أن تفسر لنا ما يحدث هناك ؟ لقد قتلوا أمس ٢٧ طفلا بالفؤوس ما هذه اليد التي تهوى بالفأس على رأس طفل ؟ هل هناك كائن يقدم على قتل طفل ؟!».

هذا الراعي الآتي من القفار يقول : « إن في أداب الغابة ونزعة الافتراس حصانة خاصة للطفل . . هي وداعتـه ، وبراءته ، وضعفه . . ومآقيـه الصغيرة ، وأهدابه التي تخفي حلما جمـيلا صغيرا بالحياة والعـودة إلى الملعب الدراسي وحضن الأم . . ماذا تسمي تلك الفأس التي تحطم الطفولة ؟!» . .

ولأنني لا أدري ـ بالفعل ـ ماذا أسمي هذه الفأس . . فإنني أتساءل بدوري :

هل الأبرياء الأمريكان ـ الذين راحـوا في ثوان ضحية ظلم الكبـار واستكبارهم ـ أغلي من أولئك الأطفـال المذبوحين بالفؤوس والسواطيـر في الجزائر ، أو المقـصوفين بالرصـاص والقنابل في فلسطين ؟ أو المقـتـولين بالجوع والـسرطان في العـراق ؟ أو المتجمدين بالصقيع والعداء في أفغانستان ؟!!

أي زمان هذا الذي نعيشه ؟

ومن ملامح هذه المدرسة :

الهروب من مواجهة المشكلة

ومن صوره :

كان مع رجل ثلاث تفاحات :

فلما شق الأولى . . وجد بها دودة . . فرماها ولما شق الثانية وجد بها دودة . . فنبذها . . وهروبا من قسوة الواقع :

أطفأ الأنوار . . ثم جلس يأكل الثالثة .

وفى هذه المدرسة :

١- التلاميذ يسعدون بما يظنونه . . لا بما يعقلونه . .

٢- وأحيانا : يكتشفون من الحقائق جانبا :

ولكنهم : ينبهرون بما يكتشفون . . وقد يرتدون . . . وفجأة !!

أما العقلاء :

فكلما ازدادوا كشفا : كلما ازدادوا علما . . كلما عمق الإيمان فى قلوبهم .

٣- الوقوف عند ظاهر النصوص .

٤- عدم ترتيب الأولويات

٥- عدم إدراك أهمية العقل والعلم .

٦- الاستغراق فى الماضى ثم الذهول عن الحاضر والخوف من المستقبل .

٧- الغفلة عن مقاصد الشريعة .

٨- عدم الاعتراف بالآخر .

٩- والاقتصار على العزائم . دون الأخذ بالرخص . . ثم محاولة إلزام الناس بها . . مع أن فى ذلك مجافاة للسنة المطهرة :

فإن فى الناس الضعيف . والمريض . وذا الحاجة .

١٠- التلميذ فيها مصاب . بعمى الوجدان :

١١- بليد حسه . .

١٢- الدنيا صاخبة من حوله لكنه لا يسمع

١٣- إرادة نائمة . . نضر الله من أيقظها !!

١٤- الصوت العالى « دليلا على هبوط الدليل .

ومن علامات هذا الطراز : خطأ المنهج :

وقد أوسع أهل السنة هذا الصنف دراسة . . وتفنيداً . . ثم استخرجوا لنا من علاماتهم ما يحذرنا منهم . . ومن هذه العلامات :

أ- جرأتهم على الحق

وقد يتجرأ منهم غلام غرير فيقول :

فقه فلان . .

وفلان . . وفلان .

من كبار الفقهاء :

لا يتعدى سراويل امرأة .

[يعنى الحيض والنفاس] !!

إنه من الصعب أن تقنع رجلا بسلامة موقفك بينما هو منطلق من قاعدة خاطئة هى : من ليس معى فهو على .

وهكذا كانت الخطيئة الكبرى فى منهج التفاهم الذى يتجاهل أن من لم يكن معك لا يلزم بالضرورة أن يكون عليك . . فقد يكون محايداً .

إنهم مستبدون

ألا وإن الرجل [المستبد يخاف رعيته . . كما تخافه رعيته بل خوفه منهم أشد :

لأنه يخافهم عن علم . وهم يخافونه عن جهل .

وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره ودرجة عدله بمقدار اطمئنانه :

كما يستدلون على أصالة الاستبداد فى الأمة : بترف الحكام . وإمعانهم فى البذخ . وكثرة الحجّاب .

ومن دلائل تغلغل الاستبداد فى الأمة : استكناه لغتها :

فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم . وعبارات الخضوع . .دل ذلك على تاريخها القديم فى الاستبداد . كاللغة الفارسية . .

وإن قلت كالعربية قبل امتزاجها بغيرها ـ دلت على الحرية . .

وأخوف ما يخافه المستبد هو : العلم :

العلم الذى يعلم أن الحرية أفضل من الحياة .

والشرف أعز من المنصب والمال . .والحقوق وكيف تحفظ . .والظلم . .وكيف يرفع . .

والإنسانية وقيمتها . والعبودية وضررها) .

والمستبدون :

يسترهبون الناس بالتعالى والتعاظم . .والقهر . .وسلب الأموال .

حتى يضطر المقهور إلى التذلل لهم وتملقهم . .

فصغرت نفوسهم . وخفتت أصواتهم وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر . .فاستشرى الفساد . وضاع العباد] .

وصارت بغيتهم : إرضاء المستبد . . .لا إرضاء رب هذا المستبد .

فتداخلت القيم . .وضاعت الحدود بينها . .حين صارت النصيحة . .فضولا . .

والشهامة غرورا . . والحمية طيشا . .

والنفاق سياسة . . والتحايل شطارة

(وعندئذ صار الاستبداد .

كالعلق :

يمتص دم الأمة . فلا ينفك عنها حتى تموت . . ثم يموت هو بموتها]

ولكن : كم من جبار عنيد . . جدله ـ صرعه ـ مظلوم صغير !!

كتب بعض ولاة الأجناد إلى « المأمون » :

إن الجند شغبوا . . . ونهبوا . .

فكتب إليه : لو عدلت . . لم يشغبوا ، ولو وفيت . . لم ينهبوا !!

ثم عزله . .

وأدر عليهم أرزاقهم) .

وتبقى المسؤولية الفردية :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

يحمل المضلون أوزارهم كلها . . ثم يحملون بعد ذلك بعض أوزار من أضلوهم الذين يحملون الباقى من أوزارهم جزاء ما فرطوا فى جنب عزتهم . . فبذت ظهورهم مقوسة من طول ما انحنوا للطاغين .

الداعية بين أمله وعمله

مدخل :

يتحرك الداعية بين قطبين :

الحق . والواجب :

وفيما يتعلق بالحق . . فهو شديد الإحساس بحقه . . بينما يكون إحساسه بواجبه فاترا . . .

وكانت النتيجة : عدم تحقق المراد . .

لأن المراد لابد لتحقيقه من ثمن مدفوع سلفا :

وهو أداء الواجب أولا . .

وهذا ما يشير إليه دعاؤه اليومى ﷺ :

« **اللهم : إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل . أو أظلِم أو أظلَم** » .

فبدأ بواجبه أولا وهو : ألا يضل . وألا يظلم . .

والشاعر العربى يقول :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ويقول :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وعندما شكا التلاميذ لابن أدهم :

لماذا ندعو فلا يستجاب لنا ؟

كان جوابه :

إنكم لم تدفعوا الثمن !

أنتم تبتغون . . لكنكم لا تعملون !!

وهذا بعض ما يشير إليه جوابه ﷺ لما سئل : متى الساعة ؟

لقد كان جوابه : «وماذا أعددت لها ؟»

والأصل القرآنى يحدد أن الله تعالى أراد لنا أشياء . .

لكنه تعالى يريد منا أشياء :

لابد من أداء الواجب أولا :

ألا تقف بنا آمالنا عندما نبتغى : وإنما أولا : نفعل ما ينبغى يقول عز وجل :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥] ولكنه تعالى يريد منا :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ [الحج: ٤١] الآية .

وهذا قدر الدعاة . . وتلك هى قضيتهم التى ينبغى أن يحسموها قبل أن يستمر ترددهم بين القطبين . . . !

مهمة الداعية :

إن مهمة الداعية مزدوجة :

أولا : كف بأس المنحرفين .

وثانيا : الإبقاء على الأطهار أطهارا حتى لا يقعوا فى الشرك المنصوب .

إن الدعاة إلى الله تعالى : شهداء . .

بمعنى : أنهم يشهدون الواقع . . . فى محاولات لتغييره بالأمر بالمعروف : لتنبت الخضرة .

والنهى عن المنكر : حتى لا تجف هذه الخضرة . . .

ولسوف تنتقل به همته من الألم المر . . . إلى الأمل الحلو . . .

وهذا قدره :

إن للعقيدة تجليات فى عالم الواقع :

تجليات : تقوى وتضعف حسب رسوخ جذورها . والداعية مجلى هذه العقيدة فلا بد للدعوة من حماية : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

وهى مفتوحة لكل أحد :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦].

ثم هى فى وسع كل أحد : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

هل نحن فى حاجة إلى الداعية ؟

نعم .. لماذا !

لأن فى الإنسان قوة عاقلة يدرك بها الحق والباطل . لكنها لا تستقل وحدها بالإدراك .

أ- فربما نظرت إلى الحسنة نظرة عجلى فحسبتها سيئة . .

ب- وقد ترى الشر فى شبه من الخير .

فتقبله . .

وإذن. . فهى فى حاجة إلى الدعوة وإلا . . فلو استقلت . . لضلت . . وأضلت والواقع شاهد بذلك :

فقد أباحت الفاحشة .

وأهدرت كرامة الإنسان .

ثم عبدت الأشجار والأحجار .

وحتى لو ميزت بين الحق والباطل . . ولكن تمنعها فورة غضب أو سيطرة لذة . .

ومن ثم لا تبالى بشىء .

وقد تتخلص النفوس من إسار الغضب والشهوة .

يقوم بينها نزاع بحسب الفطرة أو التجربة : ضحالة وعمقا :

١- فيستحسن إنسان ما يستقبحه غيره .

٢- بل إن الإنسان نفسه ـ مع تغير الظروف ـ قد يستقبح ما استحسنه ـ والعكس صحيح أيضا .

٣- وقد يلوى النص لجلب منفعة أودفع مضرة .

٤- وقد تشاهد حادثة فتقضى فيها برأى حاسم ثم تقف على آثارها الخطيرة . . فتغير رأيك . . .

ومن أجل ذلك :

كنا فى حاجة إلى دعوة : إلى شريعة إلهية :

١- تعلم الجاهل .

٢- وتذكر الناسي.

٣- تجادلهم إذا ضلوا .

٤- وتكف بأسهم إذا أضلوا .

وإذا سهل تعليم الجاهل . وتذكر الفاضل فإن جدال هؤلاء . .يحتاج إلى حكمة وبيان : لأن المضلين اليوم أذكياء أغنياء .

والداعية وحده هو المرشح لهذا الدور الخطير .

الداعية والواعظ :

يحلق الداعية فى أفق أوسع من أفق الواعظ :

فبينما يخاطب الواعظ ناسا مسلمين . .مقتنعين مثله بصحة ما يعظهم به . .فإن الداعية يواجه هؤلاء . وغيرهم مما لايدينون بدينه .

ومن أجل ذلك يحتاج الداعية إلى التسلح بخصائص تمكنه من مواجهة المعاندين والجاحدين . فضلا عن الذكاء . ومع قوم لا ينقصهم الذكاء .

(والداعية غير الخطيب :

فالخطيب : خطيب . وكفى

أما الداعية: فمؤمن بفكرة : يدعو إليها بالكتابة . والخطابة . والحديث العادى. والعمل الجدى فى سيرته العامة والخاصة . وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية :

فهو : كاتب وخطيب . ومحدث وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه .

والداعية أيضا :

طبيب اجتماعى : يعالج أمراض النفوس .

ويصلح أحوال المجتمع الفاسدة :

فهو ناقد بصير . يقف حياته على الإصلاح ما شاء الله . وهو رفيق وصديق . وأخ يبدأ الواعظ : متعثرًا . . متحمسا :

متعثرا : لأن المعرفة ضئيلة . . والتجربة قليلة :

وإذن . . فالثوب . . لأنه فضفاض . . يتعثر فيه .

متحمسا : لأنه لما قارن واقعه . . بالعصر الذهبى للإسلام . . أحس بمرارة يعبر عنها بالحماس .

ثم . . وبعد المعاناة يصير داعية : داعية لا ينشأ من فراغ . . وإنما من رحم هذه المعاناة تكون ولادته من جديد .

وهو المعنى الذى أشار إليه المرحوم « الشيخ البهى الخولى » بقوله :

[للغنى والفقير . والكبير والصغير .

ومن هذه الصفات تشع المحبة فى قلبه .

وتتدفق الرحمة من عينيه . وتجرى المواساة على لسانه ويديه .

وهذا ضرورى جدًا للداعية . . وهو من مواهب الروح والجنان . . لا من صفات البلاغة وملكات اللسان .

والداعية قائد فى محيطه . وسياسي فى بيئته . وزعيم لفكرته . ومن يتبعه فى ناحيته .

وكل هذا . . لا تنهض الخطابة وحدها بحقوقه :

فلا بد له من التأثير النفسانى . والهيمنة الروحية . والاتصال بالله .

واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ .

وأحوال الناس « تذكرة الدعاة » / ٦.

الداعية نابغة ..وليس عبقريا

لأن النبوغ لا يعزله عن تلاميذه . .

١- إنه يمشى على رأس القافلة .

٢- يتدرج فى الظهور .

٣- يأتى بنسق واحد : علو واحد . وسرعة واحدة

٤- ينقح نتاجه : فيعيد ويراجع .

أما العبقرى :

١- فإنه معدن آخر . . ويسلك سبيلا غير سبيل جماعته .

٢- ثم يظهر فجأة .

٣- ويأتى بالأفكار النادرة : كالطائرة المقاتلة : تعلو . . حتى تسامى النجم . . وتسف . . حتى تمشى على الأرض . .

٤- والعبقرى يهبط فجأة . .

ومن أجل ذلك كان الداعية فرعا من شجرة المجتمع . . وبه تهتز الشجرة كلها !!

من خصائص الداعية المسلم :

أن يكون أصبر على الجوع والعطش . .

وقد كان من دعاء « ابن أبى وقاص » رضى الله عنه :

اللهم ارزقنى عدوا شديدا بأسه فأقاتله فيك ثم أنتصر عليه .

ودعا « ابن جحش » رضى الله عنه قبل أحد فقال : « حتى يجدع أنفى . وأذنى . فإذا بعثت . . فسألتنى . . قلت : فيك يارب !

حتى يكون الداعية صالحا للتغيير

إذا كانت مهمة الداعية أن يغير ما بقومه :

فعليه أولا أن يغير نفسه . . ليكون من بعد مؤهلا لإنجاز مهمته الكبرى . . .

وذلك قوله عز وجل :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]

إن معركته تنحصر فى فطم المجتمع عن الفتنة بالدنيا . . فلا بد أن يكون هو أولا فى طليعة الذين تحرروا من إيثار هذه الدنيا بما يملك من خصائص نفسية تعينه على أمر الله سبحانه .

ذلك بأن (الفرق هائل بين :

أن يراق الماء . . ماء السقاية فوق صخر لا يتسرب إلى داخله الماء . ولا يتشربه وبين صب هذا الماء على تربة متعطشة) .

وحتى يكون المدعو متعطشا إليك . مقبلا عليك :

١- يحس بأنك حريص على هدايته .

ب- العناية به . . والعمل من أجله . . ولو كان قليلا . . المهم هو : الاستمرار .

إن الجبال من الحصا . .

والمحيط . . من قطرات الماء .

فلابد للداعية أن يسلح نفسه بكل ما يمكنه من تجديد شباب الحياة :

١- وحتى يكون الداعية ناصحا نصيحا . . لابد أن يغير نفسه بالزهد فيما فى أيدى الناس . .

ملكت نفسى إذ ملكت طبعى : فاليأس حر . . والرجاء عبد . .

٢- أن يتأكد من أن نعمته حلال . . فالله تعالى يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] .

فاللقمة الحلال . . أولا . . .

وكان المربون يقولون :

اعرف من أين لقمتك . . ثم اجلس للتعليم . .

٣- لابد أن يكون الداعية على وعى بأمرين: بحقائق الإسلام : حكما . . وحكمة . . . ثم الوعى بالواقع المعاش . . . حتى يتمكن من علاج هذا . . بذاك ولو لم يحدث ذلك . . كان الخطاب الدينى دون مستوى الأحداث . متخلفًا . . وراء زمن سريع الخطا . كثير التقلبات .

٤- لابد للداعية من معرفة « الآخر » .

فيم يفكر ؟ وكيف يفكر ؟ ما هو تصوره لنا؟ ،ما هى التيارات التى تحكم حركته حتى يستطيع أن يعد للمواجهة عدتها .

إن الخطاب الدينى قبل أن يكون « أسلوبا تقليديا ..فإنه ثقافة عميقة ..تحتم عليه أن ينطلق إلى الآخر ..من قاعدة علمية إنسانية :

يفهم الخصم . . ليتمكن من التفاهم معه . . . وبعد أن نطرح خلفنا ما قد يكون من تراكمات وحساسيات تاريخية . . قد تشوش علينا . .

لابد من معاناة واصطبار . . فإن النجاح لا يسقط مع الأمطار . . ولا ينبت مع الأشجار !!

(لقد درس الغرب ثقافتنا وحضارتنا فى العصور الوسطى . . ووعاها وفهمها . .

وعرفوا نقاط الضعف فينا ثم استفادوا منها فلماذا لانأخذ بالأسلوب نفسه وندرس الغرب دراسة علمية) نقف بها على :

(منطلقاته الفكرية . وخلفياته الثقافية والسياسية من خلال دراسة علمية

موضوعية) .

تفعل ذلك : تلقيحا . . للعقل ، وترويحا . . للقلب ، وتسريحا للهم ، وتنقيحا . . للأدب .

والسلبيات قبل الإيجابيات :

لأن الثانية . . ما أكثر الذين يتغنون بها أما الأولى فهى : مؤامرة الصمت . . ليصبر صاحبها من بعد مضغة فى الأفواه . . وهو يحسب أنه « فوق »

٥- وعلى الداعى أن يكون مستعدا للنقد : ذلك بأنه بدون النقد :

يتحول البحر . . إلى بحيرة . . ثم يموت السمك : ثم تموت الحقيقة .

وعن طريق النقد :

١- تُثقل الملكة . . ليجىء النتاج أكثر رقيا

ومن يرفض إهداء عيوبه إليه فهو الذى قيل فيه :

من فرح بمدح ما ليس فيه . . فلسوف يغضب إذا قلت ما فيه

مــن أخــلاق الدعـــاة

وليتأمل الداعية فى أحوال من مضى من دعاتنا ليكن له فيهم أسوة :

٨- لقد أقام أحـد الصالحين بها ثمانيـة عشرعاما لا يشـرب إلا من ماء زمزم . و«بركوته » وحبله (الدلو الصغير) لماذا !

لأن ما على حافتها « دلو» من أموال السلاطين !!

وكان له زميل :

إذا أراد « قضاء الحاجة » خرج من الحرم إلى الحل . . تقديرا لمكة المكرمة .

وقد روى : أن « شابا » كان يكثر من البقاء فى مكة وكان يكثر من الطواف . .

قال رجل : فحملت إليه دراهم كثيرة . . ثم وضعتها على طرفه فأخذ « الخرقـة» ثم نثر الدراهم على الأرض . . واتجه إلى الحرم معرضا . .

قال الراوى : فما رأيت أعـز منه . . وهو ينثرها . . ولا أذل منى . . حيث كنت ألتقطها من بين الحصا !!

٧- وليذكر الداعيـة قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إن مشـاغل الحيـاة المعقـدة . . ثم تعلق كل إنسان بـدنيـاه . كل أولئك قد يـصيب العزيمة بالفتور . . فكان لابد من شد هذا الوتر المتراخى :

بالاستمساك بحبل الله .

ألا وإن نوازع الإنسان قد تغشه فتصور له الفساد صلاحا . .

فعليه أن يأرز إلى حصن الوحدة . . حتى لا تذهب طاقته بددا . .

ومن مشى فى طريق دقيق: لو أمسك بحبل . . لنجا . . فكيف إذا كان الحبل . . حبل الله المتين ! فكونوا جميعا : لا يشذ منكم أحد .

ولا تفرقوا : استمراراً للوحدة الجامعة ذاكرين ما يحملكم على التوحد وهو . أنكم كنتم متفرقين . . فوحدكم الله عز وجل مع ما كان بينكم من شدة التنافر إلى حد أن كنتم أعداء . . فصرتم « متآلفين » .

ولاحظ من دقة التعبير قوله عز وجل : (واعتصموا . .) .

فإذا كانت « اشتكى » أبلغ من « شكا » فإن « اعتصم » أبلغ فى بابها .

٦- ولا ينبغى : الاقتصار على مجرد « الحفظ » ثم تجاهل « الحفاظ » على روح هذه الحقائق . التى تسرى كالعافية فى الجسم السليم . .

وإلا . . فإن الخطر الأكبر هنا هو :

أن هذا الآخر الذى نحاول أن نقنعه . لن يقتنع !!

لماذا ؟

لأننا نعرض عليه « جزئيات » معزولة عن مصدرها . . مجردة من روحها . .

ويعنى ذلك : أننا بهذا لن نكون قد قدمنا إليه حقيقة الإسلام . . وعندئذ . . يتوقف التفاهم . . ويتجمد الحوار . . ونخسر القضية !!

المسلم بين
الخوف ..والرجاء

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ ﴾ [الزمر: ٩] بذكر صفات الجلال] ويرجو رحمة ربه [بذكر صفات الجمال] .

لكن إلى الرجاء أقرب .

بدليل : الرسل :

كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا . . .ورهبا :

لقد قدم . .الرغب . .على الرهب

لكن البعض يغلب الخوف :

[كان أحدهم يظن أن ذنبا واحدا يدخله فى الجاهلين . .

مستدلا ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] .

لكن هناك من هو إلى الأمل أقرب وهو الذى رجا قبول مثقال ذرة من طاعته. . ليكون مقبولا . .

فإن الله تعالى يتقبل من المتقين .

ومعنى الحذر فى الآية الكريمة :

الحذر الذى يمنعه من الانبساط فى الأمور . .خوفا من الإثم .

وإضافة الرحمة إلى الله تعالى . .دليل على أن الأمل أكمل .

وآناء . . دليل الاستمرار والمواظبة، والليل . .لأنه ساتر .

لقد كان إحساس سلفنا الصالح بصفات الجلال . .وصفات الجمال . .حادا . . وجادا . .

الأول : فرض عليهم العزلة . .حتى لا يسرق العابثون دينهم . .

لكنها عزلة إيجابية . . كعزلته ﷺ فى الغار .

أما الإحساس بصفات الجمال . . فقد زين الأمل فى عفو الله تعالى ومغفرته . فأحسنوا الظن به عز وجل .

لن نفض الاشتباك بالمكاء والشتائم . . فلنتجاوز الماضى بسلبياته . . حتى تفوت الفرصة على من يوغرون صدورنا . . وحتى يفهم بعضنا بعضا . . بدل الهجوم . . إن الحوار إذن هو طريقنا للتعاون المشترك : لقد كان أجدادنا عربا :

كانوا نبتا واحدا . . فى أرض واحدة فلما أسلم مسلم . . تغير كل شىء . .

وحتى على مستوى القمة :

فالحاكم يستشير عقلاء الأمة ثم ينزل على حكمهم إن كان الحق معهم ثم هو بعد ذلك خادم لهم

وتلك خاصة العرب : لقد كانت حرية العرب سبيلا إلى « الشورى » التى كانت أبرز مظاهر حياتهم . .

وبها . . كان تمحيص الآراء . . . ثم تطبيق ما استقر الرأى عليه .

فى الوقت الذى صارت ديمقراطية اليوم شعارات لا تصبر على التطبيق العملى . والتى صار معناها : الغاية تبرر الوسيلة !

ويتجدد اعتزازنا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به . والذى كان من خصائصه ما روى عن ابن عباس . الذى قال :-

[من أراد أمرا . . فشاور فيه مسلما . . وفقه الله تعالى لأرشد أموره]

فى الخطأ الأول : يلتمس العذر للداعية فإذا أخطأ بعد ذلك . . فيلتمس لجمهوره العذر !!

صلاح الحياة مردود إلى خمس قواعد :

إيمان . . يكبح الشهوات . وسلطة قوية . وأمن عام . وخصب دائم ، وأمل فسيح .

واجب العالم :

[ألا يكتفى بما تعلم . . بل عليه أن يزداد منه .

ولا يقنع من العلم بما أدرك لأن القناعة فيه : زهد

والزهد : فيه ترك . .

والترك : فيه جهل]

واجب المتعلم :

وفى التربية يقول :

[يجب أن يتجنب المتعلم الحفظ دون فهم فيكون كالكتاب :

لا يدفع شبهة . ولا يؤيد حجة]

كونوا للعلم دعاة . . ولا تكونوا له رواة .

ويرى أن الدين فى مقدمة عوامل الإصلاح لارتباطه بضمير الإنسان . ومن آرائه أن صلاح الجماعة يكون بصلاح الفرد ، وفسادها بفساده ، لأنهما مرتبطان متفاعلان، يقول: « من صلحت حالته مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ، لأنه منها يستمد ولها يستعد ، ومن فسدت حالته مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا . .

يقول الماوردى :

(لكل علم أثر فى النفس ، يدل على صاحبه : فمن تعلم القرآن . . . عظمت قيمته ،ومن تعلم الفقه . . . نبل مقداره . ومن كتب الحديث . . قويت حجته ،

ومن تعلم الحساب . . جزل رأيه .

ومن تعلم اللغة . . رق طبعه)

المكـابـــرة

من أسباب الانحراف :

بعض الناس : يرفضون القديم . . لأنه قديم . .

وبنفس القوة . . يمجدون الجديد . . لأنه جديد . .

يفعلون ذلك . . وهم فى نفس الوقت ـ كما قيل بحق :

[راقدون من الكون فى مهاد قديمة . من أنظمته وسننه :

تحيط بهم لفافات كثيفة من الطبائع والنظم البشرية العتيقة :

وهم مع ذلك . . يجـمحـون بأيديهم وأقدامـهم . كمـا يفعل الطفل فى المـهد ويزعمون أنهم يثورون على كل قديم ! :

إنهم يعيشون فى قديم من حرارة الشمس وضيائها .

وعلى قديم من أديم الأرض وغبرائها .

وتحت قديم من الدورة الفلكية الدائبة .

ومع قديم من الآمال الذليلة بقطر السماء . وزرع الأرض . وضرع الأنعام .

وأمام قديم من المخاوف لا تزال آخذة بالخناق :

هرم . . لا يتخلف .

ومشيب . . لا ينحسر

وموت . . لا يقهر .

ثم يصيحون : أنهم يثورون على كل قديم] ا.هـ

ونقول لهؤلاء :

(إذا كنت أيها الملحـد تريد أن تـثور حقا على العـبودية لله . فتعـال . . فأعلن الثورة على الواقع الثابت . الذى يدفع البشرية كلها بطابع العبودية .

إنه ليس الشأن أن تحرر جبهتك من السجود للخالق عز وجل . وأما الشأن هو: هل تستطيع أن تحرر ذاتك من سلطانه عليك ؟ ومن قانونه المتحكم فيك ؟!

أنت عبد . .

وإلا :

فمر الليل إذ يغشاك . . والنوم عن جفوتك يرتد .

وامنع الشيب إذ يغشاك ومرتب النضارة فى الخد!!

الحرية الحقيقية هى :

أن تحرر نفسك من سنته تعالى التى تتحكم فيك ولن تستطيع !

أهمية المـــاء

يقول الله عز وجل فى سورة المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٦] .

هذا أمر من الله عز وجل للمؤمنين أن يقيموا الصلاة بشروطها :

والمعنى :

إن الله سبحانـه وتعالى أنعم عليكم بالوفاء بعهد الربوبيـة بما ذكر من نعم جزيلة . . ويبقى أن تشكروا هذه النعمة بالوفاء بعهد العبودية :

فإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا . .

طهروا الظاهر بماء السماء . . ثم طهروا الباطن بماء الندم . .

إن الصلاة : عروج إلى الملأ الأعلى : مناجاة لله تعالى . وإذن فلا بد من حضورها بكل المدارك : بالوجود الإنسانى كله : بالاستعداد النفسى . . لهذا العروج . .

ثم بالاستعداد الجسدى بالوضوء : تطهّرا بالماء

الماء : الذى لا تقتصر فائدته على تطهير البدن فقط . . وإنما يطهر المسلم من الذنوب أيضا . والتى تذهب مع صب الماء على كل عضو . .

والمقصود هنا :

إذا أردتم القيام إلى الصلاة . . فاغسلوا . .

وإنما أظهر « القيام » وأضمر « الإرادة » إشارة إلى أن كل مسلم يريد العبادة . . عليه أن يسرع إلى هذه العبادة . . بحيث لا يكون هناك فاصل زمني بين الإرادة والفعل . . فرارا من التردد . . وما يجلبه من تمزق . .

ومن معانى ذلك :

أن الإرادة ما دامت قوية فإنها تنجز الفعل فإرادة الخير رغبة فيه . هى نفس الفعل أو الوجه الآخر له ! أما إذا تراخت فإنه لا يكون فعل : فالمريد للخير الراغب فيه فاعل فى نفس الوقت . . بينما المتردد مضيع وقته !! وذلكم هو كسل « المنافق » إذا حان وقت الصلاة . والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢] والتعبير «بإذا» فى قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم ﴾ بشارة للأمة بأنها مطيعة فعلا تضاف إلى التعبير بحرف الشك « إن » فى قوله تعالى .

﴿ وإن كنتم مرض . . ﴾ وما يشى به من قصر زمن البلاء . ومع طول أيام الرخاء ومن الحقائق التى تشير إليها الآية الكريمة :

أولا : أهمية الصلاة : التى يجب أن يظل العبد بها موصولا بربه تعالى . وتحت أى ظرف من الظروف . . ضمانا للمدد الإلهى الذى يجدد به المسلم المصلى . . حياته . .

ثانيا : نفى الحرج عن هذه الأمة : فلم نؤمر بغسل الرأس . . ولا بغسل داخل العين . . حماية لنا من الحرج .

ثالثا : الإحساس الحاد بنعمة « الماء » الذى هو سبيلنا إلى لقاء الله سبحانه وتعالى . والاستمتاع بمناجاته . وفى كل وقت وحين .

وأن انقطاع الماء أحيانا . . ولجوءنا إلى التراب بديلا . . يلقى علينا مسؤولية الحفاظ على هذا الماء . . الذى لا يعرف قيمة النعمة فيه إلا من فقده . . ثم بحث عنه فلم يجده . .

وإذا كان طلاب الدنيا يقولون :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده .

ولا الصبابة إلا من يعانيها

فإن العابدين لهم منطق آخر هو :

لا يعرف قيمة الماء . . إلا من وجده . . ثم فقده !! فلنقيد نعمة الماء « بشكرها » وإنما يكون شكرها بحسن استعمالها .

الماء .. والحياة

بقول الله عز وجل فى سورة الأعراف :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٧] .

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة دلائل عظمته ووحدانيته من العالم العلوى . . أتبع ذلك بذكر بعض آياته فى العالم السفلى . . دليلا على البعث بادئا ذلك سبحانه بالضمير : وهو :

أى هو تعالى . . لا غيره مما تعبدون من البشر أو الحجر أو الشجر : هو الذى يرسل الرياح : بين يدى المطر وهو رحمة الله . .

[تحمَل السحاب مثقلا بالماء . فتسوقه إلى الأرض الجديب . والبلد الميت ثم تنزل ما حملت من ماء :

فتسيل به الوديان . وتجرى منه العيون . وإذا هذا الجدب . وذلك الموات حياة

تدب في أوصال الكائنات : من جماد . وحيوان . ونبات : « تُلبس الجماد ثوب الحياة . وتخرج من الأرض الجديب زروعا ناضرة . وثمارا دانية القطوف . مختلفة الطعوم] .

« لعلكم تذكرون » .

ذلك بأنكم لما شاهدتم أن هذه الأرض كانت مزينة وقت الربيع والصيف . . بالأزهار والثمار . . ثم صارت عند الشتاء ميتة . . عارية عن تلك الزينة] دلّ ذلك على أن من وراء ذلك فاعلا مختارا . . هو الله سبحانه وتعالى . .

وأن الذى فعل ذلك لقادر على إخراج الموتى من الأرض بعد أن صاروا ترابا . .

فهو تعالى لما قدر على إعادة النبات بجمع الماء له من جوف الأرض وكما أحيا الشجرة . بعد أن كانت لاروح لها بإيداع الثمرة التى هى روحها . . فهو قادر على إعادة الأشباح وإيداعها الأرواح .

كما كانت أول مرة . لأنه لا فرق بين الإخراجين] ا.هـ

ومن الإشارات العلمية هنا :

أ- [إن الريح هى التى تثير السحاب من سطح البحر . وغيره من المياه . أو الأرض الرطبة . . فترفعه فى الجو .

وهى سبب تحول البخار إلى ماء بتبريدها له .

فبذلك يصير البخار ماء أثقل من الهواء . . فيسقط من خلاله إلى الأرض .

بحسب سنة الله فى جاذبية الثقل . . كما قال تعالى فى سورة الروم : ٣٠- ٤٨
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ .

والودق : المطر

ب - (إنزال الماء يعقب سوق السحاب الثقال . وجعله كسفا أوركاما بدقائق معدودة . قلما يتجاوزها إلى الساعات .

وسبب السرعة فيه : شدة الريح

ويقابله سبب البطء وهو : ضعفها : أى الريح .

وأما إخراج النبات بسبب هذا الماء . . فأمر التعقيب فيه أوسع :

فإنه يكون بعد أيام تختلف قلة وكثـرة . . باختلاف الأقطار فى الحرارة والبرودة)
جـ - [المراد بكل الثمـرات : جميع أنواعهـا . على اختلاف طعومـها . وألوانها. وروائحها . .

والبلاد تخـتلف أرضها فـيما تخـرجه . ويكفى فى كل أرض أن تخـرج أنواعا مختلفة . تدل على قدرة الله تعالى ورحمته]

ومن الإشارات الإنسانية هنا :

نحن منهيون ـ قبل هذه الآية ـ عن الإفساد فى الأرض .

أ- خلقها الله تعالى صالحة وتلك نعمة الإيجاد .

ب- ثم أمدها بالماء لتستمر صالحة . . وتلك نعمة الإمداد .

ومن شكر هذه النعمة الحفاظ عليها : إننا مأمورون بالحفاظ على اللقمة » فكيف بقطرة الماء !؟ منهيون عن الاعتداء . . حتى فى الدعاء . . فكيف بالاعتداء تبذيرا للماء الذى يجب أن يبقى لتحمله الرياح إلى أرض مـوات . . أرض صحراء . . حتى تتسع مساحة الخضرة . . وتتوفر لنا من هذا الخضرة حبة الغذاء . وحبة الدواء .

المــــاء
من الجمال إلى الكمال

يقول الله عز وجل فــى سورة الرعد : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [١٧] .

المعركة بين الحق والباطل قديمة قدم الحياة نفسها .

وإحســاس كل من المحق والمبطل بأن بقاءه يعنى مــوت الآخر . . هذا الإحــساس يجعل المعركة مستمرة بينهما .

ومن رحمة الله تعالى أن يشد عضد المحق بما يــثبت قلبه . ويحميه من اليأس . وكان هذا المــثل صورة من هذه الرحــمة التى تؤكــد أن الحق قد يتراجــع يوما . . وأن الباطل قد ينبهــر بما يحقق من انتصارات مرحلية . ولكن العبــرة بالخواتيم التى تشير إلى أن المستــقبل للحق وإن طال المدى . . وأن البــاطل زائل يوما . . حتى من أدمــغة أصحابه الذين قد يفتنون به . فإذا هو زاهق .

ومعنى هذا المثال القرآنى :

يقول البيــضاوى: [مثل الحق فى إفادته وثباته . بــالماء الذى ينزل من السماء : فتــسيل به الأودية على قدر الحــاجة والمصلحة . فينتــفع به أنواع المنافع . ويمكث فى الأرض بأن يثبت بــعضه فى منابعــه . ويسلك بعضــه فى عروق الأرض إلى العــيون والآبار .

وبالفلز الذى ينتفع به فى صــوغ الحلى . واتخاذ الأمتعــة المختلفة . ويدوم ذلك مدة متطاولة .

ومثل الباطل : فى قلة نفعه . وسرعة ذهابه : يزيدهما] .

وقد يعلو الباطل يوما . . أو هكذا يبدو فى مرأى العين . . ولكنه الفجر الكاذب: فسرعان ما تسقط دولته . وتتراجع صولته . .

وذلك إنما يكون أمام عزمات أهل الحق . . الذين يصابرون المبطلين ليكون الانتصار خاتمة المطاف .

أجل إن الباطل قد يعلو . ولكنه علو « الزبد» : الرغوة العائمة . التى سوف تتلاشى ليبقى الماء . . ويبقى المعدن الأصيل .

﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ يجفأ به : يرمى به . ويبقى الحق مرفوع اللواء .

وأحيانا نعترف نحن بأن الباطل قد انتصر . ثم تقع فريسة للإحباط الذى يوشك أن يقضى على البقية الباقية من قوتنا .

وعلينا أن نسأل أنفسنا : هل انتصر الباطل فعلا !!

والجواب : لا !

لأننا لم نحارب . . ولم نستعمل قوانا المدخرة . الكامنة فى قلوبنا . ألا وإن انتصار الباطل فى جولة . لايعنى أنه الأعلى .

وإنما يعنى أننا لم نحارب فى أنفسنا قيم هذا الباطل العفنة . والتى نجح فى تزيينها لنا .

ألا إن « الزبد» قد يعلو :

ولكنه [الماء من تحته سارب . ساكن . هادئ : هو الماء الذى يحمل الخير والحياة .

كذلك . . فى المعادن التى تصاغ منها الحلية :

إن الخبث يطفو . وقد يحجب المعدن الأصيل .

ولكنه بعد : خبث يذهب . ويبقى المعدن فى نقاء]

ويبقى الماء مثالا للجمال وللكمال معا :

يبقى نعمة تساوى الحق . أو تساوى الحياة . . والحفاظ عليه يعنى الحفاظ على الحقّ : على الحياة .

هذا الماء
يفعل الله به ما يشاء

يقول الله عز وجل فى سورة الأنعام :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٩] .

إذا كان الدليل مذكرا بالنعمة . كان تأثير هذا المسلك للقلب أملك ! وهكذا التذكير بنعمة الماء الذى يقف من وراء هذه النعم الكبيرة . والكثيرة : والتى تدعونا الآية الكريمة إلى تأملها بهذه الدعوة الكريمة إلى سياحة فى مملكة النبات :

سياحة بالبصر الكاشف . . ومن ورائه البصيرة المتأملة . . والتى يصل بها التأمل إلى : كيف كان الماء نعمة مسداة . ورحمة مهداة . إلى جانب كونه دليلا على قدرة الله تعالى وعلى إرادته . . وحكمته : فالله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ :

ثم كان من قدرته وعظمته وإرادته أن أخرج به (نبات كل شىء) مختلفة طعومه. وألوانه . وروائحه . ومنافعه وطبائعه . . مع أن الأصل واحد !

ومن دلائل هذه العظمة هذا الضمير (أخرجنا منه) : خضرا : هو لقاح الحياة . ولولاه لما كان حب ولا تمر . وهو خضرة طبعية. لا صناعية ومن الخضر : السنابل . وعناقيد العنب : حبا متراكبا) .

(يركب بعضه بعضا . ويحرسه من أن يلتقطه الطير . بعد ستره بالقشر بَحَسك طويل . لطيف جدا . كالإبر : خشن . بعد أن كان أصله حبة واحدة . ثم تتوالى آيات القدرة فى قوله عز وجل :

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ .

إنها السباطة : فى متناول الأيدى . وإن طال أصلها . ثم الجنات والأعناب :

إنهما فاكهة . وقوت . فى نفس الوقت .

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ .

تأملوه : كيف يثمر ضئيلا . . لا طمع فى نفعه . ثم تأملوا حال نضجه لتصلوا إلى الحقيقة التى تفرض نفسها وهى :

كيف صار ضخما . نافعا . ممتعا .

وتلك هى الآيات التى تؤكد ما يلى :

إن حدوث الأجناس المختلفة . والأنواع المتباينة . .ثم نقلها من حال إلى حال . مع أن الأصل واحد . .وهو الماء . لدليل على علمه تعالى المحيط . وحكمته البالغة ومشيئته النافذة .

وتلك هى صفات الإله الواحد :

والذى لا يعانده . .ضد . .ولا يمانعه ند والذى جعل من الماء كل شىء حى . .

ولكن الإحساس بنعمة الماء ليس متاحا لكل أحد . .وإنما كما يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لأنهم كما قيل بحق :

(بحذقهم ونشاطهم وقوتهم على ما يحاولونه . .يجددون الإيمان كلما تأملوا فى مصنوعات الله سبحانه وتعالى : الدالة عليه . المشيرة بكل لسان إليه ومن فقه المؤمنين هنا ما قالوه .

(وبدأ بهاتين الشجرتين - النخلة والعنب ـ لفضلهما على غيرهما :

لأن ثمرهما : فاكهة وقوت. وقدّم الأول ـ وهو النخل ـ لأنهم له أكثر ملابسة . وإن كان العنب أشرف أنواع الفواكه :

فإنه ينتفع به من أول ظهوره .

لأنه أولا : يكون له خيوط خضر : دقيقة حامضة . لذيذة . ثم يكون الحصرم وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى .

وقد يتخذ أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء] ومن معانى ذلك :

أن تبديد قدر من الماء هو فى نفس الوقت حرمان لشجرة مثمرة : تذبل بحرمانها منه . . وما فى ذلك من عدوان على الإنسان .

نعمة الماء :

يقول الله عز وجل فى سورة الفرقان :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [٤٨ : ٤٩] .

يمتن الله تعالى على عباده بأنه تعالى ـ دون سواه ـ هو الذى حرك الرياح مبشرات قدام المطر . الذى أنزله الله سبحانه من السماء ماء طهورا :

طاهرا فى ذاته . . مطهرا لغيره :

هذا الماء الذى وصف بالطهور . . ليشتد الإحساس بمعنى النعمة فيه : إحساسا تتم به المنة :

فالطهور أهنأ وأنفع من الماء العكر .

ثم هو تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها . . فبواطنهم بالتطهير أولى . بمعنى :

أن الله تعالى لما أراد لهم الطهارة . وأرادهم عليها . . فحقه سبحانه عليهم : أن يتقربوا إليه بطهارة الظواهر والمخابر . وأن ينؤوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات : مادية ومعنوية : إن على الإنسان الذى أكرمه ربه بهذا البيان عليه أن يثبت أنه فعلا أهل له .

ولقد كانت للمفسرين هنا نظرات مستقبلية . . . على طريقة : فإن قلت : قلت افتراضا لسؤال يعبر عن معنى جدير بالبيان . . وإن لم يتقدم به إنسان :

وكانت لهم أسئلة . منها :

١- لم خص « الأنعام » بالذكر . . وكل ما خلق الله من الحيوان مما سقاه

سبحانه!

٢- ما مغزى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة !

٣- لأى سبب قدم إحياء الأرض . وسقى الأنعام على إحياء الأناسى !

والجـــواب : عن الأول : فالأنعام . . فيهـا من المنافع ما ليس لغيرها . ثم هى من خواصهم .

إلى جانـب كونها بطـيئة الحـركة فى طلب الشـرب . . بينما غـيرها من الـطيور والوحوش أقدر على الحـركة والحصول على الماء بسهولة . . ومن ثم كـانت النعمة فى سقى الأنعام أظهر . .

وإذن . . فالإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام عليهم بالسقى .

وعن الثانى :

إن أهل القرى والمدن يقيمون قريبا من الأنهار . وهم وأنعامهم ربما كانوا فى غنى عن سقيا السماء .

أما أهل البـوادى : فهم أحوج مـا يكون إلى المطر . . وهم كثـير . . ولعل ذلك واحد من أسرار التنكير هنا . .

وعن الثالث :

فإن تقديم حـياة الأرض وحياة الأنعام على حيـاة الأناسى إنما تقديم السبب على المسبب . وأنهم إذا ضمنوا ما يسقون به أرضهم وأنـعامهم . فلم تبق سقياهم مشكلة . . لأنهم يتصرفون عندئذ .

أما بعـــد :

فإن الله سـبحانه وتعـالى يحرك الرياح . . ويسوق بهـا السحاب . . الذى ينهـمر مطرا . . من أجل إحـيـاء أرض بور . . وبشـر كـثـيـر . وكل ذى كـبـد رطبـة من المخلوقـات.

وتلك منة يمنها الله سبحانه علينا : ليقـوى إحساس الإنسان بها . . مدركا أنه إذا

أتيح له قدر من الماء فوق حاجـته . . فيجب عليه ألا يبدده فى كـماليات . . لأنه بهذا التبديد يحرم كائنات أخـرى من الحياة . . ويستبقى نسبة من « التـصحّر » هو مسؤول عنها. إن عطاء الربوبية هنا عطاء جزيل .

وينبغى أن يكون عطاء العبودية ردا على هذا الجميل .

استقالة مرفوضة !!

تمهيد :

يقولون : إنما يكون الداعية داعية بتلاميذه ومؤلفاته .

ومشاهد الكون تؤكد ذلك :

فالشجرة لا تكون شجرة : إلا بأغصانها . وثمارها . وفروعها . وظلالها .

وبنفس القوة نقول :

إن الحاكم لا يكون حاكما إلا بشعبه الذى يتابعة ويراقبه . ليتحملا معا مسؤولية الأمة :

روى مسلم عن عدى بن عميرة قال : سمعت النبى ﷺ يقول :

« **من استعملناه منكم على عمل . فكتمنا مخيطا ..فما فوقه ..كان غلولا يأتى به يوم القيامة** » .

فقام إليه رجل أسود من الأنصار . . كأنى أنظر إليه . . فقال : يارسول الله : اقبل عنى عملك (يقدم استقالته) قال له الرسول : «ومالك !»

قال : سمعتك تقول كذا وكذا . قال الرسول : « **وأنا أقول الآن : من استعملناه على عمل . فليجئ بقليله وكثيره : فما أوتى منه أخذ . وما نهى عنه انتهى** » . لقد كان الرجل يعين فى منصب ما . . . وقد يأتى يوما بمجموعة من الهدايا فيقسمها بينه وبين أمته قائلا : هذا لكم . . وهذا أهدى إلى !!

وقد كانت للرسول ﷺ وقفته الحاسمة أمام هذا التصرف المريب . ردعا لهذا المسؤول . ولأمثاله من المتلاعبين . ثم حفاظا على أموال الشعب أن تذهب تملقا لجاه أو سلطان .

فلما أوشك الأمر أن يكون ظاهرة . . كانت له هذه الغضبة النبوية

- ولا نقول : المضرية ـ نذيرا لكل من تسول له نفسه أن يجعل من المنصب مغنما وبخاصة أولئك الذين يحاولون الاستئثار بما تملكه الدولة من مال ومتاع وكيف أن كتمان حتى المخيط سوف يحمله صاحبه إلى عرصات القيامة ليحاسب عليه حسابا عسيرا . . كفاء حصوله على ما لا يملكه . والذى يتحول بهذا الاستهتار إلى « غلول » يحاول به المسؤول الثراء على حساب الشعب : يستوى فى هذا المصير الرعيب : من أعلن ذلك تبجحا . . ومن أخفاه غدرا .

(الصحابة : عند حسن الظن بهم) :

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم . . كانوا على أوفى ما تكون الاستجابة لتوجيهات الرسول ﷺ .

وهذا واحد منهم : رجل من الأنصار يعكس نبض قلوبهم :

لقد أحس هذا الرجل بخطورة المنصب وما يمكن أن يجره على شاغله من نكال ووبال . . هذا المنصب الذى قد يغرينا بريقه . . وما يترتب عليه من سلطان وتفوق . . ولكن خاتمته قد تكون شقوة الأبد !

لقد هب الرجل . . أو هذا المسؤول مذعورا . . وقدم استقالته إلى الرسول ﷺ . راجيا قبولها ! وذلك قوله : يا رسول الله : أقل عنى عملك .

ويسأله الرسول ﷺ عن سر ما يريد . .

فأجاب الرجل بما يعنى : أنه ـ وبناء على تحذيره الآنف ـ قرر الفرار من منصب من ورائه هذا النصب .

ولقد كان رد الرسول ﷺ هو : مواصلة التحذير وضرورة أن يكون المسؤول أمينا .

يعود إلى الدولة بكل ما كان المنصب سببا للحصول عليه .

ثم ينظر فى أمره : فما كان حقا له . . . أخذه . . . وما كان للدولة . . فهو للدولة .

استقالة مرفوضة :

ولا تتحدث الرواية عن قبول استقالة الرجل . هذا الشاعر الحساس . فلم يكن الحل الإسلامى هو قبول استقالته . **وإنما الحل هو :**

أولا : معاقبة الخائن نكالا . .

ثم الإبقاء على مثل هذا المسؤول الأنصارى :

١- فوجوده حجة على كل خائن

٢- ثم إن ممارسته للأمانة تشجيع لغيره أن يكون كذلك أمينا .

٣- الفرار من المسؤولية يترك المكان شاغرا . . وقد يشغله انتهازى ممن يتاجر بأقوات الشعب . .

وتبدو مسؤولية الرجل الأول فى كل موقع :

إنه يراقب ويتابع . . ولا بد أن يحاسب ويعاقب . . أما نحن اليوم : فلا نحاسب . ولا نعاقب . . .

ومن شأن هذا التساهل أن يتسع به الخرق على الراقع . .

وقد نسمح لبعض الأقلام أن تتكفل بحملة التشهير ضد هؤلاء المتجاوزين . .

وقد يكون من أصحاب الأقلام من هو أشد جرما . . إلى الحد الذى تنتهى حملة التطهير بمزيد من التشهير . . وما يترتب عليه من جعجعة . . ولكن لا ترى طحنا !

والمطلوب هو ما تشير به السنة النبوية :

تحذير المسؤول . . وقبل أن يقع الخطأ لا تدليله . . ثم محاسبته . . وذلك طبق القاعدة التى تقول : من أبكانى . . ثم بكى على . . خير ممن أضحكنى . . ثم فى النهاية ضحك على!

وفــــاق الرفـــاق

عندما ولى الخلافـة « عمر بن عبـدالعزيز » رضى الله عنه . . ضم إلى بيت المال كل ما كان موقوفا على الخليفة .

حتى إن « المراكب » الفخمـة الجديدة عندما قدمت إليه ـ رفضـها . . مؤثرا بغلته القديمة !

ثم كانـت منه نظرات فاحـصة إلى كل مـا فى قصر الخـلافة من مطارف النـعيم . . فباعها . . وضم ثمنها إلى بيت المال !!

ولم تبق إلا زوجته فاطمة بنت عبد الملك :

ومع أن جل ممتلكاتها كانت مما ورثته عن أبيها . . إلا أنه طلب منها أن ترده كله: من مال وحلى ومتاع . . إلى بيت المال !

فإن هى رفضت فعليها أن تلحق بأهلها . . بلا تحية وبلا وداع !!

وجاء ردها حصيفا حكيما .

قالت : يا أمير المؤمنين : إنى أختارك على المال . والحلى . . بل وعلى أضعافه!

وكان سروره بموقفها بالغا .

وحين مـات عمـر رضى الله عنه أراد « يزيد بن عـبـدالملك » (أخـوها) أميـر المؤمنين من بعـده . . أراد أن يكرمـها برد مـا أخذ منهـا . . فكان ردها مع الحـصافـة والحكمة وفيا : إذ قالت للخليفة : لقد طبت عنه نفسا فى حياة عمر . فلا صلة لى به الآن .

وهكذا ترى نفسك أمام زوجـة ربما لا يجود الزمان بمثلها إلا مرة واحـدة ومهما سرح بك الخيال فى رسم صورتها فإنها فى الواقع أفضل مما تخيلت !! إن الحلى جزء من كيان المرأة وبخاصة ساكنات القصور !!

ثم إن المال مالها : مما ورثته عن أبيها . .

وكان من حقها أن تتمرد على أمر الزوج بناءً على هذا . . ولكنها تمردت على هوى نفسها . . فصنعت ما يحب زوجها . . ولو كان ذلك مخصوما من كيانها .

تفعل ذلك وهى الحسيبة النسيبة :

أبوها « عبدالملك » كان خليفة . . على ثلث الدنيا عندئذ . . وكان جدها «مروان» خليفة . .

ثم صار إخوتها خلفاء « الوليد » « وسليمان » و«هشام خلفاء» . وصار ابنا أخيها كذلك . .

ثم هى زوجة الخليفة « عمر » تسعة خلفاء تنتسب إليهم .

ومع كل ذلك . . فقد تنازلت عن حليها . . وأموالها . . لعل زوجها يرضى منطلقة من القاعدة التى قعدتها هى :

فقد سئلت بعد موته عنه فقالت :

والله ما علمته اغتسل من جنابة . أو احتلام منذ استخلف حتى توفاه الله ولما عوتبت فى ذلك قالت لمن لامتها على إهمالها زينتها .

وهل تصنع الزوجة لزوجها . . إلا ما يحب !!

فإنه يحب هذا منى !!

وهكذا كان عطاؤها . . بلا حدود !

ولقد بقى وفاؤها له حتى بعد موته . . حين رفضت ما عرض عليها تقديرا له وهو فى قبره !

وزوجات اليوم مطالبات أن يقتربن من هذه القمة التى قد يقتربن منها كلما اجتهدن وإن لم يصلن إليها . .

هذه القمة التى لم يقصر ولاؤها عند هذا الحد . . بل كان لهذا الولاء أبعاد أخرى يسكت الله بها اليوم ألسنة زوجات متمردات : جاءته امرأة من إيران فى حاجة . . فلما سألت عن قصر الخليفة دلوها عليه . . ففوجئت بدار عادية لا تستلفت النظر . .

فلما أذن لها بالدخول ..كانت المفاجأة المذهلة :

رجل يكسو جداره بالطين . .ثم امرأة تناوله الطين !!فقالت المرأة الفارسية : ألا تحتجبين من هذا الطيان !! وكانت المفاجأة لما أجابتها « سيدة القصر » قائلة : إنه أمير المؤمنين !!

وفى الوقت الذى تذمر فيه خدم القصر من أكل « العدس » كل يوم . كانت هى راضية به طعاما شهيا ما دام زوجها راضيا مرضيا !!

وذات يوم مرض الخليفة فزاره أخوها « مسلمة » .

وكان مما لاحظه أن قميص الخليفة يجب أن تغسله . .فالناس يعودونه ومن الأدب أن يكون قميصه نظيفا . .

ولما عاد إلى بيتها مرة أخرى وجد القميص كما هو لم يغسل . .

فلما أغلظ لها القول قالت له : والله ما له قميص غيره !!

لقد كان المتوقع أن « يحرر» أخته من هذا العذاب :

إنها بنت خليفة : وزوجة خليفة ..فمالها ولهذا العذاب الموصول ! ولكن وفاء الزوجة هنا يرجح ذلك كله :

وحين قارنت بين الدنيا على سعتها . .وبين رضاء زوجها . .آثرت رضاه على كل ما سواه . .

إن فى ذلك لعبرة لتلك الزوجة التى رأت من حال زوجها ما لا يحقق آمالها فى عيش رغيد . .

ولم تعتصم بالصبر الجميل . .جاعلة من شظف العيش مسوغا للشكوى . . ضاربة عرض الحائط بما هو أثقل فى الميزان من كل متاع الدنيا وهو رضاء الزوج ونحن لا نطالب كل زوجة أن تكون « فاطمة » وإنما هى الأمثال نضربها للزوجات لعلهن يحاولن الصعود إلى مثل هذا المرتقى لعلهن فربما أتيح لهن أن يقتربن على الأقل . .مدركات أن الوفاق ثروة لا تقدر بمال . .ثم إن هذا الوفاق لا يخدم الزوج وحده . .وإنما هو القاسم المشترك الأعظم . .والذى ينشر ظله على كل من فى البيت . . وبخاصة الأولاد :

ونخص منهم : البنت . .

البنت التى ترى . . وتسمع . . كل ما فى البيت . . فإذا زفت غدا إلى بيت جديد . . كان لها من هذا الرصيد ما يعمر به هذا البيت . .

هذا الرصيد المشتق من مصابرة أمها . . ونبل أبيها . .

ألا وإنها لشهادة صدق على بركة الزواج بذات الدين . . لقد كانت فاطمة جميلة فى مرآها . . حسيبة فى نسبها وكانت أيضا غنية بحليها ومالها . .

لكن ذلك كله يستمد قيمته من عنصر « التدين » الذى جعل البيت جنة وارفة الظلال . . تجرى من تحتها الأنهار . . .

الأمر الذى يلح على الشباب أن يظفر بذات الدين . . «فاظفر بذات الدين تربت يداك» !

أما بعد :

فقد تصل العلاقة الزوجية أحيانا إلى طريق مسدود :

إلى حيث ينتهى الأفق . . فلا تضيئه شمس . . ويختنق الجو حتى لا ينعشه هواء طليق . .

ولكن المعدن النفيس . . المشتق من جوهر الحق . . سرعان ما يشع ضياء يبدد الظلام . . وهواء يرطب الجو . . وكأن شيئا لم يكن !

الاستغفار طريق الازدهار

يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ٣]

والمعنى :

١- أن الإنسان إنما يطلب الشيء من القادر عليه سبحانه .

٢- والمستغفر طالب إزالة ما لا ينبغى . . ثم هو بالتوبة مجتهد فى إزالة هذا الذى لا ينبغى . بمعنى :

الرجوع إلى الله بالظاهر والباطن معا :

ومتى تم ذلك كان الجزاء :

يمد لكم فى تلذيذكم بالحياة مدا : يمتعكم : « متاعا » لا مجرد « تمتيع » . .

وعلى هذا « المتاع » قوة تضاف إلى قوتكم .

هذه القوة الناشئة من الانتفاع بهذه النعم . . لأنها ليست مجرد رفاهية وإنما هى طاقة تمنحكم قوة ترهبون بها عدوكم .

الخطأ قدر الإنسان :

وقد تكون هناك حساسية كلما فرطوا فى جنب الله . . وقد تقف بهم على حافة اليأس . . ولكن الحقيقة أن الإسلام أكرم من هذا . . وأنه إذا كان الذنب فى إحساسك عظيما . . فإن عفو الله أعظم .

يضاف إلى ذلك أن كل بنى آدم خطاء . . وخير الخطائين التوابون :

معانى المصطلحات

معنى الإستغفار :

أصل معناه : الستر ، ثم أريد به: الصفح .

معنى التوبة :

١- ندم جارف على ما فعل .

٢- إحساس قوى بعظمة من أخطأت فى حقه .

٣- عزم أكيد على عدم العود .

معنى الندم :

١- اعتقاد قبح الذنب .

٢- بغضه .

٣- الإحساس بالألم كلما تذكره .

من المأمور بالتوبة ؟:

المجتمع كله . . وإلا فإن وجود بعض المنحرفين قد يترتب عليه سريان الذنب بالعدوى . . والمفروض أن تكون البيئة طاهرة ليجىء المنكر فيها عشبا طفليا : يموت بفقدان ما يغذيه .

والآمر بها :

الله سبحانه وتعالى . . وهو عز وجل من عصيته !!

عن أنس : أن أصحاب النبى ﷺ شكوا إليه أنا نصيب من الذنوب . . فقال لهم:

«لولا أنكم لا تذنبون لجاء الله بقوم يذنبون . فيستغفرون الله . فيغفر لهم ».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان . عن عبدالله بن عمرو . قال :

أنزلت : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] .

وأبو بكر قاعد . فبكى أبو بكر .

فقال له رسول ﷺ :

ما يبكيك يا أبا بكر !

قال : أبكانى هذه السورة .

فقال له رسول الله ﷺ :

« لو أنكم لا تخطئون . ولا تذنبون فيغفر لكم ..لخلق الله أمة من بعدكم : يخطئون . ويذنبون . فيغفر لهم » .

والحديث الشريف لايدعو إلى الاستكثار من الذنوب : ولكنه :

١- يفتح باب الأمل فى رحمة الله . لكل من زلت قدمه فى باب الطريق الطويل.

٢- يعين المؤمن على شيطانه . . فلا ييأس أبدا .

أولى مراتب التوبة : الاعتراف بالخطأ :

يقول عز وجل على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص/١٦] .

ويقول عز وجل ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] .

ويقول تعالى ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف ٩١] .

ويقول سبحانه ﴿ا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف / ٩٧] .

الإحساس بالذنب :

وإذ ينخس الشيطان فيورط الرجل فى المعصية . . فإن إحساسه بهذه المعصية يظل يؤرقه . ويقض مضجعه . . حتى يتوب :

ذكروا أن رجلا صالحا كان يخوض لجة الماء والطين فى يوم مطير . .

ولكنه وجد كلبا يتعثر بينما هو بنجوة فى من العثار حين اتخذ له من ربوة ملجأ.

لكنه سرعان ما تخلى عنها لهذا الكلب !!

ولما سئل فى ذلك قال :

تذكرت معصيتى . . فكرهت أن أوثر نفسى . . على كائن لا ذنب له !!

متى تكون التوبة مقبولة ؟!

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء / ١٧]

يقول ابن تيمية رحمه الله فى كتابه « التوبة » :

(جميع ما يتوب العبد منه : سواء كان فعلا أو تركا . قد لا يكون كان عالما بأنه ينبغى التوبة منه .

وقد يكون كان عالما بذلك :

فإن الإنسان كثيرا ما يكون عالما بوجوب الشىء أو قبحه . ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه .

ثم يتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب . أو قوة المقتضى لفعل القبيح. لكن هذا لايكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه .

وإلا . . فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة فى الطرفين) ا. هـ.

ثم روى رحمه الله تعالى عن أصحاب ﷺ قولهم : « **كل من عصى الله فهو جاهل .. وكل من تاب قبل الموت ..فقد تاب من قريب** » .

ويعنى بذلك أن المراد بالجهل فى الآية الكريمة ليس ما هو ضد « العلم » وإنما ما هو ضد « الحلم » : والمعنى . كما يقول البقاعى :

(يعلمون السوء ملتبسين بسفه أو بحركة . وخفة . أخرجتهم عن الحق والعلم . . فكانوا كأنهم لا يعلمون بعملهم عمل أهل الجاهلية الذين لا يعلمون) ا.هـ.

وإنما كان العلم للعمل به . . وإلا كان المذنب العالم جاهلا . . ويعنى ذلك أنهم غير مصرين على الذنب . بل يجددون التوبة كلما ارتبكوا فى حبائله وقد يصيبهم من التوفيق ما يردهم عن الذنب قبل مواقعته .

من واقعية الإسلام

ومن واقعية الإسلام التعبير بحرف العطف « ثم » فى قوله تعالى: ﴿ ثم يتوبون﴾ .

لأن الحرف « ثم » يفيد التراخى . . وذلك يعنى أن من تورط فى المعصية فقد غلبت السكرة الفكرة . .

لكنه تحت ضغط شلال الندم يستيقظ آسفا . . فى محاولة للتوبة والعود إلى الله عز وجل .

لكن العود هنا لا يتم بسهولة . . بل يحتاج إلى مدة حتى يتحرر التائب من الذنب عائدا إلى مثل ما كان عليه قبله . .

وكل ذلك مفهوم من التعبير بحرف العطف « ثم » والذى يفيد الإسراع فى التخلص من عقدة الذنب . . والذى سوف يتحقق بإذن الله تعالى . ولكن بعد محاولات معاناة يبذل فيها الجهد الجاهد . . وصولا إلى حيث كنا . . وذلك شأن التوبة النصوح :

يقول ابن تيمية رحمه الله :

(والمؤمن : لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور . ويزداد هدى .

فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك : فيتوب مما تركه وفعله) ا.هـ

يقول عز وجل :

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

من أى شىء تكون التوبة؟ :

يقول ابن تيمية :

والتوبة : رجوع عما تاب منه . إلى ما تاب إليه :

فالتوبة المشروعة هى : الرجـوع إلى الله . وإلى فعل ما أمرك به . وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط . كما ظن كثير من الجهال : لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح :

بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من فعل السـيئات المنهى عنها : فأكثر الخلق يتركـون كثـيرا مما أمرهم الله به مـن أقوال القلوب وأعمـالها . وأقـوال البدن وأعمـاله . وقـد لايعلمون أن ذلك مما أمـروا به . أو يعلمون الحق ولا يتـبعـونه . فيكونون : إما ضالين : بعدم العلم النافع . وإما مـغضوبا عليهم . بمعاندة الحق بعد معرفته) .

ونذكر هنا ما يتذرع به من لايلتـزمون بالسنة المطهرة حين يقولون : إن ترك السنة لا عقاب عليه . . فإنا نقول لهم : بل إن ترك السنة يحرمك من درجة فى الجنة . .

وكفى بهذا الحرمان عقابا .

ثم إن العود إلى عمل الحـسنة المتروكة . . يمضى بك فى طريق الخيـر صاعدا . . كما يقول أيضا .

(يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخـرى : فإذا عمل بعلمه ورّثه الله علم ما لم يعلم . وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى :

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد / ١٧]

وقال تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم / ٧٦]

تماما كما أنه كان من عقاب السيئة أن تدعو إلى سيئة أخرى .

قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة / ١٠]

وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف / ٥]

من موانع التوبة :

قيل لأبى داود السجستانى : ما الشهوة الخفية ؟ قال :

حب الرئاسة : وحبك الشيء يعمى ويصم .

فيبقى حب ذلك يزين له ما يهواه . . مما فيه علو نفسه. ويبغض إليه ضد ذلك : حتى يجتمع فيه الاستكبار . والاختيال . والحسد .

الحسد الذى هو : بغض نعمة الله على عباده . لاسيما من مُناظره .

ألا وإن طغيان النفس ليزيد ويستشرى عندما يرى المرء غيره . وقد استأثر بما يريده هو ويحبه .

الحقيقة التى تفرض نفسها :

غفران الذنوب نعمة مفروغ منها سلفا .

لكن المشكلة هى :

هل تاب المذنب فعلا ؟

هل أثبت أنه جدير بهذا الغفران !

بعض الناس يستمرئ العصيان . . ويرفض الغفران :

ومنهم « مجنون ليلى » والذى كان يقول : فيارب : إذ صيرت ليلى لى الهوى. فزنى لعينيها كما زنتها لى ! !

إن الفتى العاشق هنا يسعده أن يستمر مسلسل العشق وما يترتب عليه .

بل ويتبجح فيطلب من الله سبحانه ذلك .

أن يكون فى عينيها جميلا . . كما أنها فى عينيه كذلك . .

وهو مع زميله رهين العشق . .

والذى قال :

صغيرين : نرعى البهم ليتنا خليلى ـ لم نكبر ولم تكبر البهم . .

لقد كان يتمنى أن يتوقف الزمن ليظل فتى وتظل هى فتاة . . حتى لا تنقطع

بالمشيب قصة الهذيان .

وإذا كـان المجنون يعـيش وهم الحـب الذى قـد يسـول له شيـاطين الإنس أنه عبادة. . أو شهادة !!

من الذين قالوا :

إن الرقص . . عبادة !!

أو قالوا :

خلقت الجمال لنا آيــة　　قلت : ألا يا عباد اتقــون

وأنت جميل تحب الجمال　　فكيف عبادك لا يعشقون !!!

إذا كـان هناك من يوسـوس بذلك . . فـزين للمـجنون أن يـعـيش هذا الوهم الكبير. فـما هو عذر الذين يعتـرفون بأنهم ارتكبوا ذنبا لكنهم لايريدون مـغفرته ؟ : ومنهم القائل :

ورأيت أنك كنت لى ذنبا سألت الله ألا يغفره !؟

بل يرحم الله من يؤمن على دعائه :

وذلك قول واله آخر :

فيارب : لا تسلبنى حبها أبدا

ويرحم الله عبدا قال آمينا !!

وإنك لترى وتسمع فى هذا الباب عجبا :

الراقصة . . تبنى مسجدا .

ثم تظل فى رقصها تفسد الساجدين . .

إن عليها أن تتوب من الرقص أولا . . فإذا تـابت فلا تحبس نفسها فى البيت كتلة من اللحم :

فلتخرج من محبسها . . لتكون عضوا فى جمعية خيرية :

لتـمارس الطاعـة علانية . . بـعد أن حرّضت عـلى العصـيان جهـرا : أن تذيق الجمهور عزة الطاعة . . بعد أن أذاقتهم سكرة المعصية .

وقد تتسرب هذه القصائد الماجنة لتكون مادة للغناء . . وعلينا أن نقطع عليها الطريق . قبل أن تفسد علينا صبياننا .

من مثل قولهم : قدر أحمق الخطا أنا عبدك . .

ألا إنها الغيرة على مقدساتنا وعقيدتنا . . أن تكون مسلاة أو ملهاة .

إن بعض الماديين يشجعون على الانحراف :

ومنهم الذين يقولون :

لا يجوز « العرى » على نحو غير مألوف !!

ويقولون: يجب أن يكون « الرقص » محتشما !!

ثم يتجمعون . . فيقررون ضرورة خضوع الفن لقيم الأخلاق !!

وإذ يسمون ذلك « حرية الرأى » فإنا نقول لهم :

ليس هذا رأيا . ولا حرية .

ولكنه محاولة مكشوفة لجعل الانحراف أسلوبا يوميا .

ليكون خطيئة بعد أن كان خطأ . وإلا : فهو هنا عرى مألوف . . وعرى غير مألوف !!

وهل هناك رقص محتشم ورقص غير محتشم !!! إن الواقع شاهد بانحراف هذا التقسيم . . . جازم بأنه كله من عمل الشيطان . . وأنه لا أخلاق تحكم هذا الانحراف!!

جزاء الاستغفار :

يقول ﷺ :

« من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا . ورزقه من حيث لا يحتسب ».

وروى : « إذا استبطأت الرزق . . فأكثر من الاستغفار ».

وإذا ورد عليك أمر تكرهه فأكثر من : « لا حول ولاقوة إلا بالله» . وإذا أنعم الله عليك فأكثر من :« الحمد لله» .

وهذه الوصايا مما يغيظ الله به الشيطان :

الشيطان الذى يحزنه ذلك الملجأ إلى الله تعالى . . والمنتهى بغفرانه الذنوب تفضلا وقد روى أن إبليس بكى عندما نزل قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ...﴾ [آل عمران : ١٣٥]

وهكذا المؤمن :

يصاب : فيصبر ، ويذنب . . فيستغفر . .

ثم يتفضل عليه سبحانه بقبول توبته وستر ذنوبه . . وهذا مما يحزن الشيطان إلى حد البكاء ! إذ كان يطمع أن يظل باب التوبة مغلقا . حتى يظل المؤمن ملوثا بآثامه . ليكون فى يديه غنيمة سهلة !

من مآثر الفاروق :

وفى خلافة الفاروق عمر رضى الله عنه . قحط الناس بالمدينة :

(قحط من باب : خضع وطرب)

فخرج بهم مستسقيا .

فكان أكثر قوله : الاستغفار .

فقيل له : يا أمير المؤمنين : لو دعوت !!

فقال: أما سمعتم قوله عز وجل :

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾[نوح]

فكان الاستكثار من الاستغفار فى الاستسقاء سنة إلى اليوم .

حتى يظل الباب مفتوحا :

وحتى يظل باب التوبة مفتوحا . . فلا بد أن نكون مؤهلين لدخوله :

وذلك . . بالوفاء بشروط الاستغفار

سمع على رضى الله عنه من يقول فى صلاته قائلا :

أستغفر الله . . تبت إلى الله . .

وبعد الصلاة قال له :

استعجلت فى الاستغفار : توبتك تحتاج إلى توبة !!

ومن ذلك :

أن تذوق مرارة الطاعة . . كما ذقت حلاوة المعصية !

وهذا المعنى ملحوظ من قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

فالذنب حمل ثقيل . . يريحك الله تعالى منه . بصفات جماله عز وجل . وما دامت كذلك . . فلا بد من ندم جارف . . وعود حميد إلى ربك سبحانه وتعالى :

عود حميد : يفرض على الشيطان اليأس من محاولة إغوائك مرة أخرى :

بالثناء على الله عز وجل :

والإخلاص فى العبودية :

والاعتراف بأنه لا ملجأ منه إلا إليه :

وأن تتجمد فى عينيك الدموع . . ليبكى جبينك عرقا حياء مما كان . . .

وتساقط حبات العرق هذه . . ليمسح الله تعالى بها ما فعلت . وما قلنا

ولقد كان للإمام توجيهاته الراشدة فى هذا الباب :

اشتكى أعرابى إلى أمير المؤمنين « على » رضى الله عنه شدة لحقته وضيقا فى الحال وكثرة من العيال . فقال له :

عليك بالاستغفار : فإن الله تعالى يقول :

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ [نوح].

فعاد إليه الرجل . وقال له :

قد استغفرت كثيرا . وما أرى فرجا مما أنا فيه !!

قال : لعلك لا تحسن أن تستغفر.

قال : علمنى .

فقال :

أخلص نيتك . وأطع ربك . وقل : اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك . أو نالته يدى بفضل نعمتك . أو بسطت إليه يدى بسابغ رزقك. أو اتكلت فيه عند خوفى منه . على أناتك . أو وثقت فيه بحلمك . أو عولت فيه على كرم عفوك .

اللهم :

إنى أستغفرك من كل ذنب خنت فيه أمانتى . أو بخست فيه نفسي . أو قدمت فيه لذتى . أو آثرت فيه شهوتى . أو سعيت فيه لغيرى . أو استغويت فيه من تبعنى. أو غلبت فيه بفضلى حيلتى . أو أحلت فيه عليك يامولاى : فلم تؤاخذنى على فعلى . إذ كنت سبحانك كارها لمعصيتى . لكن . . سبق علمك فى باختيارى . واستعمالى مرادى وإيثارى :

فحلمت عنى : لم تدخلنى فيه جبرا . ولم تحملنى عليه قهرا . ولم تظلمنى شيئا : يا أرحم الراحمين :

يا صاحبى . . عند شدتى .

يا مؤنسى . . فى وحدتى .

وياحافظى . . عند غربتى .

وياوليى . . فى نعمتى .

ويا كاشف كربتى . وياسامع دعوتى . وياراحم عبرتى . ويا مقيل عثرتى . يا إلهى بالتحقيق . . يا ركنى الوثيق . يا رجائى فى الضيق . ويا مولاى الشفيق .

ويارب البيت العتيق :

أخرجنى من حلق المضيق . .إلى سعة الطريق .

وفرج من عندك قريب وثيق . واكشف عنى كل شدة وضيق .

واكفنى ما أطيق وما لا أطيق .

اللهم : فرج عنى كل هم وكرب . وأخرجنى من كل غم وحزن .

يا فارج الهم .

يا كاشف الغم .

يامنزل القطر .

ويا مجيب دعوة المضطر .

يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما : صل على خيرتك : محمد النبى وعلى آله الطيبين الطاهرين . وفرج عنى ما ضاق به صدرى . وعـيل معه صبرى . وقلت فيه حيلتى . وضعفت له قوتى : يا كاشف كل ضر وبلية . ويا عالم كل شر وخفيه. يا أرحم الراحمين . وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

قال الأعرابى :

فاستغفرت بذلك مرارا : فكشف الله عز وجل عنى الغم والضيق .

ووسع على فى الرزق . وأزال عنى المحنة) الفرج بعد الشدة:ج١/ ١٤٣، ١٤٤

مدخـــل :

للدعوة معنيان :

الأول هو : ما تدعو الناس إليه وهو :

القيم والعمل الصالح :

والثانى : أسلوبك فى الدعوة إلى ما سبق .

وفى هذا الكتاب نتحدث عن الدعوة بمعناها الأول . . والثانى وهى كلمات قيلت متفرقة فى مناسبات شتى نقدمها تبصرة وذكرى : نقدمها غير مرتبة . . كما قيلت غير مرتبة .

وإنما كانت متفرقة جاءت جوابا عن سؤال . . أو استطرادا فى مجلس علمى . . أو تعليقا على منطق . . ليكون مجموع ذلك كله هو هذا الكتاب . . الذى يوافى القارئ العزيز مضيفا إلى أفكاره فكرة . . وإلى نظرته نظرة . . وإلى فهمه فهما . .

وكل أولئك لا يلزم المؤلف . . بالعرض المنهجى . . المنسق . . بعيدا عما يمر به الشارع من أفكار . . هى فى حاجة إلى الترجيح والتوضيح أكبر من حاجتها إلى المنهجية والتنسيق .

محمود محمد عمارة

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**